الدين النصيحة

نصيحة صادقة

لإخواننا الأشاعرة

تنبيهاتٌ مهمةٌ وفوائدُ نفيسةٌ ونقولٌ عزيزةٌ

تأليف

الدكتور/ محمد بن علي بن جميل المطري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نصيحة صادقة

نصيحة صادقة

لإخواننا الأشاعرة

تنبيهاتٌ مهمةٌ وفوائدُ نفيسةٌ ونقولٌ عزيزة

نَصِيحَةٌ صَادِقَةٌ

لإخواننا الأشاعرة

تنبيهاتٌ مهمةٌ وفوائدُ نفيسةٌ ونقولٌ عزيزة

تَأْلِيف

الدكتور/ محمد بن علي بن جميل المطري

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

اسـم الكتاب : نصيحة صادقة لإخواننا الأشاعرة .

اسـم المؤلف : محمد بن علي بن جميل المطري .

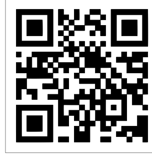
مقاس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم .

عدد الصفحات : (صفحةً) .

رقم الطبعة : الأولى ـ ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م .

التنسيق والإخراج : كيوفور للطباعة والنشر

https://bit.ly/3mMAJb3







بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، **أما بعد:**

فأحمد الله الكريم الوهاب الذي حبَّبَ إليَّ علم القرآن والسنة، وأعانني على قراءة ما تيسر من كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث النبوي وشروحه، ويسر لي الاطلاع على كثير من كتب العقائد القديمة والمعاصرة المبينة لعقيدة أهل السنة والجماعة وما خالفها من الفرق والمذاهب، وحين اطلعت على أشهر كتب الأشاعرة القديمة والحديثة تبينت لي حقائق كثيرة أثبتها في هذا البحث المتواضع نصحا للمسلمين عامة، ولإخواننا الأشاعرة خاصة، فإن الدين النصيحة، فواجب على المسلمين أن يتناصحوا فيما بينهم، فكلنا يعلم ويجهل، ويصيب ويخطئ، فكتبت لإخواني الأشاعرة وفقهم الله هذه النصيحة الصادقة، وإن كان أكثرهم أفضل مني وأعلم، فالمفضول قد يعلم ما يجهله الأفضل، وقد تضمنت هذه النصيحة فوائد نفيسة، ونقول عزيزة، وتنبيهات مهمة، فهذا البحث رجعت فيه إلى كتب كثيرة جدا قديمة وحديثة، وأتعبت نفسي في جمعه وتحريره، وقد أكثرت في هذا البحث من النقول من كتب الأشاعرة أنفسهم مع توثيق ذلك ببيان أرقام الصفحات؛ ليطمئن القارئ من صحة ما أنقله عنهم،

ونقلت أيضا عن العلماء الذين ردوا على الأشاعرة فيما أخطأوا فيه الصواب، كابن تيمية وغيره من العلماء السابقين له أو اللاحقين، وبعض الأشاعرة لا يحب أن يقرأ شيئا لابن تيمية خاصة، ولا شك أنه عالم يصيب ويخطئ، ولا يجوز الغلو فيه، ولا التعصب عليه وبخسه حقه، والنقول التي اخترتها من كلامه نقول نفيسة، ومنها ما هو تلخيص وتحرير مفيد للموافق والمخالف، ولا شك أن كثيرا من الأشاعرة منصفون، ويقبلون الفائدة من أي قائل كان، فلن يعدم قارئ هذه النصيحة من الفائدة إن شاء الله، سواء كان أشعريا أو غير أشعري، وليست النصيحة بشرط القبول، فخذ - أيها القارئ الكريم - ما صفا مما ترى، ودع ما كدر، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وقد جعلت الكتاب في مقدمة، وتمهيد، وثمانية مباحث كما يلي:

المبحث الأول: التعريف بأبي الحسن الأشعري.

المبحث الثاني: نشأة المذهب الأشعري وأسباب انتشاره.

المبحث الثالث: تطور مذهب الأشاعرة.

المبحث الرابع: تراجم أشهر أعلام الأشاعرة الذين طوروا المذهب الأشعري.

المبحث الخامس: سبب تأويل أو تفويض علماء الأشاعرة لنصوص الصفات.

المبحث السادس: حكم الأشاعرة.

المبحث السابع: واقع الأشاعرة في العصر الحاضر.

المبحث الثامن: الحث على الاعتصام بالكتاب والسنة، وترك البدع.

أسألُ اللهَ أن ينفع إخواننا الأشاعرة بهذه النصيحة المتواضعة، وأن يجعلها سببا لجمع كلمة المسلمين على الحق المبين، وأن يرزقنا جميعا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه الصحابة ومن اتبعهم بإحسان بلا تفريط ولا طغيان، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

وكتب/ **محمد بن علي بن جميل المطري**

صنعاء – اليمن

١٧ ذي الحجة ١٤٤٣ للهجرة

matari63@hotmail.com

واتس: ٠٠٩٦٧٧٧٧١٧٥٩٢٧

التمهيد

علم الكلام يطلقه المتكلمون على علم العقائد الذي يتكلمون فيه بالحق والباطل على غير الطريقة المعروفة عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهي الاعتصام بالقرآن الكريم والسنة النبوية، فأهل الكلام يتسلطون على أدلة القرآن بالتأويل، وعلى أدلة السنة بالتأويل والرد والتشكيك، ويخوضون متكلفين في مسائل أمسك السلف الصالح عن الكلام فيها؛ ولذلك اتفق أئمة الإسلام من المتقدمين والمتأخرين على ذم علم الكلام، وذم أصحابه، وتجهيلهم[(١)].

قال الإيجي رحمه الله: (الكلام علم يُقتَدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام)[(٢)].

---

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٣٤)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (١/ ٤٣٨) و(٢/ ٤٩٩).

(٢) المواقف (١/ ٣١).

وقال ابن خلدون رحمه الله: (هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)[1].

وقال الجرجاني رحمه الله: (الكلام: علم يُبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة)[2].

فعلم الكلام عند المتكلمين يطلق على كل علم يُدافع به عن العقائد الصحيحة أو الباطلة، فعلماء الكلام يطلق على المختلفين الذين يضلل بعضهم بعضا، كما قال الإيجي: (الخصم كالمعتزلة مثلا وإن خطأناه في اعتقاده وما يتمسك به في إثباته لا نخرجه من علماء الكلام، ولا يخرج علمه الذي يقتدر معه على إثبات عقائده الباطلة من علم الكلام)[3].

وعن سبب تسميته علم الكلام يقول الإيجي: (إنما سمي كلاما إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة أو لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام في كذا أو لأن مسألة الكلام

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٨٠).

(٢) التعريفات (ص: ١٨٥).

(٣) المواقف (١/ ٣٤).

أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم)[1].

وقد فُتِن كثير من الناس بعلم الكلام، وظنوه أهم العلوم الشرعية، وأوجبوا تعلمه على بعض الناس[2]، وألفوا فيه كثيرا من الكتب، مثل كتاب: نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني، وأساس التقديس في علم الكلام للرازي، وغاية المرام في علم الكلام للآمدي، والمواقف في علم الكلام للإيجي، والمقاصد في علم الكلام للتفتازاني، والمسايرة في علم الكلام لابن الهمام، وغيرها كثير.

وقد قرر أبو حامد الغزالي ﵀ أن علم الكلام مُحدَث، وذمه بما فيه، إلا أنه أوجب تعلمه على بعض الناس، وجعله من العلوم الشرعية للضرورة إلى رد شبه أهل البدع به بقدر الحاجة فقال: (حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة، وهي من البدع، وأما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، فصار ذلك المحذور بحكم

(١) المواقف (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: الإشارة في علم الكلام للرازي (ص: ٢٦ - ٣٨).

الضرورة مأذونا فيه، بل صار من فروض الكفايات،... فإن قلت: تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف، فمن قائل: إنه بدعة أو حرام، وأن العبد إن لقي الله ﷻ بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل: إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد، ونضال عن دين الله تعالى، وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف، قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول: لأن يلقى الله ﷻ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه، وقال أيضا: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام، قال الزعفراني: قال الشافعي: حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام... والأولى والأبعد عن الالتباس أن نقول: إن في علم الكلام منفعة، وفيه مضرة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام، أما مضرته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه،

ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق، وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة... وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور في أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام،... وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر، إذ لا يضعه إلا في موضعه، وذلك في وقت الحاجة، وعلى قدر الحاجة)[(١)].

فهذا كلام الإمام الغزالي رحمه الله الذي تعمق في علم الكلام، وبين عن تجربة ومعرفة أن علم الكلام كثير الضرر، قليل الفائدة، ثم إنه في آخر أمره رجع عن علم الكلام كما سيأتي في ترجمته.

قال ابن تيمية رحمه الله: (تجد عامة الخارجين عن منهاج السلف يعترف بذلك إما عند الموت وإما قبل الموت، والحكايات في هذا كثيرة معروفة، هذا أبو الحسن

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢، ٩٤ – ٩٧) باختصار وتصرف يسير. ويُنظر: تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٨٩ – ٥٩١).

الأشعري نشأ في الاعتزال يناظر عليه ثم رجع عن ذلك، وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم، وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والتصوف رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف (إلجام العوام عن علم الكلام)، وهذا الرازي في كتابه الذي صنفه في (أقسام اللذات) قال: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي، وكان يتمثل كثيرا:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به!

وكذلك الشهرستاني، وكان ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلـــم أر إلا واضـــعا كـــف حـــائر   على ذقـن أو قارعـا سـن نـادم)[1].

وقد ثبت من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[2].

قال أبو العباس القرطبي ﵀ في شرح هذا الحديث: (هذا المبغوض عند الله تعالى هو الذي يقصد بخصومته: مدافعة الحق، ورده بالأوجه الفاسدة، والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين، كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وسلف أمته، إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية، مدار أكثرها على مباحث سوفسطائية، أو مناقشات لفظية ترد بشبهها على الآخذ فيها شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالا عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها! وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها! ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعا من المحال لا يرتضيها البله، ولا الأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلقات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات، أو غيرها، وأن الكلام

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٢، ٧٣) باختصار.

(٢) رواه البخاري (٧١٨٨) ومسلم (٢٦٦٨).

هل هو متحد أو منقسم؛ وإذا كان منقسما فهل ينقسم بالأنواع أو بالأوصاف؛ وكيف تعلق في الأزل بالمأمور؛ ثم إذا انعدم المأمور فهل يبقى ذلك التعلق؛ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلا هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؛ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته؛ فإن العقول لها حد تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار؛ فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها، وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها! وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز، وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات، منزَّه عن صفاتها، مقدس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به، ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه، وتركنا الخوض فيه، هذه طريقة السلف، وما سواها مهاو وتلف، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين، فمن ذلك قول عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر الشغل، والدين قد فُرِغ منه، ليس بأمر يؤتكف على النظر فيه، وقال مالك: ليس هذا الجدال من الدين في شيء، وقال: كان يقال: لا تمكن زائغ القلب من أذنك؛

فإنك لا تدري ما يعلقك من ذلك، وقال الشافعي: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في علم الكلام، وإذا سمعت من يقول: الاسم هو المسمى، أو غير المسمى، فاشهد أنه من أهل الكلام، ولا دين له، قال: وحكمي في أهل الكلام أن يُضرَبوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام، وقال الإمام أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدا، علماء الكلام زنادقة، وقال ابن عقيل: قال بعض أصحابنا: أنا أقطع أن الصحابة ﭫ ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر، فبئس ما رأيته. قال: وقد أفضى هذا الكلام بأهله إلى الشكوك، وبكثير منهم إلى الإلحاد، وأصل ذلك: أنهم ما قنعوا بما بعثت به الشرائع، وطلبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكم التي انفرد بها، ولو لم يكن في الجدال إلا أن النبي ﷺ قد أخبر أنه الضلال، كما قال فيما خرجه الترمذي: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، وقال: إنه صحيح. قلت: وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة، لما لطف الله تعالى بهم، وأظهر لهم آياته، وباطن برهانه، فمنهم: إمام المتكلمين أبو المعالي، فقد حكى عنه الثقات أنه قال: لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك رغبة في طلب الحق، وهربا من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل

بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجويني! وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به. وقال أحمد بن سنان: كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحدا أعلم مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهموني؟ قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أفتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم. وقال أبو الوفا بن عقيل: لقد بالغت في الأصول طول عمري، ثم عدت القهقرى إلى مذهب المكتب. قلت: ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقا بالذم، وجديرا بالترك:

إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالى!

والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر! فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا فقال: لا يُشنِّع عليَّ بكثرة أهل النار! أوكما قال، ثم إن من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا على من قال بهما بطرق النظر والاستدلال بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأ فاحش، فالكل يخطئون الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شك في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالى واجب؛ وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعا، أو مختل العقل وضعا؛ إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد

بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات ولا العقليات، عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسلك بنا طرق السلف الماضين، وإنما طولت في هذه المسألة الأنفاس؛ لما قد شاع من هذه البدع في الناس، ولأنه قد اغتر كثير من الجهال بزخرف تلك الأقوال، وقد بذلت ما وجب علي من النصيحة، والله تعالى يتولى إصلاح القلوب الجريحة)[١].

وأول ما نشأت بدعة الكلام في مسألة القدر، فكان القدرية يخوضون بعقولهم في مسألة القدر، وقد رد عليهم بعض الصحابة كعبد الله بن عمر رضي الله عنهم[٢].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦٩٠ - ٦٩٤).

(٢) أخرج مسلم (٨) عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفَّرون العلم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف، قال: (فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر)، ثم روى عن أبيه عمر بن الخطاب حديث جبريل الطويل، وفيه: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

قال الشهرستاني رحمه الله: (وأما الاختلافات في الأصول فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، ويونس الأسواري في القول بالقدر، وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر، ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزَّال، وكان تلميذ الحسن البصري، وتلمذ له عمرو بن عبيد، وزاد عليه في مسائل القدر،... والوعيدية من الخوارج، والمرجئة من الجبرية. والقدرية ابتدءوا بدعتهم في زمان الحسن، واعتزل واصل عنهم وعن أستاذه القول منه بالمنزلة بين المنزلتين، فسمي هو وأصحابه معتزلة، وقد تلمذ له زيد بن علي، وأخذ الأصول؛ فلذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة، ومن رفض زيد بن علي لأنه خالف مذهب آبائه في الأصول، وفي التبري والتولي، وهم من أهل الكوفة؛ وكانوا جماعة، سموا رافضة، ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حيث نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنا من فنون العلم، وسمتها باسم الكلام، إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان)[(١)].

وقد ظهرت بدعة الشيعة والخوارج في زمن خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعده، ثم ظهرت بدعة النَّصْب في مقابل بدعة الشيعة، وظهرت بدعة المرجئة في مقابل بدعة الخوارج، وكثر الكلام بالآراء والأهواء في تأييد هذه البدع، وظهر

(١) الملل والنحل (١/ ٢٨).

الكلام في مسألة إخراج العمل عن مسمى الإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة، ووافقت المعتزلة الخوارج في القول بتخليد أصحاب الكبائر في النار، إلا أنهم ابتدعوا القول بالمنزلة بين المنزلتين، فلا يسمون صاحب الكبيرة مؤمنا ولا كافرا، وإنما يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وحين ظهرت بدعة القدرية قابلها بعد ذلك بدعة الجبرية، ثم في أواخر عصر التابعين ظهر القول بخلق القرآن ونفي الصفات على يد الجعد بن درهم (ت نحو ١١٨هـ)، وهو شيخ الجهم بن صفوان السمرقندي (ت نحو ١٢٨هـ)، الذي تُنسب إليه الجهمية، ثم ظهر عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب (ت ٢٤٣هـ)، فرد على الجهمية في قولهم بخلق القرآن، وابتدع القول بأن كلام الله قائم بذات الله بلا مشيئة، ثم ظهرت الأشاعرة والماتريدية، وكثر الكلام في مسائل العقيدة بالحق والباطل، وكثر الجدال والخصام في مسائل الاعتقاد، وتكلف المتكلمون الخوض فيما لم يتكلم فيه السلف الصالح، بل صرح كثير من المتكلمين بأن طريقتهم أعلم وأحكم من طريقة السلف، والله المستعان(١).

---

(١) يُنظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ١٤ - ١٧)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ٢٨٣) و(٥/ ٢١، ٢٢) و(٦/ ١٤٩)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٣٧٨)، تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٩٨١)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم (ص: ٤٩ - ٥١، ١١٣، ١٣٧)، البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٩٩)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي (٢/ ١٣٠، ٥٦٢)، شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٧٩٤).

المبحث الأول:

التعريف بأبي الحسن الأشعري

هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، من ذرية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، والأشعري نسبة إلى قبيلة يمنية تنتسب إلى أشعر، من ولد كَهْلان بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان[(١)].

ولد أبو الحسن الأشعري ﵀ في البصرة سنة ٢٦٠هـ، وسمع الحديث من الحافظ زكريا بن يحيى الساجي البصري (ت ٣٠٧هـ)، وأخذ عنه مذهب أهل السنة، ولازم أبا علي الجبَّائي البصري (ت ٣٠٣هـ) شيخ المعتزلة، وأخذ عنه مذهب الاعتزال، وكان الأشعري ينوب عنه في بعض مجالسه، ولما برع أبو الحسن الأشعري في معرفة الاعتزال تبرأ منه علنا، وأكثر من التأليف في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل البدع[(٢)].

---

(١) يُنظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/ ٣٩٧)، الأنساب للسمعاني (١/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: الفهرست لابن النديم (ص: ٢٢٥)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٧١، ١١٨).

وقد اختلف الناس في المراحل التي مر بها أبو الحسن الأشعري كما سيأتي بيانه، ومن أحسن تصانيف أبي الحسن الأشعري الموافقة لأهل السنة في الجملة: كتاب (الإبانة عن أصول الديانة)، وكتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)، و(رسالة إلى أهل الثغر).

قال الذهبي رحمه الله: (لأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله أشياء حسنة، وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم... قال أبو الحسن الأشعري في كتاب (العمد في الرؤية) له: صنَّفتُ (الفصول في الرد على الملحدين) وهو اثنا عشر كتابا، وكتاب (الموجز)، وكتاب (خلق الأعمال)، وكتاب (الصفات)، وهو كبير، تكلمنا فيه على أصناف المعتزلة والجهمية، وكتاب (الرؤية بالأبصار)، وكتاب (الخاص والعام)، وكتاب (الرد على المجسمة)، وكتاب (إيضاح البرهان)، وكتاب (اللُّمَع في الرد على أهل البدع)، وكتاب (الشرح والتفصيل)، وكتاب (النقض على الجبائي)، وكتاب (النقض على البلخي)، وكتاب (جُمَل مقالات الملحدين)، وكتابا في الصفات هو أكبر كتبنا، نقضنا فيه ما كنا ألفناه قديما فيها على تصحيح مذهب المعتزلة، لم يؤلف لهم كتاب مثله، ثم أبان الله لنا الحق فرجعنا، وكتابا في (الرد على ابن الراوندي)، وكتاب (القامع في الرد على الخالدي)، وكتاب (أدب الجدل)، وكتاب (جواب الخراسانية)، وكتاب (جواب السيرافيين)، و(جواب الجرجانيين)، وكتاب (المسائل

المنثورة البغدادية)، وكتاب (الفنون في الرد على الملحدين)، وكتاب (النوادر في دقائق الكلام)، وكتاب (تفسير القرآن)، وسمى كتبا كثيرة سوى ذلك)[(١)].

توفي أبو الحسن الأشعري رحمه الله في بغداد سنة ٣٢٤ هـ[(٢)].

وقد اتفق المؤرخون والباحثون على أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله كان في أول أمره معتزليا، واستمر على مذهب الاعتزال سنين كثيرة، ثم رجع عن بدعة الاعتزال وعمره نحو أربعين سنة[(٣)]، ورد على المعتزلة، وبين بطلان عقائدهم التي خالفوا فيها الحق، وكان أبو الحسن الأشعري في هذه المرحلة على طريقة عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصري المتوفى سنة (٢٤٣هـ) الذي كان يخالف المعتزلة، ويوافق أهل السنة في كثير من المسائل الاعتقادية، وطريقة ابن كُلاب أقرب إلى السنة من طريقة المعتزلة، فكان أبو الحسن على هذه الطريقة.

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٧).

(٢) يُنظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٣/ ٢٦٠)، تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٧١)، طبقات الشافعيين لابن كثير (ص: ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) قال عبد الرحمن المحمود: (الملاحظ أن مترجمي الأشعري يشيرون الى أن مدة مقامه في الاعتزال أربعين سنة، فإذا كان الأشعري ولد سنة ٢٦٠ هـ والجبائي توفي سنة ٣٠٣ هـ، ورجوع الأشعري كان قبل وفاة الجبائي؛ لأن الجبائي نفسه رد على الأشعري، فالأولى أن يعتبر هذا الكلام تقريبيا، وأن المقصود أن رجوع الأشعري كان وهو قريب من الأربعين في عمره، ولذلك عبر البعض بأن إقامة الأشعري في الاعتزال كانت عدة سنين) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ٣٧١).

قال الشهرستاني وهو من كبار الأشاعرة المطلعين على تاريخ الفرق والمذاهب: (السلف لم يتعرضوا للتأويل، حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي، وأبي العباس القلانسي، والحارث بن أسد المحاسبي، وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية، وبراهين أصولية، وصنف بعضهم، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه مناظرة في مسائل من مسائل الصلاح والأصلح فتخاصما، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهبا لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتية إلى الأشعرية)[1].

واختلف المؤرخون والباحثون هل استمر أبو الحسن على طريقة ابن كُلَّاب أو أنه رجع عنها أيضا إلى مذهب السلف[2]؟

وسبب الخلاف أنه لا يوجد نص واضح لأبي الحسن يبين فيه براءته من طريقة ابن كُلَّاب كما تبرأ من طريقة المعتزلة، وإنما قال في كتابه الإبانة: (فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون. قيل له:

---

(١) الملل والنحل (١/ ٩٣) بتصرف يسير.

(٢) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (١/ ٣٧٧ - ٤٠٩)، المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ٧١ - ٧٣).

قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ، وبسنة نبينا محمد ﷺ، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم)(١).

وهذا النص ظاهر جدا في رجوع أبي الحسن إلى مذهب السلف الصالح، ولكنه لم يذكر ابن كُلَّاب بمدح ولا قدح، فقال بعض المؤرخين: إن أبا الحسن استمر على طريقة ابن كُلَّاب، وهي الطريقة التي يسير عليها الأشاعرة من بعده، وينسبونها إلى أبي الحسن الأشعري الذي أشهرها، ومذهب أبي الحسن الأشعري مبني على قواعد ابن كُلَّاب.

قال المقريزي ؒ في ترجمة أبي الحسن الأشعري: (صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة، وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٢٠، ٢١). وهذا النص نقله ابن عساكر عن أبي الحسن من كتابه الإبانة، فلا مجال للتشكيك في صحته عنه، فابن عساكر معدود من متقدمي الأشاعرة، بل هو من أشهر من ذب عن أبي الحسن الأشعري. يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نُسِب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٥٧، ١٥٨).

يعرفني فأنا أعرِّفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد الرد على المعتزلة، مبين لفضائحهم ومعايبهم. وأخذ من حينئذ في الرد عليهم، وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كُلَّاب القطان، وبنى على قواعده)[(١)].

وقال ابن حجر العسقلاني عن ابن كُلَّاب: (وعلى طريقته مشى الأشعري في كتاب الإبانة)[(٢)].

وقال بعض العلماء: إن أبا الحسن الأشعري في آخر أمره رجع عن طريقة ابن كُلَّاب إلى مذهب أهل السنة، وأثبت سائر الصفات التي يدل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، وضمَّن ذلك كتابه: (الإبانة عن أصول الديانة).

قال ابن كثير رحمه الله: (ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله ثلاثة أحوال، أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة، والحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبعة، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه، واليدين، والقدم، والساق، ونحو ذلك، والحال الثالثة: إثبات ذلك كله من غير تكييف، ولا تشبيه، جريا على منوال

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٩٣).

(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٨٧). ويُنظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (٤/ ١٩١).

السلف، وهي طريقته في (الإبانة) التي صنفها آخرا، وشرحه القاضي الباقلاني، ونقلها أبو القاسم ابن عساكر، وهي التي مال إليها الباقلاني، وإمام الحرمين، وغيرهما من أئمة الأصحاب المتقدمين في أواخر أقوالهم، والله أعلم)[(١)].

وعلى كل حال سواء تبرأ أبو الحسن من طريقة ابن كُلَّاب أو بقي عليها، وسواء ثبت اتِّباع أبي الحسن مذهب السلف أو لم يثبت، فالعلماء يحكمون على أي قول بالصحة والفساد بحسب موافقته لأدلة الكتاب والسنة، فإذا وافق أبو الحسن الكتاب والسنة في المسائل التي تكلم فيها، واتبع فيها السلف الصالح فقد أصاب، وإذا خالف الأدلة فقد أخطأ، وكل عالم يُؤخذ من قوله ويُرد.

ومن يطالع كتاب (الإبانة عن أصول الديانة)[(٢)] بعلم وإنصاف يتبين له أن أبا الحسن الأشعري قرب كثيرا من مذهب أهل السنة إلا أنه قد بقيت عليه بقايا

---

(١) طبقات الشافعيين (ص: ٢١٠). ويُنظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٢٢٨)، العرش للذهبي (٢/ ٣٨٧)، غرائب الاغتراب للآلوسي (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) قال عبد الرحمن المحمود: (هو من أهم كتب الأشعري، وأكثرها إثارة للجدل؛ لأنه يحوي جوانب من العقيدة تخالف ما عليه متأخرو الأشعرية، خاصة في مسائل الصفات الخبرية والعلو والاستواء، ونسبته إلى الأشعري مشهورة، ففضلا عن النسخ الخطية التي تنسب هذا الكتاب إليه فإن جمهرة من جلة العلماء نسبوه إليه، وفيهم من دافع عن الأشعرية- في المحن التى مروا بها- من خلال بيان صحة اعتقاد الأشعري الذي ينتسبون إليه، وذلك بالنقل من هذا الكتاب مما يوافق مذهب أهل السنة، ومن هؤلاء العلماء: البيهقي، والصابوني، وابن عساكر، ونصر المقدسي، وأبو بكر، السمعاني، وابن تيمية، =

من مذهب ابن كُلَّاب، بل ومن مذهب المعتزلة، وهذا ما يرجحه ابن تيمية وعبد الرحمن المحمود ومحمد الشهري، والله أعلم[(١)].

قال ابن تيمية ﵀: (من قال من الأشاعرة بكتاب الإبانة الذي صنفه الأشعري في آخر عمره، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك؛ فهذا يُعد من أهل السنة)[(٢)].

ومعظم الأشاعرة المتأخرين يخالفون أبا الحسن الأشعري فيما أثبته من الصفات الإلهية في كتاب (الإبانة)، وهو كتاب ثابت عنه بلا شك عند أهل العلم المنصفين[(٣)]، وإن حاول بعض الأشاعرة المتأخرين التشكيك في ثبوته أو ادعاء دخول الزيادة فيه بلا برهان[(١)].

= وابن القيم) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (١/ ٣٧٧ - ٤٠٩)، المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص٩٩ - ١٠٣، ١٣١- ١٣٦).
والناظر في كتب الأشاعرة المعتمدة عندهم كالمواقف للإيجي يجد مواضع كثيرة يذكرون فيها موافقة أبي الحسن الأشعري للمعتزلة، يُنظر مثلا: شرح المواقف للجرجاني مع حاشيتي السيالكوتي والفناري (١/ ٢٧٦)، (٢/ ١٢٧)، (٦/ ١٧، ٩٣، ١٧٦)، (٨/ ١٠٦)، (٨/ ١٤٧). وقد تعقب الحافظ ابن حجر قول الأشاعرة: إن أول واجب على العبد المعرفة أو النظر فقال: (نقل القدوة أبو محمد بن أبي جمرة عن أبي الوليد الباجي عن أبي جعفر السمناني وهو من كبار الأشاعرة أنه سمعه يقول: إن هذه المسألة من مسائل المعتزلة بقيت في المذهب، والله المستعان) فتح الباري (١/ ٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٩) بتصرف.

(٣) أثبته ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ١٥٢ – ١٦٣)، ونقل من أوله أكثر من عشر صفحات، وقال ابن عساكر: (من وقف على كتابه المسمى بالإبانة عرف موضعه =

ولأبي الحسن الأشعري أيضا كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)[٢] و(رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب)[٣]، فيهما ما يوافق كتاب (الإبانة) من إثبات الصفات على منهج السلف[١].

= من العلم والديانة) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢٨)، وقال ابن عساكر: (ولم يزل كتاب الإبانة مستصوبا عند أهل الديانة، وسمعت الشيخ أبا بكر البوشنجي الفقيه الزاهد يحكي عن بعض شيوخه أن الإمام أبا عثمان الصابوني النيسابوري ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا وبيده كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري، ويظهر الإعجاب به، ويقول: ماذا يُنكَر على مَن هذا الكتاب شَرْحُ مذهبه؟! فهذا قول الإمام أبي عثمان وهو من أعيان أهل الأثر بخراسان) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٣٨٩)، ويُنظر أيضا: الاعتقاد للبيهقي (ص: ١٠٩)، فقد نقل فيه البيهقي من كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري، وقارن ذلك بما في كتاب (الإبانة عن أصول الديانة) للأشعري (ص: ١٠٠) تجد النص في كتاب الإبانة كما نقله البيهقي، والبيهقي معدود من متقدمي الأشاعرة، وبهذا يتبين بطلان ما ذكره الصفدي من أن كتاب الإبانة موضوع على لسان أبي الحسن الأشعري كما في تاريخه (الوافي بالوفيات) (١٩/ ١١٧). ويُنظر: رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري وكتابه الإبانة عن أصول الديانة لإبراهيم بن درباس المصري الشافعي المتوفى سنة (٦٥٩هـ).

(١) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (١/ ٣٤٨ - ٣٥٥)، الأشاعرة في ميزان أهل السنة لفيصل الجاسم (ص: ٦٨٧ - ٦٩٩)، وهو نقدٌ لكتاب (أهل السنة الأشاعرة شهادة علماء الأمة وأدلتهم) لحمد السنان وفوزي العنجري، وقد حاول مؤلفاه التشكيك في ثبوت كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري، وادَّعيا دخول التحريف فيه، وهي دعوى لا تثبت أمام التحقيق العلمي المنصف.

(٢) ممن أثبته ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ١٣٠، ١٣١).

(٣) ممن أثبته ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ١٣٦).

وقد ادَّعى بعض الأشاعرة المتأخرين أن ما في كتب أبي الحسن الأشعري من إثبات الصفات هو من باب التفويض لمعانيها، وزعموا أن تفويض معاني الصفات هو مذهب السلف الصالح، وأن أبا الحسن موافق للسلف في تفويض معاني الصفات، وهذه دعوى لا تصح، فلا يوجد نص صريح لأبي الحسن الأشعري بذلك، وظاهر كلامه في كتابه الإبانة إثبات الصفات على منهج السلف من غير تفويض للمعاني، وعلى التسليم للأشاعرة بذلك فإن أبا الحسن في كتابه الإبانة ترك تأويل صفات الله سبحانه، فليت أتباعه المنتسبين إليه يقتدون به في ترك تأويل الصفات، قال الذهبي: (رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات، وقال فيها: تمر كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تؤول)(٢).

وسيأتي في المبحث الثالث بيان تطور المذهب الأشعري بعد أبي الحسن بواسطة كثير من أئمة المذهب الأشعري، حتى صار المذهب الأشعري فرقة كلامية، فلسفية، مرجئة، جبرية، صوفية، وصار مذهب الأشاعرة من أشهر المذاهب العقدية في العالم الإسلامي، وصار ينتسب إليه كثير من المسلمين؛

= (١) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٧٧ – ٣٠٦، ٣٨٧ – ٣٨٩)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (١/ ١٣٦ – ١٤٩)، تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٣٣٩)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/ ٣٤٧ – ٣٥١)، طبقات الشافعيين لابن كثير (ص: ٢٠٨ – ٢١٢)، الأشاعرة في ميزان أهل السنة لفيصل الجاسم (ص: ٦٨٩ – ٦٩٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٦).

لظنهم أنه مذهب أهل السنة والجماعة، وأنه المذهب الحق الواجب الاتباع في العقائد دون ما سواه من المذاهب، مع أن هذا المذهب لم يكن معروفا عند الصحابة والتابعين وأتباعهم، وإنما حدث بعد القرن الثالث الهجري[١].

(١) يُنظر: منهج الأشاعرة في العقيدة لسفر الحوالي (ص: ٢١ - ٢١٢)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود (١/ ٤٣٧) إلى (٢/ ٦٩٦).

المبحث الثاني:

نشأة المذهب الأشعري وأسباب انتشاره

ظهر في أول القرن الثالث الهجري عبد الله بن سعيد ابن كُلَّاب القطَّان البصري (ت ٢٤٣هـ)، وكان ﵀ له فضل وعلم ودين، وصنف مصنفات كثيرة في الرد على الجهمية والمعتزلة، وربما وافق المعتزلة، وكان يميل إلى مذهب أهل السنة، لكن فيه نوع من البدعة، ويقال لأصحابه: الكُلَّابية، ويُقال: إنه سُمِّي ابن كُلَّاب لأنه كان يجر الخصوم إلى نفسه بفضل بيانه كأنه كُلَّاب، وهو الذي ابتدع القول بأن كلام الله قائم بذات الله بلا مشيئة، وكان ممن أخذ عنه الحارث بن أسد المحاسبي ﵀ (ت ٢٤٣هـ) وداود بن علي الأصبهاني الظاهري ﵀ (ت ٢٧٠هـ)، ثم جاء بعدهم أبو الحسن الأشعري ﵀ (ت ٣٢٤هـ)[(١)].

وقد شرح أبو الحسن الأشعري ﵀ في كتبه قول عبد الله بن كُلَّاب في باب الأسماء والصفات، وذكر اختلاف أصحاب عبد الله بن كلاب في بعض مسائل

---

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٢/ ٣٦٦، ٣٦٧)، تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٩٨١)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ٢٩٩، ٣٠٠).

الكلام، ولم يكن أبو الحسن الأشعري موافقا لابن كُلَّاب في جميع أقواله، لكنه تأثر كثيرا بابن كلاب، فأصل مذهب الأشاعرة هو مذهب ابن كلاب(١).

وقد كتب أبو الحسن الأشعري أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة في العقائد وفي الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل البدع، حتى صار أبو الحسن في زمنه أشهر من ابن كُلَّاب، فكانت الأسئلة تأتي أبا الحسن الأشعري من الآفاق، كرسالته المشهورة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، وكثر طلابه وأتباعه لا سيما في العراق وخراسان، وأثنى عليه غير واحد من أهل العلم المشهورين، وصاروا بحججه يحتجون، وعلى منهاجه يذهبون، ثم صار ينتسب إليه كثير من أهل المشرق والمغرب من الفقهاء والمحدثين والأصوليين والصوفية(٢).

وكان المنتسبون الأوائل إلى المذهب الأشعري من أهل العلم والفضل والدين، ولم يتم في عهدهم امتزاج المذهب الأشعري بعلم الكلام والفلسفة والتصوف، فكان العلماء يرون الانتساب إلى أبي الحسن الأشعري انتساب إلى السنة؛ لما رأوا في كتب أبي الحسن وكتب تلاميذه وتلاميذ تلاميذه تعظيم

---

(١) يُنظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (١/ ١٣٨، ١٣٩، ١٤١) و(٢/ ٣٩٨، ٣٩٩)، نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني (ص: ١٧٢)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (١/ ٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٥)، الاستقامة لابن تيمية (١/ ١٠٥)، لسان الميزان لابن حجر (٤/ ٤٨٦)، المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ٣٩ - ٤١).

(٢) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٠٢، ١١٧، ٤١٠)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٤٩٣ - ٤٩٧).

السلف الصالح، والقدرة على إفحام المعتزلة، والدفاع عن عقائد أهل السنة، فرأوا أن المذهب الأشعري متوسط بين المعتزلة والجهمية الذين عطلوا الصفات، وبين المشبِّهة الذين غلوا في إثبات الصفات كالكرّامية، وبعض فضلاء الحنابلة الذين غلوا في إثبات بعض الصفات كعثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٠هـ) وأبي يعلى الفراء (ت ٤٥٨هـ)[(١)].

---

(١) قال الذهبي مخبرا عن كتاب الدارمي في النقض على بشر المريسي: (في كتابه بحوث عجيبة مع المريسي، يبالغ فيها في الإثبات، والسكوت عنها أشبه بمنهج السلف في القديم والحديث) العلو للعلي الغفار (ص: ١٩٥). وقال الألباني: (لا شك في حفظ الدارمي وإمامته في السنة، ولكن يبدو من كتابه (الرد على المريسي) أنه مغال في الإثبات، فقد ذكر فيه القعود والحركة والثقل ونحوه، وذلك مما لم يرد به حديث صحيح، وصفاته تعالى توقيفية) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل للمعلمي بتحقيق الألباني (٢/ ٥٧٢). ولا يعني هذا التهوين من شأن كتاب الدارمي رحمه الله، فكتابه النقض على المريسي من أحسن الكتب في الرد على شبه الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وكلٌّ يُؤخذ من قوله ويُرد إلا النبي صلى الله عليه وسلم. وممن وقع له غلو في إثبات بعض الصفات مع القول بالتفويض: القاضي أبو يعلى ابن الفراء رحمه الله في كتابه إبطال التأويلات، وله مع سعة علمه وفضله بعض العجائب والزلات الشنيعة غفر الله لنا وله، وقد وقعت له تلك الأخطاء بسبب أخذه بظاهر بعض النصوص التي لا تصح أو لا يصح الاستدلال بها على الصفات لعدم صحة دلالتها، ومن ذلك: أنه أثبت لله سبحانه: الأضراس، واللهاة، والذراعين، والصدر، والساعد، والفخذ، كما ترى ذلك في كتابه إبطال التأويلات (ص: ٢٠٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٣٤٥)، وأشنع من ذلك قوله في كتابه إبطال التأويلات (ص: ١٩٠) بعد أن ذكر حديثا موضوعا لا يصح: (هذا الخبر يفيد أشياء منها: جواز إطلاق الاستلقاء عليه، لا على وجه الاستراحة، بل على صفة لا تُعقل معناها، وأن له رجلين يضع إحداهما على الأخرى على صفة لا نعقلها، إذ ليس في حمله على ظاهره ما يحيل صفاته)، ولا شك =

قال ابن عساكر: (ولسنا نُسلِّم أن أبا الحسن اخترع مذهبا خامسا، وإنما أقام من مذاهب أهل السنة ما صار عند المبتدعة دارسا، وأوضح من أقوال من تقدمه من الأربعة وغيرهم ما غدا ملتبسا، وجدد من معالم الشريعة ما أصبح بتكذيب من اعتدى منطمسا، ولسنا ننتسب بمذهبنا في التوحيد إليه على معنى أنا نقلده فيه، ونعتمد عليه، ولكنا نوافقه على ما صار إليه من التوحيد؛ لقيام الأدلة على صحته، لا لمجرد التقليد، وإنما ينتسب منا من انتسب إلى مذهبه ليتميز عن المبتدعة الذين لا يقولون به من أصناف المعتزلة والجهمية المعطلة، والمجسمة والكرامية والمشبهة السالمية، وغيرهم من سائر طوائف المبتدعة، وأصحاب المقالات الفاسدة المخترعة؛ لأن الأشعري هو الذي انتدب للرد عليهم حتى قمعهم، وأظهر لمن لم يعرف البدع بدعهم، ولسنا نرى الأئمة الأربعة في أصول الدين مختلفين، بل نراهم في القول بتوحيد الله وتنزيهه في ذاته مؤتلفين، وعلى نفي التشبيه عن القديم ﷻ مجتمعين، والأشعري رحمه الله في الأصول على منهاجهم أجمعين، فما على من انتسب إليه على هذا الوجه جناح، ولا يرجى لمن تبرأ من عقيدته الصحيحة فلاح)(١).

= أن مثل هذه الأخطاء الشنيعة نفَّرت كثيرا من الناس عن اتباع الحق في باب الأسماء والصفات، وحسَّنت لهم المذهب الأشعري الذي كان في بداية نشأته متوسطا إلى حدٍّ ما بين المعتزلة والجهمية، وبين المشبِّهة وغلاة مثبتة الصفات.

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٣٦٠ - ٣٦٢).

ومما رغب المتأخرون من فقهاء المالكية والشافعية في الانتساب إلى المذهب الأشعري انتشار المذهب الماتريدي الذي يشابه كثيرا المذهب الأشعري في تأويل الصفات، وفي كثير من مسائل الاعتقاد، وصار ينتسب إلى المذهب الماتريدي فقهاء الحنفية، فانتسب كثير من فقهاء المالكية والشافعية إلى المذهب الأشعري، لا سيما وقد اشتهر عند كثير من الناس حتى عند بعض الحنابلة أن أهل السنة هم الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث[١].

وكان كثير من علماء أهل السنة يحذرون الناس من علم الكلام وأهل الأهواء، ويبينون بطلان تأويل الصفات، وألفوا مؤلفات كثيرة في بيان مذهب السلف[٢]، لكنها لم تشتهر في ذلك الزمان عند جمهور الأمة كما اشتهرت كتب

(١) يُنظر: لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية للسفاريني الحنبلي (١/ ١٤١، ١٤٢) و(٢/ ١٣٨، ١٣٩)، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزبيدي (٢/ ٦، ٧)، تبسيط العقائد الإسلامية لحسن أيوب (ص: ٢٩٩).

(٢) من ذلك: الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٠ هـ)، السنة لابن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ)، السنة للخلال (ت ٣١١ هـ)، التوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١ هـ)، الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ)، اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (ت ٣٧١ هـ)، الصفات للدارقطني (ت ٣٨٥ هـ)، التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته لابن منده (ت ٣٩٥ هـ)، أصول السنة لابن أبي زمنين (ت ٣٩٩ هـ)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (ت ٤١٨ هـ)، رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي (ت ٤٤٤ هـ)، الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات للداني =

الأشاعرة والماتريدية، وربما كان بعض أهل العلم إذا اطلعوا عليها ظنوا أنها تقرر مذهب السلف الذي هو التفويض في زعمهم، فقد أشهر الأشاعرة القول بأن هناك طريقتان في آيات وأحاديث الصفات، طريقة السلف وهي التفويض، وطريقة الخلف وهي التأويل[1]، وصار هذا القول مسلَّما به عند كثير من

= (ت ٤٤٤ هـ)، عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني (ت ٤٤٩ هـ)، ذم الكلام وأهله للهروي (ت ٤٨١ هـ)، الاعتقاد لابن أبي يعلى (ت ٥٢٦ هـ)، الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (ت ٥٣٥ هـ)، فتيا وجوابها في ذكر الاعتقاد وذم الاختلاف للحسن العطار الهمذاني (ت ٥٩٦ هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد لعبد الغني المقدسي (ت ٦٠٠ هـ)، ذم التأويل للموفق ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، وهذه الكتب كلها كان مؤلفوها قبل ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) اللَّذين أشهرا مذهب السلف في عصرهما، وصبرا على ما نالهما من أذى بسبب ذلك، ومن أحسن كتبهما في العقيدة: العقيدة الواسطية والعقيدة التدمرية والفتوى الحموية الكبرى كلها لابن تيمية، والصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة واجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية كلاهما لابن القيم.

(١) يُنظر: مجموعة رسائل الإمام الغزالي (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٩٢، ٩٣، ١٠٣، ١٠٤). ويحسن هنا ذكر رد ابن تيمية على الرازي حين قرر أن مذهب السلف هو التفويض، قال الرازي مبينا مذهب السلف كما يظن: (حاصل هذا المذهب أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى منها شيء غير ظاهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها، وقال المتكلمون: بل يجب الخوض في تأويل تلك المتشابهات)، ثم رد عليه ابن تيمية بقوله: (مذهب السلف يُعرَف بنقل أقوالهم أو نقل من هو خبير بأقوالهم، وما ذكره من العبارة لم يُنقل عن أحد من السلف، ولا نقله من يحكي إجماع السلف، ونحن ذكرنا قطعة من أقوال السلف في هذا الباب، وأقوال من يحكي مذاهبهم من جميع الطوائف في جواب الفتيا الحموية في الرد على الجهمية، =

العلماء، مع أنه في الحقيقة يخالف ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بمعاني الصفات كما يليق بعظمة الله سبحانه، وإنما هم يفوضون كيفيات الصفات لا معانيها.

قال النووي رحمه الله: (اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين: أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها، بل يقولون: يجب علينا أن نؤمن بها، ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، واختاره جماعة من محققيهم، وهو أسلم، والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين، أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله، بأن يكون عارفا بلسان العرب، وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم)[1].

= وغير ذلك، ولكن ما ذكره هذا من مذهب السلف والتفويض إنما يعرض في كلام أبي حامد ونحوه ممن ليس لهم خبرة بكلام السلف رحمهم الله، بل ولا بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يميزون بين صحيح هذا وبين ضعيفه، ولكن ينقلون مذهب السلف بحسب اعتقادهم، لا بأقوال السلف وما بينوه وقالوه في هذا الباب، وأقوال السلف كثيرة مشهورة في كتب أهل الحديث والآثار الذين يروونها عنهم بالأسانيد المعروفة) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٥٣٦ - ٥٣٨) باختصار.

(١) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٩).

والقول بأن مذهب السلف هو عدم التكلم عن معاني الصفات، وتفويض معاني الصفات للجهل بها قول خاطئ، بل السلف كانوا يتكلمون عن معاني الصفات، ويفوضون كيفية الصفات لا معانيها، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا(١)، فمثلا صفة الاستواء تكلم السلف عن معناها، قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: (قال أبو العالية: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]: (ارتفع)، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة:٢٩]: (خلقهن)، وقال مجاهد: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: (علا على العرش)(٢).

وقال الإمام أبو عبد الله البخاري أيضا: (حذَّر يزيد بن هارون عن الجهمية وقال: من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي، وقال سليمان التيمي: لو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان

(١) يُنظر: تفسير ابن جرير (١/ ١٩٠، ٤٥٤)، و(١٣/ ٤١١)، الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (١/ ٣١٣) و(٢/ ١١٦، ١١٧)، الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية (ص: ٣٠٧، ٣٦١ - ٣٦٨)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠١ - ٢٠٥)، العلو للعلي الغفار للذهبي (ص: ١٣٩)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين (ص: ٣٤ - ٤٨)، تبرئة السلف من تفويض الخلف للحيدان (ص: ١٤ - ٥١).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤).

عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم، قال أبو عبد الله: وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] يعني إلا بما بيَّن)[(١)].

ومشهورٌ قول الإمام مالك رحمه الله حين سئل عن الاستواء: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)[(٢)].

قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله: (هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة، وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز؛ إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه، قال أبو عبيدة في قوله تعالى: استوى قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٣٦، ٣٧).

(٢) يُنظر: الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء لعبد الرزاق البدر (ص: ٣٨ – ٩٣).

الدابة، واستويت فوق البيت،... قال أبو عمر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله ﷻ)[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: (حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها، وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أذهان عامة الأمة، كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف عام في جميع مسائل الصفات، فمن سأل عن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] كيف يسمع ويرى؟ أجيب بهذا الجواب بعينه، فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول. وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟ والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل تثبت له الأسماء والصفات، وتنفى عنه مشابهة المخلوقات،

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٣١).

فيكون إثباتك منزها عن التشبيه، ونفيك منزها عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل، ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل، ومن قال: استواء ليس كمثله شيء، فهو الموحد المنزِّه، وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه)[(١)].

ومما يبين أن السلف ﵏ يؤمنون بمعاني الصفات ويعرفون معانيها أنهم فسروا معاني أسماء الله الحسنى، وهي تتضمن صفات لله سبحانه[(٢)].

قال الزجاجي ﵀: (صفات الله ﷿ كلها ثناء عليه، ومدح له مدح بها نفسه، ونبه العباد عليها، وتعبدهم بوصفه بها؛ لأنه ﷿ ليس كمثله شيء، ولا يحتاج إلى الصفات إيضاحا كما يحتاج غيره، وبيانا له من غيره؛ لأنه ليس كمثله شيء، وإنما يمدح بصفاته ويثنى بها عليه، ولذلك قد بان بما وصفنا من شرح أسمائه أنها كلها صفات له، وثناء عليه)[(٣)].

فمثلا الرحمن الرحيم يتضمنان صفة الرحمة، والعزيز يتضمن صفة العزة، والحكيم يتضمن صفة الحكمة، والسميع يتضمن صفة السمع، والبصير

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: تفسير ابن جرير (١/ ١٢٧)، تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: ٣٣، ٣٧)، اشتقاق أسماء الله للزجاجي (ص: ١٠٨، ١٥٢)، شأن الدعاء للخطابي (١/ ٤٧ - ٤٩، ٥٧ - ٦٦، ٨٨، ١١١، ١١٢).

(٣) اشتقاق أسماء الله (ص: ٢٧٥).

يتضمن صفة البصر، فكيف يُقال: إن هذه الصفات الرحمة والعزة والحكمة والسمع والبصر لا يُعلم معناها؟! وكيف يخاطبنا الله ﷻ في كتابه بأعظم شيء وهو أسماؤه وصفاته بما لا نعلم معناه؟! وكل مسلم لو قيل له: إن الله يحب المحسنين، ويرضى عن المؤمنين، ويغضب على الكافرين، لفهم المعنى بلا إشكال، وكل عربي يعرف الفرق بين المحبة والرضا والغضب، فكيف يُقال: إن ما وصف الله به نفسه من المحبة والرضا والغضب لا نعرف معانيها، وأنه يجب تفويض معانيها؟! نعم يجب تفويض كيفيتها، أما معانيها فهي معلومة، ويجب الإيمان بأنها صفات لله على ظاهرها الذي يليق بجلال الله وعظمته.

فعجبا للمعطلة أهل التحريف الذين يؤول صفات الله التي تضمنتها أسماؤه الحسنى! وعجبا للمفوضة أهل التجهيل الذين يزعمون أنهم لا يعرفون معانيها!

قال أبو منصور الأزهري الهروي رحمه الله: (السميع من صفات الله وأسمائه، وهو الذي وسع سمعه كل شيء،... والعجب من قوم فسَّروا السميع بمعنى المسمِع، فرارا من وصف الله بأن له سمعا! وقد ذكر الله الفعل في غير موضع من كتابه، فهو سميع ذو سمع بلا تكييف ولا تشبيه بالسميع من خلقه، ولا سمعه كسمع خلقه، ونحن نصفه بما وصف به نفسه، بلا تحديد ولا تكييف)[(١)].

ولو أن إنسانا أشكل عليه معنى بعض آيات وأحاديث الصفات ففوض معناها لجهله، من غير أن يلتزم تفويض معاني جميع نصوص الصفات الكثيرة؛

---

(١) تهذيب اللغة (٢/ ٧٤).

فلا حرج عليه، من غير أن ينسب هذا التفويض للمعاني للسلف الصالح كذبا أو خطأ عليهم، وكيف يصح أن يُنسب هذا الجهل بمعاني نصوص الصفات للنبي ﷺ والله قد بين له كتابه؟!

قال ابن تيمية رحمه الله مبينا خطورة مذهب التفويض: (فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدي والبيان من جهة الأنبياء، وفتحا لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدي والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء؛ لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون: فضلا عن أن يبينوا مرادهم! فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[1].

وقال ابن تيمية أيضا: (أهل التجهيل يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك! وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله مع أن الرسول تكلم بها ابتداء! فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه!)[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: (أصحاب التجهيل قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرأها ألفاظا لا معاني

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٤) باختصار وتصرف يسير.

لها، ونعلم أن لها تأويلا لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى:١،٢] و﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف:١]،... وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات، ولا يفهمون معنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]، وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وأمثال ذلك من نصوص الصفات، وبنوا هذا المذهب على أصلين: أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه، والثاني: أن للمتشابه تأويلا لا يعلمه إلا الله، فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان،... ولازم قولهم إن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه! ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجري على ظواهرها، وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله! فكيف يثبتون لها تأويلا، ويقولون: تجر على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها؟! وهل في التناقض أقبح من هذا؟! وهؤلاء غلطوا في المتشابه، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطأوا في المقدمات الثلاث،... فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به، والتذكر والتعقل لمعاني النصوص الذي هو أساس الإيمان وعمود اليقين، وأعرضوا عنه بقلوبهم، وتعبدوا

بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها!)[1].

ومما يبين بطلان مذهب التفويض أننا نؤمن بالروح الذي أخبرنا الله أنه استأثر بعلمه، ونؤمن بما أعد الله لأهل الجنة من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر، ونؤمن بما أعد لأهل النار من العذاب الأليم الذي منه الزقوم والغسلين والسلاسل والأغلال التي لم نر مثلها، ونحن نعلم معنى الروح والنعيم والعذاب، ونفهم ما أخبرنا الله به من تفاصيل النعيم والعذاب، لكن لا نعلم كيفيتها مع كونها مخلوقة، ولله الأمثل الأعلى، فنحن نعلم معاني ما أخبرنا الله به عن نفسه من صفاته العظيمة، ولا نعلم كيفيتها، فالتفويض يكون للكيفية لا للمعنى حتى للمخلوقات التي لا ندركها بحواسنا، ومن باب أولى أننا نفوض كيفية صفات الخالق مع علمنا بمعاني ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، وهذا هو مذهب السلف، وهو الحق الذي يجب على كل مسلم اعتقاده في آيات وأحاديث الصفات.

فالواجب في النصوص التي فيها ذكر الروح والنعيم في الجنة والبرزخ والعذاب في جهنم والبرزخ نمرها كما جاءت بلا تأويل، ويجب أن نؤمن بمعانيها، ولا يجوز أن نفوض معانيها، بل نفوض كيفياتها، وهكذا نصوص الصفات نمرها كما جاءت بلا تأويل لها.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٢٢ - ٤٢٤) باختصار.

وتأمل كلام القاضي عياض ﷺ في إمرار نصوص الآخرة كما جاءت بلا تأويل، قال عياض: (ذكر مسلمٌ فى هذا الموضع أحاديث كثيرة فى عذاب القبر، وإسماع صوت من يُعذَّب فيها، وسمع الموتى قرع نعال دافنيهم، وكلامه لأهل القليب، وقوله: «**ما أنتم بأسمع منهم**»، وسؤال الملكين للميت وإقعادهما إياه، وجوابه لهما، والفسح له فى قبره، وعرض مقعده عليه بالغداة والعشي، ومذهب أهل السنة تصحيح هذه الأحاديث، وإمرارها على وجهها؛ لصحة طرقها، وقبول السلف لها)[(١)].

وهذا نقل نفيس يبين معنى قول السلف في آيات وأحاديث الصفات: أمروها كما جاءت، وأن مرادهم الإيمان بمعانيها اللائقة بالله سبحانه من غير تأويل، وليس مرادهم تفويض معانيها كما يقوله أهل التجهيل.

ويوجد نقل آخر نفيس للقاضي عياض أيضا يفرق فيه بين مذهب السلف، ومذهب أهل التفويض، ومذهب المتأولين، وإن كان في نسبته أبا الحسن إلى التفويض نظر، لكنه يبين بطلان القول بأن مذهب السلف هو التفويض، قال عياض: (اختلف أئمتنا فيما ورد من ذكر اليد وشبه ذلك مما لا يليق ظاهره بالله تعالى، فكثير من السلف يرى إمرارها بتنزيه الله تعالى عن ظاهرها، وترك تأويلها، وذهب أبو الحسن الأشعري في طائفة من أصحابه إلى أنها صفات سمعية لم نعلمها إلا من جهة الشرع، نثبتها صفاتا، ولا نعلم حقيقتها وشرحها،

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٤٠١).

وذهب غير واحد إلى تأويلها على مقتضى اللغة، فيحمل اليد بمعنى القدرة أو النعمة)[(١)].

والمقصود هنا بيان خطأ نسبة مذهب التفويض إلى السلف الصالح، وأن القول بأن مذهب السلف هو التفويض كان سببا في تفضيل بعض العلماء لمذهب الأشاعرة أو على الأقل رضاهم عنهم في خوضهم في صفات الله بالتأويل؛ لأن في التأويل لنصوص الصفات زيادة علم وفضل على المفوضة الساكتين عنها، المعترفين بجهلهم بمعانيها، الذين حالهم كحال الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ومعاذ الله أن يكون هذا حال السلف، وبهذا يتبين بطلان قول من قال: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم وأعلم[(٢)]! بل مذهب السلف أحكم وأعلم وأسلم.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ١٣٨).

(٢) قال ابن تيمية: (قد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة، وأقوال المتكلمين تارة، كما يفعله غير واحد مثل أبي المعالي الجويني وأبي حامد الغزالي والرازي وغيرهم، ... وتارة يجعلون إخوانهم المتأخرين أحذق وأعلم من السلف ويقولون: طريقة السلف أسلم، وطريقة هؤلاء أعلم وأحكم، فيصفون إخوانهم بالفضيلة في العلم والبيان والتحقيق والعرفان، والسلف بالنقص في ذلك والتقصير فيه أو الخطأ والجهل! وغايتهم عندهم: أن يقيموا أعذارهم في التقصير والتفريط! ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض؛ فإنه وإن لم يكن تكفيرا للسلف ولا تفسيقا لهم كان تجهيلا لهم وتخطئة وتضليلا) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧) باختصار.

قال ابن تيمية: (الأشاعرة أشد اتباعا للأثارة النبوية وأقرب إلى مذهب أهل السنة من المعتزلة ونحوهم من وجوه كثيرة؛ ولهذا وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف لوجوه: أحدها: كثرة الحق الذي يقولونه، وظهور الأثارة النبوية عندهم. الثاني: لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع في الإسلام، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم، وظنهم أنه لم يمكن التمسك بالأثارة النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه. الثالث: ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات والموضحة لسبيل الهدى عندهم. الرابع: العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث: تارة يروون ما لا يعلمون صحته، وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور)[١].

ويمكن تلخيص أهم أسباب انتشار المذهب الأشعري في العالم الإسلامي فيما يلي:

١) انحسار مذهب المعتزلة، وظهور المذهب الأشعري الذي تصدى للمعتزلة، وبين بطلان كثير من بدعهم.

٢) نشأة المذهب الأشعري في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وفيها الفقهاء، والمحدثون، والمقرئون، ويرحل إليها طلاب العلم، فكثر الناقلون لهذا

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣) بتصرف يسير في أوله.

المذهب إلى جهات كثيرة من بلاد الإسلام شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا.

٣) توسط المذهب الأشعري في بداية نشأته إلى حدٍّ ما بين المعتزلة والجهمية، وبين المشبِّهة وغلاة مثبتة الصفات من الحنابلة.

٤) الجهل بحقيقة مذهب السلف، واشتهار القول بأن هناك طريقتان في آيات وأحاديث الصفات، طريقة السلف وهي التفويض، وطريقة الخلف وهي التأويل.

٥) ظهور المذهب الماتريدي الذي يشابه كثيرا المذهب الأشعري في تأويل الصفات، وفي كثير من مسائل الاعتقاد.

٦) انتساب كثير من فقهاء الحنفية إلى المذهب الماتريدي، فانتسب كثير من فقهاء المالكية والشافعية إلى المذهب الأشعري.

٧) اشتهار القول بأن أهل السنة هم الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث.

٨) انتشار التصوف الذي امتزج بالعقيدة الأشعرية أو الماتريدية.

٩) مراسلة علماء الأشاعرة للسلاطين في الدفاع عن الأشاعرة وبيان صحة معتقدهم، ونصيحتهم السلاطين باتباع هذه العقيدة، وتبني بعض الملوك والوزراء والأمراء لمذهب الأشاعرة، وتشجيعهم لأعلامه، ومساهمتهم في نشره، ومن أولئك:

أ- الوزير السلجوقي نظام الملك، (ت ٤٨٥هـ)، الذي بنى المدارس النظامية في بغداد ونيسابور والبصرة وأصفهان وبلخ وهراة ومرو

والموصل، وكان يُدرَّس في هذه المدارس النظامية المذهب الأشعري، ومن أشهر المدرِّسين في بعض هذه المدارس: أبو المعالي الجويني وأبو حامد الغزالي، وهما من كبار الأشاعرة الفقهاء الأصوليين.

ب- ابن تومرت، أمير الموحدين، (ت ٥٢٤هـ)، وهو من تلاميذ أبي حامد الغزالي، وقد أسس دولة الموحدين في بلاد المغرب، وتبنى هو ومن جاء بعده من ملوك دولة الموحدين المذهب الأشعري، وكان لهم دور عظيم في نشره في بلاد المغرب والأندلس.

ج- السلطان نور الدين محمود بن زنكي، (ت ٥٦٩هـ)، وقد أنشأ رحمه الله أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل مشيختها إلى الحافظ ابن عساكر صاحب كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري)، وأنشأ في حلب المدرسة النفرية النورية للشافعية، وتولى التدريس فيها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت ٥٧٨هـ) أحد أعلام المذهب الأشعري، وتوثقت علاقة صلاح الدين الأيوبي بالشيخ الأشعري قطب الدين مسعود.

د- السلطان صلاح الدين الأيوبي، القائد المشهور، فاتح القدس، (ت ٥٨٩هـ)، حفظ صلاح الدين الأيوبي عقيدة ألفها له الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري، وصار يُحفِّظها صغار أولاده، وحمل صلاح الدين الناس على عقيدة الأشعري، وشرط ذلك في أوقافه ومدارسه التي كانت في مصر، وبعد موت صلاح الدين رحمه الله استمر غالب ملوك الأيوبيين على

تشجيع المذهب الأشعري، وأدخل الأيوبيون المذهب الأشعري إلى اليمن، ولم يكن أهل اليمن يعرفون المذهب الأشعري قبل دولة الأيوبيين، ولما زالت الدولة الأيوبية، وجاء بعدها دولة المماليك، وهم موالي الأيوبيين، ساروا أيضا على المذهب الأشعري، ثم جاءت الدولة العثمانية بعد المماليك، فشجع السلاطين العثمانيون التصوف الذي امتزج بالمذهب الأشعري والماتريدي، وكان هذا من أسباب انتشار المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي في العصور المتأخرة.

١٠) أن العلماء الأعلام الذين تبنوا المذهب الأشعري أو تأثروا به كالباقلاني، وابن فورك، وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي، وأبي القاسم القشيري، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، والمازري، وابن عطية الأندلسي، والقاضي ابن العربي، والقاضي عياض، والفخر الرازي، وأبي الحسن الآمدي، والعز ابن عبد السلام، وأبي عبد الله القرطبي، والنووي، والسبكي، وابن حجر العسقلاني، والسيوطي، وابن حجر الهيتمي، وغيرهم، كان لهم تآليف كثيرة نافعة جدا في فنون شتى، وكانوا إما دعاة إلى المذهب الأشعري صراحة، وإما مصوبين لما ينقلونه عن الأشاعرة من تأويل الصفات أو ساكتين عن بيان بطلانه غالبا؛ لما تقرر عند أكثرهم أن مذهب السلف هو التفويض، وأن الأشاعرة يجوزون التفويض أو التأويل، وأنه لا حرج على من أخذ بأحد المذهبين، وأخذ عنهم ذلك طلابهم وطلاب طلابهم، وهلم جرا، وتأثر بهم من قرأ كتبهم

المتنوعة في العقائد والتفسير وعلوم القرآن والفقه وأصول الفقه والحديث والنحو والتراجم والتزكية(١)، حتى اعتمد المذهب الأشعري غالب فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين، بل وتأثر بالمذهب الأشعري بعض فقهاء الحنابلة الفضلاء، فألَّف ابن الجوزي الحنبلي كتاب (دفع شبهة التشبيه)، الذي رد فيه على بعض من غلا في إثبات الصفات من الحنابلة، وقابل ذلك بالتأويل أو التفويض، وألَّف مرعي الحنبلي (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات)، الذي قرر فيه مذهب التفويض لمعاني الصفات، وادَّعى فيه أنه مذهب السلف الصالح.

١١) غربة الدين، وقلة العلم بحقيقة ما كان عليه السلف الصالح من إمرارهم نصوص الصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وتفويضهم كيفية الصفات مع العلم بمعانيها كما يليق

---

(١) تنبيه مهم: بعض العلماء الأجلاء المنسوبين إلى المذهب الأشعري هم عند التحقيق ليسوا أشاعرة، ففي تصانيفهم ما يدل دلالة قاطعة على أنهم ليسوا على المذهب الأشعري، ويُنظر تفصيل ذلك في كتاب: الأشاعرة في ميزان أهل السنة للجاسم (ص: ٥٩٧ - ٦٤٠)، وبعضهم وإن كانوا متأثرين بالمذهب الأشعري في بعض المسائل لكنهم لا يوافقون المذهب الأشعري في جميع أصوله ومسائله، بل يخالفون الأشاعرة لا سيما المتأخرون منهم في كثير من المسائل. ويُنظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١/ ١٢٠، ١٢١)، تعقيب على مقالات الصابوني لسفر الحوالي (ص: ٢٥)، البدور السافرة في نفي انتساب ابن حجر إلى الأشاعرة لأبي أسامة الأثري (ص: ٥٧ - ١٤٨)، الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات، لمشهور حسن (ص: ١٨ - ٢٩).

بجلال الله سبحانه وعظمته، وتقصير كثير من علماء أهل السنة في توضيح الحق بأدلته، والرد على الباطل وأهله، ومن قام منهم بنصرة الحق والرد على أهل الباطل أوذي إما بالسجن أو الطرد والنفي، وربما أفتى بعض المتعصبين الغلاة بسفك دمه أو سجنه وعقوبته، فاكتفى كثير من علماء أهل السنة بالصمت طلبا للسلامة، والله المستعان.

١٢) تبني كثير من دور العلم في العالم الإسلامي عقيدة الأشعرية كالجامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس وكثير من المدارس التي اعتمدت المذهب الأشعري في مكة المكرمة والمدينة النبوية ودمشق وحضرموت وزبيد وإندونيسيا وغيرها من بلاد المسلمين(١).

(١) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٠٠ - ١٠٨)، شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحن لأبي القاسم القشيري، التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي (ص: ٩، ١١)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢/ ١٠١ - ١٠٤) و(٧/ ٣٢ - ٣٧)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (٤/ ١٩٢)، أنباء الزمن في تاريخ اليمن لابن القاسم (٢/ ٨٢)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/٤٩٧ - ٥٠٤)، الأشاعرة في ميزان أهل السنة لفيصل الجاسم (ص: ٧٤٩ - ٧٥٦)، موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية للمغراوي (٧/ ٢٦٩، ٢٧٠)، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط للصلابي (ص: ٥١٣ - ٥١٨)، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين للزهراني (ص: ٦٤ - ٧٤، ٢٥٧ - ٢٦٧، ٤٣٥ - ٥٦٢)، وانظر ما سيأتي في المبحث السابع: واقع الأشاعرة في العصر الحاضر.

المبحث الثالث:

تطور مذهب الأشاعرة

يتفق الباحثون من الأشاعرة وغيرهم على أن المذهب الأشعري تطور بعد أبي الحسن الأشعري بواسطة كثير من أئمة المذهب الأشعري كأبي الحسن الباهلي ومحمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي والقاضي أبي بكر بن الباقلاني والأستاذ ابن فورك والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وعبد القاهر البغدادي وأبي القاسم القشيري وأبي المعالي الجويني وأبي حامد الغزالي والفخر الرازي وأبي الحسن الآمدي والإيجي، وهذا التطور كان في كثير من الأصول والمسائل من حسن إلى سيء ثم إلى أسوأ، والناظر في كتب الأشاعرة يجد تعدد الأقوال في المذهب الأشعري، واختلاف الأشاعرة في مسائل عديدة، ويعتبر الأشاعرة تعدد أقوال أئمتهم واختلافهم اجتهادًا داخل المذهب.

وهذه بعض الأمثلة على تعدد أقوال أئمة الأشاعرة، واختلافهم في بعض المسائل، منقولة من أشهر الكتب الأشعرية:

١٣) قال الفخر الرازي: (مذهب شيخنا أبي الحسن رحمه الله تعالى والأكثرين من أصحابه أن البقاء صفة زائدة على الذات، شاهدا كان أو غائبا، ومذهب

القاضي وإمام الحرمين والأكثرين من المعتزلة: أن الباقي باق لنفسه شاهدا كان أو غائبا، ومذهب الكعبي ومتبعيه إثباته شاهدا ونفيه غائبا، وهو اختيار الإمام والدي رحمه الله تعالى)[١].

١٤) قال الآمدي: (مما اختلف فيه قال بعضهم: لا يجوز أن يكون لله صفة زائدة على ما أثبتناه،... ومن الأصحاب من زاد على هذا، وأثبت العلم بوجود

(١) الإشارة في علم الكلام (ص: ٢٤٥). وفي هامش الكتاب قال محققه هاني محمد حامز: (اختلف الأشاعرة في صفة البقاء هل هي صفة زائدة على الذات أو نفسية أو سلبية؟ فالشيخ الأشعري رحمه الله تعالى يرى أن البقاء صفة زائدة على الذات، وهو ما أجمعت عليه كتب علم الكلام خاصة لدى المتأخرين، ولكن الشهرستاني يقول: (إن للأشعري في البقاء اختلاف رأي) بمعنى أنه تارة يرى أن البقاء صفة نفسية، وتارة يرى أنه صفة زائدة على الذات. وترتب على ذلك أن قال الأشعري بعدم بقاء العرض زمانين، وذلك لأن البقاء معنى وجودي، والعرض معنى قائم بالجوهر، فلو بقي العرض زمانين لكان باقيا ببقاء، وللزم قيام المعنى بالمعنى وهو محال، ومن ثم فقد ذهب الأشعري إلى أن العرض ينعدم في الزمان الثاني بذاته، وينعدم الجوهر بإمساك الأعراض عنه. وبعد الأشعري انقسم أتباعه إلى قسمين: قسم يقول برأي الأشعري من أن العرض لا يبقى زمانين، ولكنهم رفضوا قول شيخهم في كون البقاء صفة وجودية زائدة. وقسم يقول - وعلى رأسهم الرازي وسائر متأخري الأشاعرة - أن الأعراض باقية ما عدا الأصوات. وذهب جمهور الاشاعرة إلى أن البقاء صفة نفسية للباري تعالى وليست زائدة على ذاته تعالى، وبرز هذا بوضوح عند الباقلاني وإمام الحرمين والرازي والآمدي وغيرهم، بينما ذهب متأخرو الأشاعرة إلى اعتبار البقاء صفة سلبية بمعنى أنها تنفي عن الباري تعالى معنى لا يليق بذاته تعالى).

صفات زائدة على ما أثبتناه، وذلك مثل البقاء والوجه والعينين واليدين)[١].

١٥) قال الإيجي: (اختلف في أول واجب على المكلف أنه ماذا؟ فالأكثر ومنهم الشيخ أبو الحسن الأشعري على أنه معرفة الله تعالى؛ إذ هو أصل المعارف والعقائد الدينية، وعليه يتفرع وجوب كل واجب من الواجبات الشرعية، وقيل: هو النظر فيها أي: في معرفة الله سبحانه؛ لأنه واجب اتفاقا، وهو قبلها، وهذا مذهب جمهور المعتزلة والأستاذ أبي إسحاق الأسفرائيني، وقيل: هو أول جزء من النظر؛ لأن وجوب الكل يستلزم وجوب أجزائه، فأول جزء من النظر واجب، وهو متقدم على النظر المتقدم على المعرفة، وقال القاضي واختاره ابن فورك وإمام الحرمين: إنه القصد إلى النظر)[٢].

١٦) قال الإيجي: (لما وصف تعالى بالاستواء في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] اختلف الأصحاب فيه، فقال الأكثرون: هو الاستيلاء، ويعود إلى القدرة، وذهب الشيخ أبو الحسن في أحد قوليه إلى أنه صفة زائدة، ولم يُقِم دليلا عليه، ولا يجوز التعويل على الظواهر مع قيام الاحتمال)[٣].

١٧) قال الإيجي: (أثبت الشيخ أبو الحسن في أحد قوليه وأبو إسحاق الإسفرايني

(١) غاية المرام في علم الكلام (ص: ١٣٥) باختصار وتصرف يسير.

(٢) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (١/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٣/ ١٤٤) باختصار وتصرف يسير.

والسلف الوجه لله صفة ثبوتية زائدة، وقال في قول آخر ووافقه القاضي: إنه الوجود)[(١)].

١٨) قال الإيجي: (قال الله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح:١٠]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]، فأثبت الشيخ صفتين ثبوتيتين زائدتين على الذات وسائر الصفات، لكن لا بمعنى الجارحتين، وعليه السلف، وإليه ميل القاضي في بعض كتبه، وقال الأكثر: إنهما مجاز عن القدرة؛ فإنه شائع، وخلقته بيدي أي: بقدرة كاملة، ولم يرد بقدرتين، وتخصيص خلق آدم بذلك مع أن الكل مخلوق بقدرته تعالى تشريف وتكريم له)[(٢)].

١٩) قال الصاوي: (اعلم أن وجوب صفات المعاني ذاتي لها، مثل وجوب الذات، وليست ممكنة في نفسها واجبة بوجوب الذات، خلافا لسعد الدين، تبعا للفخر، وتبعه أيضا جماعة كالبيضاوي، وشنع عليه ابن التلمساني فقال: وصرح أي: الفخر - والعياذ بالله - بكلمة لم يُسبق إليها، فقال: هي ممكنة باعتبار ذاتها، واجبة بوجوب ذاته ﷻ، وضاهى قول الفلاسفة: العالم ممكن باعتبار ذاته، واجب بوجوب مقتضيه، ونعوذ بالله من زلة عالم! وبناها على اعتقاد صحة شبهة الفلاسفة: بأن الافتقار بمعنى مطلق التوقف يوجب

(١) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٣/ ١٥٢) بتصرف.
(٢) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٣/ ١٥٢).

الإمكان، وأن كل مركب مفتقر إلى جزئه، وجزؤه غيره، والمفتقر للغير لا يكون إلا ممكنا، وتوهم التركيب باعتبار الصفات، وادعوا بأن الإمكان لا ينافي القدم، وهي عقيدة باطلة تهدم كثيرا من مسائل أهل السنة)(١).

فما أكثر التكلف والتنطع في كلام المتكلمين! ودين الله لا يحتاج إلى الفلسفة وكثرة الآراء واختلاف الأهواء، ولا حاجة للمسلم بأن يُشغِل نفسه بمتاهات علماء الكلام المختلفين، ولو أنهم عفا الله عنا وعنهم اكتفوا بما في القرآن العظيم من الإيمان بأسماء الله الحسنى، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنه الحي الذي لا يموت، وأنه الحي القيوم، وأنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه أحكم الحاكمين، وأنه رب العالمين، وأن الناس لا يحيطون به علما؛ لسلموا من هذه التطويلات والاختلافات، ولكن هكذا علم الكلام الذي حذَّر منه علماء الإسلام، والله المستعان.

وقد ازداد تطور المذهب الأشعري مع مرور الزمن حتى صارت العقيدة الأشعرية عند المتأخرين عقيدة فلسفية صوفية قبورية، مخالفة للعقيدة الصحيحة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه كما سيأتي إثباته من كتب الأشاعرة أنفسهم مع مراعاة الأمانة العلمية في النقل عنهم بلا تقول عليهم.

(١) يُنظر: شرح العلامة الصاوي على جوهرة التوحيد (ص: ١٩٥، ١٩٦)، يُنظر: تفسير ابن عرفة (٤/ ١٢٧)، حواش على شرح الكبرى للسنوسي (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).

ومن أبرز مظاهر التطور في المذهب الأشعري ما يلي:

أ- القرب من الجهمية والمعتزلة.

لا يخفى على الناظر في الكتب المعتمدة عند الأشاعرة أنهم يتفقون مع الجهمية والمعتزلة في بعض المسائل والأصول[1]، ومن ذلك اتفاقهم على تقديم العقل على النقل، مع أنه لا تعارض أصلا بين العقل الصريح والنقل الصحيح.

وقد ذكر السنوسي الأشعري أن من أصول الكفر التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية، للجهل بأدلة العقول، وعدم الارتباط بأساليب العرب[2].

قال الدكتور أحمد قوشتي: (الاتجاه السائد عند المعتزلة، وجماهير الأشاعرة -لا سيما المتأخرين، خلافا لمتقدميهم- يميل إلى أن أخبار الآحاد لا تفيد إلا الظن، ويجب العمل بها في مجال التعبد؛ بينما لا يصح التعويل عليها في إثبات المسائل العقدية، وبناء على ذلك لم يقبلوا كثيرا من الأحاديث المنقولة آحادا، والواردة في أمور الاعتقاد، وحكموا بضعفها، أو شككوا في ثبوت

(١) يُنظر مثلا: الإشارة في علم الكلام للفخر الرازي (ص: ١٢٦، ٢٤٥)، شرح المواقف للجرجاني مع حاشيتي السيالكوتي والفناري (١/ ٢٧٦)، (٢/ ١٢٧)، (٦/ ١٧، ٩٣، ١٧٦)، (٨/ ١٠٦)، (٨/ ١٤٧)، شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني (٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٢١٧).

صحتها، وعندما تعذر ذلك لجئوا إلى تأويل معانيها وصرفها عن ظواهرها... لم يكن الدليل النقلي حجة على سبيل الاستقلال في إثبات سائر المسائل العقدية عند المعتزلة وجمهور الأشاعرة، ووجدت مجموعة من الأسس المنهجية التي شكلت طريقة التعامل معه... مما أدى إلى عزل الدليل النقلي عن مجال الاستشهاد في كل ما يتوقف ثبوته عليه؛ كمعرفة الله وصفاته، وإثبات صدق النبي وصحة رسالته، وصارت تلك المسائل موقوفة على العقل وحده، ولا يتعدى دور النقل فيها سوى التأكيد والتعضيد، أو إفحام الخصوم وبيان خروجهم عن مقتضى العقل والنقل معا... كذلك كان من الأسس المهمة التي أثرت في منهج المدرستين ومدى احتجاجهم بالدليل النقلي؛ فكرة القطعية والظنية، حيث اشترطوا في الدليل المستخدم في أمور الاعتقاد أن يكون قطعي الثبوت والدلالة، ومنعوا من الاحتجاج بالدليل الظني، وقد ظهر لدى بعضهم اتجاه خطير انتهى إلى الحكم على الدليل النقلي بالظنية مطلقا؛ لاستناده على عدة مقدمات ظنية مما يؤدي بالضرورة إلى تنحية نصوص السمع عن مجال الاستدلال في إثبات المسائل العقدية دون فرق بين نوع وآخر)[١].

وفي مسألة الإيمان وافق الأشاعرةُ الجهميةَ في جعل الإيمان مجرد التصديق بالقلب! وجعلوا الكفر مجرد التكذيب، فعندهم أن السجود للصنم وسب النبي

(١) حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص: ٤١٦ - ٤١٨).

ﷺ وإهانة المصحف ليس كفرا بذاته، وإنما هو دليل على الكفر الذي هو انتفاء التصديق من قلب فاعله[1].

قال الآمدي: (الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، وفي عرف استعمال أهل الحق من المتكلمين: عبارة عن التصديق بالله وصفاته وما جاءت به أنبياؤه ورسالاته... وليس الإيمان هو الإقرار باللسان فقط كما زعمت الكرامية، ولا إقامة العبادات والتمسك بالطاعات كما زعمت الخارجية، فإنا نعلم من حال النبى ﷺ عند إظهار الدعوة أنه لم يكتف من الناس بمجرد الإقرار باللسان ولا العمل بالأركان مع تكذيب الجنان بل كان يسمى من كانت حاله كذلك كاذبا ومنافقا... وبهذا يتبين أيضا فساد قول الحشوية إن الإيمان هو التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان)[2].

وقال أحمد قوشتي مبينا قرب الأشاعرة من المعتزلة في التأويل: (عارض أبو الحسن الإغراق في التأويل وذم منتحليه، ثم بدأ الميل نحوه بصورة أكبر عند من جاءوا بعده، ويمكن أن نعد عبد القاهر البغدادي نقطة تحول بارزة في المذهب، وإذا ما وصلنا إلى المتأخرين فتكاد الفروق تتلاشى بين موقفهم وموقف المعتزلة)[3].

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) غاية المرام في علم الكلام (ص: ٣٠٩ - ٣١١) باختصار.

(٣) حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص: ٤١٩).

قال ابن تيمية: (كثير من متأخري أصحاب الأشعري خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة)[(١)].

ب- تأثير الفلسفة في المذهب الأشعري.

الناظر في كتب الأشاعرة يعجب من كثرة النقل عن الفلاسفة وشرح مذاهبهم وذكر أقوالهم، مع الرد عليها كثيرا، والموافقة لبعضها نادرا، وكان الواجب الإعراض عنها.

ومن ذلك قول الشهرستاني: (نحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم، واليونانيين، على الترتيب الذي نقل في كتبهم، ونعقب ذلك بذكر سائر الحكماء إن شاء الله تعالى.

فإن الأصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم، وغيرهم كالعيال لهم. الفصل الأول: الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة، من الملطية، وساميا، وأثينية، وهي بلادهم.

وأما أسماؤهم فهي: تاليس الملطي، وأنكساغورس، وأنكسيمانس، وأنبادقليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون. وتبعهم جماعة من الحكماء، مثل فلوطرخيس، وبقراط، وديمقريطيس، والشعراء، والنساك، وإنما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى، وإحاطته علما بالكائنات، كيف هي؟ وفي الإبداع، وتكوين العالم، وأن المبادئ الأول: ما هي؟ وكم هي؟

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٧).

وأن المعاد: ما هو؟ ومتى هو؟ وربما تكلموا في الباري تعالى بنوع حركة وسكون. وقد أغفل المتأخرون من فلاسفة الإسلام ذكرهم، وذكر مقالاتهم رأسا، إلا نكتة شاذة نادرة ربما اعترت على أبصارهم وأفكارهم، أشاروا إليها تزييفا، ونحن تتبعناها وتعقبناها نقلا، وألقينا زمام الاختيار إليك في المطالعة، والمناظرة بين كلام الأوائل والأواخر)[(١)].

وقال الشهرستاني في أول كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام): (مذهب أهل الحق من أهل الملل كلها أن العالم محدث ومخلوق أحدثه الباري تعالى

---

(١) الملل والنحل (٢/ ١١٨) وقد أطال الشهرستاني في شرح أقوال الفلاسفة القدامى، وعقد لذلك فصلين إلى آخر المجلد الثاني (٢/ ٢١٩)، ثم قال في أول المجلد الثالث (٣/ ٣): (الفصل الرابع: المتأخرون من فلاسفة الإسلام مثل يعقوب بن إسحاق الكندي، وحنين بن إسحاق، ويحيى النحوي، وأبي الفرج المفسر، وأبي سليمان السجزي، وأبي سليمان محمد بن معشر المقدسي، وأبي بكر ثابت بن قرة الحراني، وأبي تمام يوسف بن محمد النيسابوري، وأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، وأبي محارب الحسن بن سهل بن محارب القمي، وأحمد بن الطيب السرخسي، وطلحة بن محمد النسفي، وأبي حامد أحمد بن محمد الإسفزاري، وعيسى بن علي بن عيسى الوزير، وأبي علي أحمد بن محمد بن مسكويه، وأبي زكريا يحيى بن عدي الصيمري، وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري، وأبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، وغيرهم. وإنما علامة القوم: أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، قد سلكوا كلهم طريقة أرسطوطاليس في جميع ما ذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين، ولما كانت طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة، ونظره في الحقائق أغوص؛ اخترت نقل طريقته من كتبه على إيجاز واختصار، كأنها عيون كلامه، ومتون مرامه، وأعرضت عن نقل طرق الباقين).

وأبدعه، وكان الله تعالى ولم يكن معه شيء، ووافقتهم على ذلك جماعة من أساطين الحكمة وقدماء الفلاسفة، مثل ثاليس وانكساغورس وانكسمانس، ومن تابعهم من أهل ملطية، ومثل فيثاغورث وانبدقلس وسقراط وأفلاطون من أثينية ويونان، وجماعة من الشعراء والنساك، ولهم تفصيل مذهب في كيفية الإبداع، واختلاف رأي في المبادئ الأولى، شرحناها في كتابنا الموسوم بالملل والنحل، ومذهب أرسطاطاليس ومن شايعه مثل برقلس والإسكندر والأفروديسي وثامسطيوس، ومن نصر مذهبه من المتأخرين مثل أبي نصر الفارابي وأبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وغيرهما من فلاسفة الإسلام أن للعالم صانعا مبدعا، وهو واجب الوجود بذاته، والعالم ممكن الوجود بذاته، واجب الوجود بالواجب بذاته، غير محدث حدوثا يسبقه عدم، بل معنى حدوثه وجوبه به، وصدوره عنه، واحتياجه إليه، فهو دائم الوجود، لم يزل ولا يزال، فالباري تعالى أوجب بذاته عقلا، وهو جوهر مجرد قائم بذاته، مجرد عن المادة، وبتوسط ذلك أوجب عقلا آخر، ونفسا وجرما سماويا، وبتوسطهما وجدت العناصر والمركبات، وليس يجوز أن يصدر عن الواحد إلا واحد، ومعنى الصدور عنه وجوبه به، ولا يتصور موجب بغير موجب، فالعالم سرمدي، وحركات الأفلاك سرمدية لا أول لها تنتهي إليه، فلا تكون حركة إلا وحركة قبلها، فهي لا تتناهى مدة وعدة، واتفقوا على استحالة وجود علل

ومعلولات لا تتناهى، واتفقوا أيضا على استحالة وجود أجسام لا تنتهي بالفعل)[(١)].

وقال الشهرستاني: (وافقنا الفلاسفة على أن جسما ما أو قوة في جسم لا يصلح أن يكون مبدعا لجسم)[(٢)].

وقال الشهرستاني: (غلا إمام الحرمين حيث أثبت للقدرة الحادثة أثرا هو الوجود، غير أنه لم يثبت للعبد استقلالا بالوجود ما لم يستند إلى سبب آخر، ثم تتسلسل الأسباب في سلسلة الترقي إلى الباري سبحانه، وهو الخالق المبدع المستقل بإبداعه من غير احتياج إلى سبب، وإنما سلك في مسلك الفلاسفة حيث قالوا بتسلسل الأسباب، وتأثير الوسائط الأعلى في القوابل الأدنى)[(٣)].

وقال الشهرستاني: (أما نسبة صاحب هذه المقالة إلى الفلاسفة والتشنيع عليه بأنه يؤدي إلى كون النفس جوهرا روحانيا غير جسم، وأن الخطاب يتوجه عليه، وأن الثواب والعقاب له؛ فهو سؤال لا يستحق الجواب، والمعاني العقلية إذا لاحت حسية كالشمس وجب اعتقادها، ولزم اعتقالها من غير التفات إلى مذهب دون مذهب)[(٤)].

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٩).

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٣٧).

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٤٩).

(٤) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ١٨٦).

وقال الرازي: (مدار هذه الشبهة على أن كل موجودين في الشاهد فلا بد أن يكون أحداهما محايثا للآخر أو مباينا عنه بالجهة، وهذه الطريقة ممنوعة، وبيانه من وجوه:

الأول: أن جمهور الفلاسفة يثبتون موجودات غير محايثة لهذا العالم الجسماني، ولا مباينة عنه بالجهة، وذلك لأنهم يثبتون العقول والنفوس الفلكية، والنفوس الناطقة، ويثبتون الهيولى، ويزعمون أن هذه الأشياء موجودات غير متحيزة، ولا حالة في المتحيز، ولا يصدق عليها أنها محايثة لهذا العالم، ولا مباينة عنه بالجهة، وما لم تبطلوا هذا المذهب بالدليل لا يصح القول بأن كل موجودين في الشاهد، فإما أن يكون أحدهما محايثا للآخر أو مباينا عنه)[(١)].

وقال الآمدي مبينا موافقة مذهب الأشاعرة لمذهب الفلاسفة الذين يسميهم الحكماء في إنكارهم حكمة الله في خلقه وأفعاله: (مذهب أهل الحق أن الباري تعالى خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الإبداع إليها، ولا لحكمة يتوقف الخلق عليها، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر لم يكن لغرض قاده إليه، ولا لمقصود أوجب الفعل عليه، بل الخلق وأن لا خلق له جائزان، وهما

(١) أساس التقديس في علم الكلام (ص: ٥٦). ويُنظر للفائدة تعليق ابن تيمية على كلام الرازي في كتابه بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (٤/ ٢٤٩ - ٣٥٠).

بالنسبة إليه سيان، ووافقهم على ذلك طوائف الإلهيين، وجهابذة الحكماء المتقدمين)[1].

وقال التفتازاني: (لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الإسلاميون حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة، فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها، وهلم جرا إلى أن أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات، وخاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة، لولا اشتماله على السمعيات، وهذا هو كلام المتأخرين)[2].

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**»، قلنا: يا رسول الله: اليهود، والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»[3].

فكل ما خاض فيه فلاسفة الروم واليونان اتبعهم علماء الكلام فيه، ونقلوا كلامهم في كتبهم، وقد تنبه بعض متأخري الأشاعرة لكثرة ضرر كلام الفلاسفة فحذر من الكتب التي تنقل كلامهم، جاء في (شرح السنوسي على أم البراهين مع حاشية الدسوقي)، وهي من الكتب المعتمدة عند الأشاعرة: (وليحذر المبتدي جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حُشِيت بكلام الفلاسفة،

---

(١) غاية المرام في علم الكلام (ص: ٢٢٤).

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص: ١٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

وأولع مؤلفوها بنقل هوسهم، وما هو كفر صراح من عقائدهم التي ستروا نجاستها بما ينبهم على كثير من اصطلاحاتهم وعبارتهم التي أكثرها أسماء بلا مسميات، وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام، وطوالع البيضاوي، ومن حذا حذوهما في ذلك، وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة أو يكون له نور إيمان في قلبه أو لسانه، وكيف يفلح من والى من حاد الله ورسوله، وخرق حجاب الهيبة، ونبذ الشريعة وراء ظهره، وقال في حق مولانا جل وعز وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام ما سولت له نفسه الحمقاء، ودعاه إليه وهمه المختل؟! ولقد خذل بعض الناس فتراه يشرف كلام الفلاسفة الملعونين، ويشرف الكتب التي تعرضت لنقل كثير من حماقاتهم!)، قال في الحاشية: «قوله: وذلك) أي: وما ذكر من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة. (قوله: ككتب الإمام الفخر الرازي في علم الكلام، وطوالع البيضاوي، ومن حذا حذوهما) أي: ومن سلك مسلكهما كالأرموي والعلامة السعد والعضد وابن عرفة، قال البرهان اللقاني في هداية المريد: إن كلام الأوائل كان مقصورا على الذات والصفات والنبوات والسمعيات؛ فلما حدثت طوائف المبتدعة كثر جدالهم مع علماء الإسلام، وأوردوا شبها على ما قرره الأوائل، وخلطوا تلك الشبه بكثير من قواعد الفلاسفة ليستروا ضلالهم، فتصدى المتأخرون كالفخر ومن ذكر معه لدفع تلك الشبه، وهدم تلك القواعد، فاضطروا لإدراجها في كتبهم لأجل أن يتمكنوا من الرد عليهم ببيان المقصود منها، وإيضاح مفاسدها، فظهر أنهم معذورون في إدراجها في كتبهم، ولا لوم عليهم في ذلك، ولا يصح توجيه

الذم إليهم، وتحذير بعض المتأخرين عن تعاطي كتبهم إنما هو للقاصرين الذين لا يصلون لفهمها اهـ)[(١)].

ج – التهاون في تقرير توحيد الألوهية والدخول في التصوف والغلو في الأولياء.

التوحيد عند الأشاعرة يشمل ثلاثة أمور:

١ – أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

٢ – وأنه واحد في صفاته لا شبيه له.

٣ – وأنه واحد في أفعاله لا شريك له[(٢)].

ومعلوم أن أهل السنة يقسمون التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وأهل السنة يبينون أن معنى لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله، وأقول إنصافا للأشاعرة: إنني وجدت بعض الأشاعرة يبين معنى لا إله إلا الله على المعنى الحق، لكنهم لا يؤكِّدون على توحيد الألوهية، وربما يذكرونه عرضا، ومن ذلك:

---

(١) حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٧٠ – ٧٢). ويُنظر أمثلة أخرى فيها النقل عن الفلاسفة الذين يسمونهم الحكماء: نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني (ص: ٣٧، ١٨٤)، أساس التقديس في علم الكلام للرازي (ص: ١٦)، غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ٢٠٣، ٥١).

(٢) يُنظر: الرسالة القشيرية للقشيري (٢/ ٤٦٢)، الشامل في أصول الدين للجويني (ص: ٣٤٥)، الاعتقاد للبيهقي (ص: ٥٩)، الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى لابن العربي (ص: ٣١٣)، نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني (ص: ٥٦)، تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد للصفاقسي (ص: ٣٨، ١٦٤).

قال الصاوي: (معنى لا إله إلا الله المطابقي: لا معبود بحق إلا الله، ومعناها الالتزامي: لا مستغنيا عن كل ما سواه ومفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله)[1].

وقال الباجوري: (الجملة الأولى نفت الألوهية عن غيره تعالى وأثبتتها له تعالى، وحقيقة الألوهية العبادة بحق، ويلزم منها استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه، فحقيقة الإله: المعبود بحق، ويلزم منه أنه مستغن عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه، فمعنى لا إله إلا الله الحقيقي: لا معبود بحق في الواقع إلا الله. ومعناها بطريق اللزوم: لا مستغنيا عن كل ما سواه ومفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله)[2].

وللأسف الشديد أننا نجد عند بعض الأشاعرة المتأخرين خللا في توحيد الألوهية، ومن ذلك ما نقله الخادمي عن بعض الأشاعرة وغيرهم فقال: (عن الزيلعي: ويجوز التوسل إلى الله تعالى والاستغاثة بالأنبياء والصالحين بعد موتهم؛ لأن المعجزة والكرامة لا تنقطع بموتهم، وعن الرملي أيضا بعدم انقطاع الكرامة بالموت، وعن إمام الحرمين: ولا ينكر الكرامة ولو بعد الموت إلا رافضي، وعن الأجهوري: الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه فيكون أقوى في التصرف، كذا نقل عن نور الهداية لأبي علي السنجي)[3].

(١) شرح العلامة الصاوي على جوهرة التوحيد (ص: ٢٨٩).

(٢) تحفة المريد على جوهرة التوحيد (ص: ٢٠٨).

(٣) بريقة محمودية (١/ ٢٠٣).

بل وصل الحال ببعض غلاة الأشاعرة المتأخرين أو المتأثرين بهم أن ألفوا كتبا في الدفاع عن الشرك أو وسائل الشرك، وفي الرد على أهل التوحيد! ومن ذلك كتاب: (إحياء المقبور بأدلة استحباب اتخاذ المساجد والقباب على القبور) لأبي الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الأزهري، وكتاب (إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء) لعبد الله بن محمد الغماري، وكتاب (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) ليوسف النبهاني، وكتاب (الدرر السنية في الرد على الوهابية) لأحمد زيني دحلان، وكتاب (مفاهيم يجب أن تصحح) لمحمد علوي المالكي(١).

ونجد في كلام بعض الأشاعرة شبهات مزخرفة، واعتراضات يحسبها غير المتأمل فيها صحيحة، ففتنوا الناس بتجويز دعاء غير الله سبحانه، واتهموا من لا يستغيث بالرسول ﷺ أنه لا يعظمه التعظيم الواجب له، وتأمل كلام تقي الدين السبكي الأشعري الذي أبطله ابن عبد الهادي بكلام نفيس، قال ابن عبد الهادي فيما نقله عن المعترض السبكي عفا الله عنا وعنه: (المعلوم من الدين وسير السلف الصالحين التبرك ببعض الموتى من الصالحين، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟ ومن ادعى أن قبور الأنبياء وغيرهم من أموات المسلمين سواء

(١) يُنظر في الرد على شبهات القبوريين رسالة: كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب، وكتاب: غاية الأماني في الرد على النبهاني للآلوسي، وكتاب: صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان للسَهْسَوَاني الهندي، وكتاب: التوسل أنواعه وأحكامه للألباني، وكتاب: هذه مفاهيمنا لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وغيرها.

فقد أتى أمرا عظيما نقطع ببطلانه وخطئه فيه، وفيه حط لرتبة النبي ﷺ إلى درجة من سواه من المؤمنين، وذلك كفر بيقين، فإن من حط رتبة النبي ﷺ عما يجب له فقد كفر، فإن قال: إن هذا ليس بحط، ولكنه منع من التعظيم فوق ما يجب له، قلت: هذا جهل وسوء أدب، ونحن نقطع بأن النبي ﷺ يستحق التعظيم أكثر من هذا المقدار في حياته وبعد موته، ولا يرتاب في ذلك من في قلبه شيء من الإيمان، هذا كله كلام المعترض. فانظر إلى ما تضمنه من الغلو والجهل والتكفير بمجرد الهوى وقلة العلم، أفلا يستحي من هذا مبلغ علمه أن يرمي أتباع الرسول وحزبه وأولياءه برأيه الذي يشهد به عليه كلامه، لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا... يقال لهذا المعترض وأشباهه من عباد القبور: أتوجبون كل تعظيم للرسول ﷺ أو نوعا خاصا من التعظيم؟ فإن أوجبتم كل تعظيم لزمكم أن توجبوا السجود لقبره وتقبيله واستلامه والطواف به؛ لأنه من تعظيمه، وقد أنكر ﷺ على من عظَّمه بما لم يأذن به كتعظيم من سجد له، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، ومعلوم أن مُطْرِيهِ إنما قصد تعظيمه، وقال ﷺ لمن قال له: سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا: «عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان»، فمن عظَّمه بما لا يحب فإنما أتى بضد التعظيم، وهذا نفس ما حرمه الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ونهى عنه وحذر منه. وأيضا فإن الحلف به تعظيم له، فقولوا: يجب على الحالف أن يحلف به؛ لأنه تعظيم له، وتعظيمه واجب، وكذلك تسبيحه وتكبيره والتوكل عليه والذبح باسمه،كل هذا تعظيم له،... وإن

قلتم: إنما نوجب نوعا خاصا من التعظيم طولبتم بضابط هذا النوع وحده، والفرق بينه وبين التعظيم الذي لا يجب ولا يجوز)[1].

والمطلع بإنصاف على كتب الأشاعرة يجد أن توحيد الألوهية غير واضح المعالم في كتبهم، وأن اهتمامهم بتقرير توحيد الربوبية أكثر من اهتمامهم بتقرير توحيد الألوهية، وقد بحثت في أكثر من خمسين كتابا مشهورا من كتب التوحيد والعقائد التي ألفها الأشاعرة فلم أجد فيها قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦]، ولا قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:١٨]، وغالبهم لم يذكروا فيها حديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، ولا حديث: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل»، ولا حديث: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»!

وأنقل هنا كلاما نفيسا جدا لابن تيمية، اشتمل على فوائد عظيمة، ونقول عزيزة، قال ابن تيمية مبينا كلام الأشاعرة في اسم الله الواحد: (اسم الله الواحد له عندهم ثلاثة معان: أحدها: إنه الذي لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتعدد ولا يتركب، وربما قال بعضهم: هذا تفسير الاسم الواحد، وهذه الوحدانية هي التي ذكروها هنا، إذ ليس مرادهم بأنه لا ينقسم ولا يتبعض أنه لا ينفصل بعضه عن بعض، وأنه لا يكون إلهين اثنين، ونحو ذلك مما يقول نحوا منه النصارى والمشركون، فإن هذا مما لا ينازعهم فيه المسلمون، وهو حق لا ريب فيه،

(١) يُنظر: الصارم المنكي في الرد على السبكي (ص: ٣٣٣) باختصار.

وكذلك كان علماء السلف ينفون التبعيض عن الله بهذا المعنى، وإنما مرادهم بذلك أنه لا يشهد ولا يُرى منه شيء دون شيء، ولا يدرك منه شيء دون شيء، ولا يعلم منه شيء دون شيء، ولا يمكن أن يشار منه إلى شيء دون شيء، بحيث إنه ليس له في نفسه حقيقة عندهم قائمة بنفسها يمكنه هو أن يشير منها إلى شيء دون شيء أو يرى عباده منها شيئا دون شيء بحيث إذا تجلى لعباده يريهم من نفسه المقدسة ما شاء، فإن ذلك غير ممكن عندهم، ولا يتصور عندهم أن يكون العباد محجوبين عنه بحجاب منفصل عنهم يمنع أبصارهم عن رؤيته، فإن الحجاب لا يحجب إلا ما هو جسم منقسم، ولا يتصور عندهم أن الله يكشف عن وجهه الحجاب ليراه المؤمنون، ولا أن يكون على وجهه حجاب أصلا، ولا أن يكون بحيث يلقاه العبد أو يصل إليه أو يدنو منه أو يقرب إليه في الحقيقة، فهذا ونحوه هو المراد عندهم بكونه لا ينقسم، ويسمون ذلك نفي التجسيم، إذ كل ما ثبت له ذلك كان جسما منقسما مركبا، والباري منزه عندهم عن هذه المعاني.

والمعنى الثاني: من معاني الواحد عندهم هو الذي لا شبيه له، وهذه الكلمة أقرب إلى الإسلام لكن أجملوها فجعلوا نفي الصفات أو بعضها داخلا في نفي التشبيه، واضطربوا في ذلك على درجات لا تنضبط.

والمعتزلة تزعم أن نفي العلم والقدرة وغير ذلك من التوحيد ونفي التجسيم والتشبيه، والصفاتية تقول: ليس ذلك من التوحيد ونفي التجسيم والتشبيه. ثم هؤلاء مضطربون فيما ينفونه من ذلك لكن وافقوا أولئك على أن ما نفوه من

التشبيه وما نفوه من المعنى الذي سموه تجسيما وهو التوحيد الذي لا يتم الدين إلا به، وهو أصل الدين عندهم، وكل من سمع ما جاءت به الرسل يعلم بالاضطرار أن هذه الأمور ليست مما بعث الله به رسوله، ولم يكن الرسول يعلم أمته هذه الأمور، ولا كان أصحاب رسول الله ﷺ، فكيف يكون هذا التوحيد الذي هو أصل الدين لم يدع إليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون؟! بل يعلم بالاضطرار أن الذي جاء به الرسول من الكتاب والسنة يخالف هذا المعنى الذي سماه هؤلاء الجهمية توحيدا! ولهذا ما زال سلف الأمة وأئمتها ينكرون ذلك، كما روى الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي في ذم الكلام عن محمد بن الأزهر قال: جاء رجل إلى المزني فسأله عن شيء من الكلام، فقال: إني أكره هذا بل أنهى عنه كما نهى عنه الشافعي، ولقد سمعت الشافعي يقول: سئل مالك عن الكلام في التوحيد قال مالك: محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علَّم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد! فالتوحيد ما قاله النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»، فما عصم به الدم والمال فهو حقيقة التوحيد، وروى أيضا أبو عبد الرحمن السلمي بإسناده عن أشهب بن عبد العزيز قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: دخلت على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن

فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد؟! لعن الله عمرا؛ فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل، وهذا صريح في رد الكلام والتوحيد الذي كان تقوله المعتزلة والجهمية، وليس له أصل عن الصحابة والتابعين، بخلاف ما روي من الآثار الصحيحة في الصفات والتوحيد عن الصحابة والتابعين، فإن ذلك لم ينكروه، إنما أنكروا الكلام والتوحيد المبتدع في أسماء الله وصفاته وكلامه.

وعن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة؛ فإنها بدعة.

وقال أبو حنيفة: لعن الله عمرو بن عبيد؛ فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام، وكان أبو حنيفة يحثنا على الفقه، وينهانا عن الكلام.

وعن الحسين بن علي الكرابيسي قال: شهدت الشافعي ودخل عليه بشر المريسي فقال لبشر: أخبرني عما تدعو إليه، أكتاب ناطق وفرض مفترض وسنة قائمة، ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال؟! فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت على نفسك بالخطأ، فأين أنت عن الكلام في الفقه والأخبار يواليك الناس عليه، وتترك هذا؟! قال: لنا نهمة فيه، فلما خرج بشر قال الشافعي: لا يفلح.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول للربيع: يا ربيع اقبل مني ثلاثة أشياء: لا تخوضن في أصحاب رسول الله ﷺ فإن خصمك النبي ﷺ يوم القيامة، ولا تشتغل بالكلام فإني قد اطلعت من أهل الكلام على التعطيل، ولا تشتغل بالنجوم فإنه يجر إلى التعطيل.

وهذا التوحيد الذي يذكره هؤلاء مأخوذ من قول بشر المريسي وذويه، وهذا التوحيد الذي ذكروه هو التعطيل بعينه، فإنه لا يصلح أن يكون إلا صفة للمعدوم، سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: بدعة ابتدعوها، ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق ويحيى بن يحيى وابن المبارك ومحمد بن يحيى وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن وأبي يوسف يتكلمون في ذلك، بل كانوا ينهون عن الخوض فيه، ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال. وقول ابن خزيمة الملقب بإمام الأئمة هو نظير ما نهى عنه مالك من الكلام في الأسماء والصفات، وهو هذا التوحيد الذي ابتدعته الجهمية وأتباعها، فإن ابن خزيمة له كتاب مشهور في التوحيد يذكر فيه صفات الله التي نطق بها كتابه وسنة رسوله.

قال أبو العباس بن سريج: توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتوحيد أهل الباطل الخوض في الأعراض والأجسام، وإنما بعث النبي ﷺ بإنكار ذلك، وهذا موافق لما تقدم، فبين أن الخوض في الجسم والعرض ونفي ذلك وجعل ذلك من التوحيد هو قول أهل

الباطل، فكيف بمن جعله أصل الدين؟! قال رجل لبشر بن أحمد أبي سهل الإسفراييني: إنما أتعلم الكلام لأعرف به الدين! فغضب وقال: أو كان السلف من علمائنا كفارا؟! وقال أبو عمر بن عبد البر: الذي أقول: إنه إذا نظر إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وعبد الرحمن وسائر المهاجرين والأنصار، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا علم أن الله ﷻ لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين وبأعلام النبوة ودلائل الرسالة، لا من قبل حركة ولا سكون، ولا من باب البعض والكل، ولا من باب كان ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا في الجسم ونفيه وفي التشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب لما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من علمهم مشهورا ومن أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم، واشتهروا كما اشتهروا بالقرآن والروايات، فذكر أبو عمر أن ما يدخله هؤلاء في أصول الدين والتوحيد من الجسم ونفيه، والتشبيه ونفيه، والاستدلال بالحركة والسكون لو كان من الدين لما أضاعه خيار هذه الأمة؛ فعلم أنه ليس من الدين، وكلام علماء الملة في هذا الباب يطول، وإنما الغرض التنبيه على أن ما سماه هؤلاء توحيدا وجعلوه هو نفي التجسيم والتشبيه إنما هو شيء ابتدعوه، لم يبعث الله به رسله، ولا أنزل به كتبه، وقد اعترف بذلك حذاقهم، كما ذكره أبو حامد الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين[(١)]،... ولهذا

(١) يُنظر: إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٣٣).

لما كان أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبو الحسن الأشعري وأبو العباس القلانسي ممن أخذ أصل الكلام في التوحيد عن المعتزلة، وخالفوهم في بعض دون بعض، يقع في كلامهم من هذا التوحيد المبتدع المخالف للتوحيد المنزل من عند الله ما يقع؛ كان الناس ينبهون على ذلك.

والمعنى الثالث: من معاني التوحيد عند هؤلاء الأشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره هو أنه سبحانه لا شريك له في الملك، بل هو رب كل شيء، وهذا معنى صحيح، وهو حق، وهو أجود ما اعتصموا به من الإسلام في أصولهم، حيث اعترفوا فيها بأن الله خالق كل شيء ومربيه ومدبره، والمعتزلة وغيرهم يخالفون في ذلك حيث يجعلون بعض المخلوقات لم يخلقها الله ولم يحدثها، لكن مع هذا قد ردوا قولهم ببدع غلوا فيها، وأنكروا ما خلقه الله من الأسباب، وأنكروا ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله يخلق الأشياء بعضها ببعض، وغير ذلك مما ليس هذا موضعه، فهذه المعاني الثلاثة هي التي يقولون أنها معنى اسم الله الواحد، وهي التوحيد، وفيها من البدع التي خولف بها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ما قد نبهنا على بعضه.

وأما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه وأنزل به كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما بين ذلك بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، فأخبر أن الإله إله واحد، لا يجوز أن يتخذ إله غيره، فلا يعبد إلا إياه،... والشرك الذي ذكره الله في كتابه إنما هو عبادة غيره من

المخلوقات كعبادة الملائكة أو الكواكب أو الشمس أو القمر أو الأنبياء أو تماثيلهم أو قبورهم أو غيرهم من الآدميين ونحو ذلك مما هو كثير في هؤلاء الجهمية ونحوهم ممن يزعم أنه محقق في التوحيد، وهو من أعظم الناس إشراكا، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨]، وقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٤-٦٦]،... وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال ابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد: يسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، ويشركون به، ويقولون: له ولد وثالث ثلاثة، فكان الكفار يقرون بتوحيد الربوبية -وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون إذا سلموا من البدع فيه- وكانوا مع هذا مشركين؛ لأنهم كانوا يعبدون غير الله، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل:٣٦]. فبين سبحانه أنه بهذا التوحيد بعث جميع الرسل، وأنه بعث إلى كل أمة رسولا به، وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله من الأولين ولا من الآخرين دينا غيره،... والإله هو المستحق للعبادة، فأما من اعتقد في الله أنه رب كل شيء

وخالقه وهو مع هذا يعبد غيره فإنه مشرك بربه، متخذ من دونه إلها آخر، فليست الإلهية هو الخلق أو القدرة على الخلق أو القِدَم كما يفسرها هؤلاء المبتدعون في التوحيد من أهل الكلام، إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون في أن الله خالق كل شيء وربه، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين إنه لا إله إلا هو، فهذا موضع عظيم جدا ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام، حتى صاروا يدخلون في أمور عظيمة هي شرك ينافي الإسلام لا يحسبونها شركا، وأدخلوا في التوحيد والإسلام أمورا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه، وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أمورا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله، فأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك، بل التوحيد الذي لا بد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد، وهو توحيد العبادة، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، أن يقصد الله بالعبادة، ويريده بذلك دون ما سواه، وهذا هو الإسلام، فإن الإسلام يتضمن أصلين: أحدهما: الاستسلام لله، والثاني: أن يكون ذلك له سالما فلا يشركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه)[١].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٥٥٨ - ٥٦٦) باختصار وتصرف يسير.

ومن أسباب عدم وضوح المنهج الأشعري في توحيد الألوهية[1]:

السبب الأول: عرَّف كثير من الأشاعرة كلمة (إله) بأنه القادر على الاختراع.

قال الشهرستاني: (قال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: إذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى لا يشاركه في الخلق غيره، فأخص وصفه تعالى هو: القدرة على الاختراع، قال: وهذا هو تفسير اسمه تعالى: الله)[2].

وقال عبد القاهر الإسفراييني: (اختلف أصحابنا في معنى الإله: فمنهم من قال: إنه مشتق من الإلهية، وهي قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري)[3].

وقال الفخر الرازي: (الإله هو القادر على الاختراع)[4].

قال سليمان بن عبد الله آل الشيخ: (أما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقر به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها: لا قادر على الاختراع، أو أن معناها: الإله، هو الغني عما سواه، الفقير

(١) يُنظر: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الاشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف (١/ ١٥٤).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٣) أصول الدين (ص: ١٢٣).

(٤) المطالب العالية من العلم الإلهي (٩/ ٢٨٥). ويُنظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٢١٧).

إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم الإلهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى: لا إله إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به، ولم يدَّعوا في آلهتهم شيئا من ذلك، بل يقرون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلَّموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى: لا إله إلا الله، وأبوا على النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها، ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو يُأَلِّهُ غير الله بالحب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجَّهَتْ على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان صادقا أو كاذبا، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان، أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذبا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب!... وكثير منهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبده عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم،

ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب، وهذا أمر ما فعله الأولون!... وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه، أخذ في دعاء صاحبه باكيا خاشعا ذليلا خاضعا، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات! فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل ـ فضلا عن عالم ـ أن التلفظ بـ: لا إله إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم؟! وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم؟!... فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء، ولا من أئمة اللغة.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقا قادرا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإله حق وإن سمي إلها، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام، وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد؛ لأنه

يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قُدِّرَ أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يُرَدُّ عليه بالدلائل السمعية والعقلية)[1].

السبب الثاني: الأشاعرة المتأخرون لم يفردوا توحيد الألوهية بالتأليف لتأكيده والحث عليه والترغيب فيه، مع أن الحاجة ماسة إلى بيانه، والتحذير مما يضاده، بل إن كثيرا من غلاة الأشاعرة المتأخرين أنكروا التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وسبب هذا الإنكار أن الأشاعرة قرروا توحيد الربوبية، وظنوا أن من حققه لا يُتصور منه أن يشرك بالله سبحانه!

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

قال الشوكاني: (﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ ﴾ أي: وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي المميت ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، المعتقدون في

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٧ - ٥٩).

الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عُبَّاد القبور)[1].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا بكر، للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل!»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟! قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[2].

وعن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: (مِن إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون!)[3].

وعن عامر الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قالا: (يعلمون أنه ربهم، وأنه خلقهم، وهم مشركون به)[4].

(١) فتح القدير (٣/ ٧٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٣٧٣).

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٣٧٣).

وقد تقدم أن بعض أعلام الأشاعرة أجازوا دعاء غير الله، وألف بعضهم كتبا شنيعة في تبرير الشرك أو الدفاع عن وسائل الشرك أو الرد على أهل التوحيد! وألف الفخر الرازي وهو أعظم أئمة الأشاعرة المتأخرين كتاب: (السر المكتوم في مخاطبة النجوم)، وألف أيضا كتاب (المطالب العالية من العلم الإلهي)، وفيه عجائب من علم السحر والتنجيم والطلاسم والشركيات، وسيأتي ذكر بعض النقول من هذا الكتاب في المبحث الرابع في ترجمة الرازي عفا الله عنا وعنه!

وتأمل قول هاني حامز الأشعري: (صفة الوحدانية هي بحق شعار الإسلام، وقد اهتم بها المتكلمون اهتماما كبيرا، وذلك لمواجهة القائلين بتعدد الآلهة، ومن شدة حرص المتكلمين على إثبات الوحدانية لمولانا تعالى وتقدس أثبتوا الوحدانية له تعالى في الذات والصفات والأفعال... وقارن رأي الأشاعرة ومن تابعهم برأي ابن تيمية ومدرسته حيث من رأيهم القول بوجود نوعين من التوحيد: أ-توحيد الربوبية، ب-توحيد الألوهية)[(١)].

وقول أبي حامد بن مرزوق الأشعري: (توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود وفي الاعتقاد، فمن اعترف بأنه لا رب إلا الله كان معترفا بأنه لا يستحق العبادة غيره، ومن أقر بأنه لا يستحق

---

(١) يُنظر: هامش كتاب الإشارة في علم الكلام للرازي (ص: ٢٥٦).

العبادة غيره كان مذعنا بأنه لا رب سواه، وهذا الثاني هو معنى (لا إله إلا الله) في قلوب جميع المسلمين)[1].

وقول سلامه القضاعي الأشعري: (إذا بان أنه لا خالق سواه ثبت قطعا أنه لا يستحق العبادة غيره، فإن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ـ أي استحقاق العبادة ـ متلازمان عرفا وشرعا، فالقول بأحدهما قول بالآخر، والإشراك في أحدهما إشراك في الآخر، فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله، لم ير مستحقا للعبادة إلا هو، ومن اعتقد أنه لا يستحق العبادة غيره كان ذلك بناء منه على أنه لا رب إلا هو، ومن أشرك مع الله غيره في العبادة كان لا محالة قائلا بربوبية هذا الغير، هذا ما لا يعرف في الناس سواه، فإن ما لا تعتقد له ربوبية استحال أن يُتَّخَذ معبودا، ولهذا تجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أرسلهم ﷻ يكتفون في الدعوة إلى التوحيد بأحدهما ويضعون كلا منهما موضع الآخر، اكتفاء بشدة التلازم بينهما في العقول، وأن القول بتوحيد الربوبية هو إقرار بتوحيد الألوهية وبالعكس)[2].

السبب الثالث: حمَلَ الأشاعرة المتأخرون الآيات الواردة في توحيد الألوهية على أنها في توحيد الربوبية، بل وأنكروا على من فرَّق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية كما تقدم، وأنكروا على من ينهى الناس عن دعاء غير الله من

(١) براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (١/ ٩١).

(٢) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات والأكوان (ص: ٨٧).

الأنبياء والصالحين، وأنكروا على من يحكم على من يدعو غير الله بأنه مشرك، ويكفي في الرد عليهم قول الشوكاني: (من يدعو الأموات ويهتف بهم عند الشدائد ويطوف بقبورهم ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ لا يصدر منه ذلك إلا عن اعتقاد كاعتقاد أهل الجاهلية في أصنامهم، هذا إن أراد من الميت الذي يعتقده ما كان تطلبه الجاهلية من أصنامهم من تقريبهم إلى الله فلا فرق بين الأمرين؛ وإن أراد استغلال من يدعوه من الأموات بأن يعطيه ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ فهذا أمر لم تبلغ إليه الجاهلية فإنهم قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ولم يدَّعوا لأصنامهم أنهم يستقلون بإيصالهم إلى ما يطلبونه دون الله ﷻ فهذا هو شرك الجاهلية الذي بعث الله لأجله رسله وأنزل فيه كتبه وقاتلتهم الأنبياء عليه، وأما الخلق والرزق والموت والحياة ونحو ذلك فالجاهلية يقرون في جاهليتهم وقبل بعثة الرسل بأن الله سبحانه هو المستقل بذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]... وبالجملة فإخلاص التوحيد لله ﷻ وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت لا تحتاج إلى أن تنتقل فيه أقوال الرجال أو يُستَدل عليه بالأدلة فإنه الأمر الذي بعث الله لأجله رسله وأنزل فيه كتبه، وفي هذا الإجمال ما يغني

عن التفصيل ومن شك في هذا فعليه بالتفكر في القرآن الكريم فإنه سيجده من أعظم مقاصده وأكثر موارده)[1].

وقال الشوكاني أيضا: (اعلم أن الرزية كل الرزية، والبلية كل البلية أمر غير ما ذكرناه من التوسل المجرد، والتشفع ممن له الشفاعة، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام، وبعض الخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ ويفعلون بهم ما لا يفعله إلا الله ﷷ حتى نطقت ألسنتهم مما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله تعالى، وتارة استقلالا، ويصرحون بأسمائهم، ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعا زائدا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذا لم يكن شركا فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفرا فليس في الدنيا كفر... اعلم أن الله لم يبعث رسله، وينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم، والرازق، ونحو ذلك، فإن هذا يقر به كل مشرك قبل بعثة الرسل... بل بعث الله رسله، وأنزل كتبه لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة وإخلاص التوحيد لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله، والنداء، والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشر له ومنه لا لغيره ولا من غيره ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]... وقد تقرر أن شرك المشركين الذين بعث الله إليهم خاتم رسله لم يكن إلا باعتقادهم أن الأنداد

(١) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (١/ ١٨٦، ١٨٨).

التي اتخذوها تنفعهم وتضرهم وتقربهم إلى الله، وتشفع لهم عنده، مع اعترافهم بأن الله ﷻ هو خالقها وخالقهم، ورازقها ورازقهم، ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم... وإذا تقرر هذا فلا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات، أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه، إما استقلالا أو مع الله تعالى، وناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده بالعبادة؛ إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه، ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة. ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله، أو معه حجرا، أو شجرا، أو ملكا، أو شيطانا كما كانت تفعل ذلك الجاهلية، وبين أن يكون إنسانا من الأحياء، أو الأموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين. وكل عالم يعلم هذا ويقر به فإن العلة واحدة، وعبادة غير الله وتشريك غيره معه تكون للحيوان كما تكون للجماد وللحي كما تكون للميت... فمن زعم أنَّ ثمَّ فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر وينفع، وبين من اعتقد من ميت من بني آدم، أو حي منهم أنه يضر أو ينفع أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله فقد غلط غلطا بينا، وأقر على نفسه بجهل كبير؛ فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه، ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكا بالصنم والوثن والإله، ليس فيه زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد، كما يفعله كثير من المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن؛ إذ ليس الشرك

هو بمجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئا يختص به ﷻ، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية، أو أطلق عليه اسما آخر فلا اعتبار بالاسم قط، ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به أهل العلم... فإن قلت: إن المشركين كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد، وهؤلاء المعتقدون في الأموات يقرون بها! قلت: هؤلاء إنما قالوها بألسنتهم، وخالفوها بأفعالهم، فإن من استغاث بالأموات، أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، أو عظمهم، أو نذر عليهم بجزء من ماله، أو نحر لهم فقد نزلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال... من تكلم بكلمة التوحيد، وفعل أفعالا تخالف التوحيد، كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الأموات، فلا ريب أنه قد تبين من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من إقرارهم بالتوحيد... واعلم أن من الشبه الباطلة التي يوردها المعتقدون في الأموات أنهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية، لأنهم إنما اعتقدوا في الأولياء والصالحين، وأولئك اعتقدوا في الأوثان والشياطين، وهذه الشبهة داحضة تنادي على صاحبها بالجهل، فإن الله سبحانه لم يعذر من اعتقد في عيسى عليه السلام وهو نبي من الأنبياء، بل خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية، ومنها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ [النساء:١٧١]، وقال لمن كان يعبد الملائكة: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ

يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ:٤٠،٤١]، ولا شك أن عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم، ويغلون في شأنهم... واعلم أن ما حررناه وقررناه من أن كثيرا مما يفعله المعتقدون في الأموات يكون شركا قد يخفى على كثير من أهل العلم، وذلك لا لكونه خفيا في نفسه، بل لإطباق الجمهور على هذا الأمر، وكونه قد شاب عليه الكبير، وشب عليه الصغير، وهو يرى ذلك ويسمعه، ولا يرى ولا يسمع من ينكره، بل ربما يسمع من يرغب فيه، ويندب الناس إليه، وينضم إلى ذلك ما يظهره الشيطان للناس من قضاء حوائج مَنْ قَصَدَ بعض الأموات الذين لهم شهرة، وللعامة فيهم اعتقاد)[1].

ومع وضوح التوحيد في كتاب الله نجد أن غلاة الأشاعرة جوَّزوا الاستغاثة بغير الله، ومن ذلك ما نقله أبو حامد بن مرزوق عن الشيخ يوسف الدجوي الأشعري مفتي مجلة الأزهر أنه قال: (جاءتنا رسائل كثيرة يسأل مرسلوها عن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ما معناهما؟ وما الذي يترتب عليهما؟ ومن ذا الذي فرق بينهما؟ وما هو البرهان على صحة ذلك أو بطلانه؟ فنقول وبالله التوفيق: إن صاحب هذا الرأي هو ابن تيمية الذي شاد بذكره قال: إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة، وأما توحيد الربوبية وهو

(١) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (١/ ٣١٨، ٣٣٦ - ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٩ - ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٧).

اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف في أمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]، ثم قالوا: إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفعون بهم وينادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم قد كفروا باعتقادهم الربوبية في تلك الأوثان والملائكة والمسيح سواء بسواء، فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية في تلك الأوثان وما معها بل بتركهم توحيد الألوهية بعبادتها، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم المستغيثين بهم الطالبين منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى)[(١)].

ونقل أبو حامد بن مرزوق أيضا عن يوسف الدجوي أنه قال في تجويز الاستغاثة بغير الله: (المستغيث لا يعتقد أن المستغاث به من الخلق مستقل في أمر من الأمور غير مستمد من الله تعالى أو راجع إليه، وذلك شيء مفروغ منه، ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، فإن الله خالق كل شيء، ولا تأثير عندنا لشيء في شيء بنفسه، فهذا هو ما عليه جماعة أهل الحق)[(٢)].

ويزعم بعض الأشاعرة أن ابن تيمية ابتدع القول بالمنع من التوسل بالأنبياء والصالحين، مع أنه لا يخفى على من يعرف السنة النبوية وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان أنهم لم يكونوا يتوسلون بذوات الأنبياء

(١) براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (١/ ١٦٦).

(٢) براءة الأشعريين من عقائد المخالفين (٢/ ٢٢٠).

والصالحين، وهذا دعاء الأنبياء والصالحين المذكور في القرآن العظيم، ليس فيه توسل بذوات الأنبياء، وإنما فيه دعاء الله سبحانه وحده، والتوسل إليه بأسمائه.

قال ابن تيمية: (التوسل بالنبي بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة، وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك، قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة: وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة. قال بشر بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به. وأكره أن يقول: بحق خلقك. قال أبو يوسف: وأكره أن يقول: بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام. قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق، فلا تجوز وفاقا... وهذا التوسل بالأنبياء - بمعنى السؤال بهم - وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم: إنه لا يجوز، ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك، فمن نقل عن مذهب مالك: أنه جوز التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه بل المعروف عن مالك أنه كره للداعي أن يقول: يا سيدي سيدي، وقال: قل كما قالت الأنبياء: يا رب يا رب يا كريم، فإذا

كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لم يكن مشروعا عنده، فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبيا كان أو غيره، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق، لا نبي ولا غيره، بل قال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فيسقون... لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته ﷺ سأل الله تعالى بمخلوق، لا به ولا بغيره، لا في الاستسقاء ولا غيره... وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح، قالوا: وإن كان من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل، اقتداء بعمر، ولم يقل أحد من أهل العلم: إنه يسأل الله تعالى في ذلك بنبي ولا بغير نبي،... وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعا لفعله الصحابة والتابعون، وكذلك السؤال به، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته؟!)[(١)].

وهذا الكاساني الحنفي وهو قبل ابن تيمية بأكثر من قرن يقول ناقلا عن المذهب الحنفي: (يُكره للرجل أن يقول في دعائه: أسألك بحق أنبيائك ورسلك، وبحق فلان؛ لأنه لا حق لأحد على الله ﷻ جل شأنه)[(٢)].

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص: ٨٧، ١٢٥ – ١٢٨، ١٤١) باختصار.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٥/ ١٢٦).

وقال أبو بكر محمد زكريا: (الحقيقة التي يجب التأكيد عليها هنا: أنه لم يقع في تاريخ البشرية الشرك باعتقاد استقلال أحد غير الله بالخلق والإيجاد، إلا ما يذكر عن الفلاسفة الذين يرون: أن الموجودات قد وجدت بطريق السببية الضرورية الحتمية من ذات الموجودات لا من خلق الله وتدبيره، الذي ليس له عندهم أي علاقة بالعالم لا علما ولا إرادة ولا قدرة، أما الشرك الذي وقع فيه الجماهير من الناس قديما وحديثا فهو شرك الطلب من غير الله تعالى ما لا يُطلب إلا من الله، لا على سبيل أن من يطلب منه العطاء والرزق مالك له على سبيل الاستقلال والخلق، بل على سبيل أن من يُطلب منه ذلك قريب من الله جاها ومنزلة)[١].

السبب الرابع: اتفق الأشاعرة على أن الأمر بعبادة الله ليس أول واجب على المكلف، وزعموا أن أول واجب على المكلف: المعرفة، أو النظر، أو القصد إلى النظر المؤدي إلى إثبات وجود الله تعالى، واشتغلوا تصنيفا وتدريسا في تحقيق ما زعموه أنه أول واجب على المكلف، ولم يهتموا كثيرا بتحقيق توحيد الألوهية، والتحذير من الشرك ووسائله.

---

(١) الشرك في القديم والحديث (١/ ١٣٣).

قال الفخر الرازي: (اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى، أو النظر في معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر، على الاختلاف المشهور فيما بينهم)[1].

والمعروف في الكتاب السنة وإجماع السلف أن أول ما يجب على المكلفين هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»[2].

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: (أنكرنا طريقة أهل الكلام على ما أسسوا فإنهم قالوا: أول ما يجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة الباري، وهذا قول مخترع لم يسبقهم إليه أحد من السلف، وأئمة الدين، ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها، لا منقولا من النبي ﷺ، ولا من الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك من التابعين بعدهم. وكيف يجوز أن يخفى عليهم أول

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (١٩).

الفرائض وهم صدور هذه الأمة، والسفراء بيننا وبين رسول الله ﷺ؟ ولئن جاز أن يخفى الفرض الأول على الصحابة والتابعين، حتى لم يبينوا لأحد من هذه الأمة مع شدة اهتمامهم بأمر الدين، وكمال عنايتهم حتى استخرجه هؤلاء بلطيف فطنتهم في زعمهم، فلعله خفي عليهم فرائض أخر! ولئن كان هذا جائزا فلقد ذهب الدين واندرس؛ لأنا إنما نبني أقوالنا على أقوالهم، فإذا ذهب الأصل فكيف يمكن البناء عليه؟! نعوذ بالله من قول يؤدي إلى هذه المقالة التي تؤدي إلى الانسلاخ من الدين، وتضليل الأئمة الماضيين! هذا وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين)(١).

ومما تقدم يتبين تهاون غالب الأشاعرة بتوحيد الألوهية، ومن المعلوم عند أهل السنة والجماعة أن توحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة، وهو حقيقة دين الإسلام، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فإن من عبد الله تعالى وحده، وآمن بأنه المستحق للعبادة وحده، دل ذلك على أنه مؤمن بربوبيته وبأسمائه وصفاته؛ لأنه لم يعبد الله وحده إلا لأنه يعتقد بأن الله سبحانه هو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير وغير ذلك من خصائص الربوبية، وأنه سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا، التي تدل على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له(٢).

---

(١) يُنظر: الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢٤)، منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر للملا =

قال ابن تيمية رحمه الله: (وقع الغلط في مسمى التوحيد، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر: غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث وهو توحيد الأفعال، وهو أن خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله، حتى قد يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع، ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولا لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء حتى إنهم كانوا يقرون بالقدر أيضا وهم مع هذا مشركون فقد تبين أن ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك؛ ولكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقا لغير الله كالقدرية وغيرهم؛ لكن هؤلاء يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون أن بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور هم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة لا يقولون إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق فأما من أنكر الصانع فذاك جاحد معطل للصانع

= القاري (ص: ٤٧)، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للصنعاني (ص: ٤٧ - ٥٠)، القول السديد شرح كتاب التوحيد للسعدي (ص: ١٩)، القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (١/ ١٤ - ١٦)، تسهيل العقيدة الإسلامية لابن حمادة الجبرين (ص: ٥٣).

كالقول الذي أظهر فرعون والكلام الآن مع المشركين بالله المقرين بوجوده فإن هذا التوحيد الذي قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون بل يقرون به مع أنهم مشركون كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع وكما علم بالاضطرار من دين الإسلام وكذلك النوع الثاني وهو قولهم: لا شبيه له في صفاته؛ فإنه ليس في الأمم من أثبت قديما مماثلا له في ذاته سواء قال إنه يشاركه. أو قال: إنه لا فعل له؛ بل من شبه به شيئا من مخلوقاته فإنما يشبهه به في بعض الأمور وقد عُلم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه؛ فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين كما تقدم وعلم أيضا بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلا بد بينهما من قدر مشترك كاتفاقهما في مسمى الوجود والقيام بالنفس والذات ونحو ذلك فإن نفي ذلك يقتضي التعطيل المحض وإنه لا بد من إثبات خصائص الربوبية وقد تقدم الكلام على ذلك... وكذلك النوع الثالث، وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته أو لا جزء له أو لا بعض له؛ لفظ مجمل فإن الله سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد؛... لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نفي علوه على عرشه ومباينته لخلقه وامتيازه عنهم ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله ويجعلون ذلك من التوحيد فقد تبين أن ما يسمونه توحيدا: فيه ما هو حق، وفيه ما هو باطل ولو كان جميعه حقا؛ فإن المشركين إذا أقروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك الذي وصفهم به في القرآن وقاتلهم عليه الرسول ﷺ بل لا بد أن يعترفوا أنه لا إله إلا الله، وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع كما ظنه

من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظنوا أن الإلهية هي القدرة على الاختراع دون غيره، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو! فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه، بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يعبد، فهو إله بمعنى مألوه؛ لا إله بمعنى آله؛ والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلها آخر، وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر المنتسبون إلى السنة إنما هو توحيد الربوبية، وأن الله رب كل شيء، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون)[١].

هذا وإن الناظر في كتب متأخري الأشاعرة يجد تأثرهم الواضح بالصوفية الذين لا يهتمون بتوحيد الله سبحانه، بل إن بعض مؤلفي الأشاعرة من دعاة الصوفية، وغلا بعضهم في الأولياء غلوا عظيما، حتى جوزوا الاستغاثة بهم، وذكروا في كتبهم كثيرا من الخرافات العجيبة، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١) قال محمد السنباوي الأشعري المعروف بالأمير: (الحق أن التصوف ثمرة جميع علوم الشريعة وآلاتها إلا أنه قواعد مخصوصة تُدوَّن)[٢].

٢) قال السنباوي أيضا: (في آخر (الأنوار القدسية في قواعد الصوفية) للشعراني ما نصه: طلب بعض الفقراء من سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله تعالى

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٧ - ١٠١) باختصار وتصرف يسير.

(٢) إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد (ص: ٣١٧).

عنه وقوع كرامة، فقال لهم: يا أولادي وهل ثَمَّ كرامة لعبد العزيز أعظم من أن الله تعالى يمسك به الأرض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به منه منذ أزمان متعددة؟! اهـ)[(١)].

٣) قال الباجوري: (اعتقد ثبوت الكرامة للأولياء بمعنى جوازها ووقوعها لهم في الحياة وبعد الموت كما ذهب إليه جمهور أهل السنة، وليس في مذهب من المذاهب الأربعة قول بنفيها بعد الموت، بل ظهورها حينئذ أولى؛ لأن النفس حينئذ صافية من الأكدار، ولذا قيل: من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق، وقال الشعراني: ذُكر لي بعض المشايخ أن الله تعالى يوكل بقبر الولي ملَكا يقضي الحوائج، وتارة يخرج الولي من قبره ويقضيها بنفسه!)[(٢)].

٤) قال سلامة العزامي الصوفي الأشعري: (التوسل والتشفع والاستغاثة بالنبيين عليهم الصلاة والسلام، والصالحين رضي الله عنهم، بعد وفاتهم، مع اعتقاد أنهم مفاتيح الرحمة وأسباب الخير، والفاتح لها بهم هو الله وحده؛ ليس

---

(١) إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد (ص: ٢٥٣)، تأمل في هذا النقل والذي بعده استدلال الأشاعرة في كتب العقيدة بحكايات وأقوال لا يستطيعون الجزم بصحتها، ومع ذلك يقول بعضهم: لا يجوز الاستدلال في العقائد بأحاديث الآحاد ولو كانت في الصحيحين! وسيأتي في ترجمة الفخر الرازي أنه قال: (لا يجوز التمسك في أصل الدين بأخبار الآحاد) كما في كتابه أساس التقديس في علم الكلام (ص: ١٢٩)، والله المستعان.

(٢) تحفة المريد على جوهرة التوحيد (ص: ٢٥٢).

شركا ولا كفرا، ولا حراما ولا مكروها، بل هو سبيل المؤمنين، وطريق عباد الله المرضيين)[١].

٥) قال الصاوي: (لا يدل على الأخلاق المحمدية إلا الأشياخ العارفون بربهم، فمن أراد السلوك والوصول فليلزم عارفا كاملا على الكتاب والسنة، فيزنه قبل الأخذ عنه؛ فإن وجده كاملا على القدم المحمدي فليطلب رضا الله في رضاه، ويعتقد أنه أكمل أهل عصره)[٢].

٦) جاء في الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي الأشعري: (سئل نفع الله بعلومه ورضي عنه: هل يمكن الآن الاجتماع بالنبي ﷺ في اليقظة والتلقي منه؟ فأجاب بقوله: نعم يمكن ذلك، فقد صرح بأن ذلك من كرامات الأولياء: الغزالي والبارزي والتاج السبكي والعفيف اليافعي من الشافعية، والقرطبي وابن أبي جمرة من المالكية، وقد حكى عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه، فروى ذلك الفقيه حديثا، فقال له الولي: هذا الحديث باطل، قال: ومن أين لك هذا؟ قال: هذا النبي ﷺ واقف على رأسك يقول:

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان (ص: ٢١). قد ذكر الله لنا في كتابه سبيل المؤمنين الذين يدعونه وحده، ولا يستغيثون بغيره، {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

(٢) شرح العلامة الصاوي على جوهرة التوحيد (ص: ٤٣٥). لا يعلم من هو الأعلم والأكمل إلا الله سبحانه، ولا دليل على هذه الوصية الصوفية بلزوم شيخ واحد دون غيره، قال التابعي الجليل أيوب السِّخْتياني: (إنك لا تُبصِر خطأ معلمك حتى تجالس غيره، جالسِ الناس) رواه الدارمي في سننه (٦٦٩) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٩).

إني لم أقل هذا الحديث، وكشف للفقيه فرآه!)[(١)].

والعجب من فقيه كبير ومحدث شهير كابن حجر الهيتمي رحمه الله يذكر حكايات عن مجهولين، ويستدل بها على أمور غيبية، والله المستعان!

والحكايات الغريبة في كتب الأشاعرة الصوفية المتأخرين كثيرة جدا، ومن نظر في كتاب (الطبقات الكبرى) للشعراني الأشعري يجد العجب العجاب من الحكايات التي يذكرها بلا إسناد، أو يرويها عن مجاهيل، ويجزم العاقل السوي ببطلان أكثرها، وفيها ما يستحي الإنسان من ذكرها للعامة، ولا بأس أن أذكر لك أيها القارئ بعضها:

١) قال الشعراني في ترجمة بعض الصوفية: (دخل الحمام يومًا مع الفقراء فأخذ ماء من الحوض ورشه على أصحابه، وقال: النار التي يعذب الله بها العصاة من أمة محمد ﷺ مثل هذا الماء في سخونته! ففرح الفقراء بذلك، وكان رضي الله تعالى عنه إذا زار القرافة سلم على أصحاب القبور، فيردون السلام عليه بصوت يسمعه من معه)[(٢)].

٢) قال الشعراني: (ومنهم سيدي الشيخ محمد بن أحمد الفرغلي رضي الله

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (ص: ٢١١، ٢١٢). وفي هذا الكتاب قصص غريبة جدا يعجب الإنسان من ذكر العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي رحمه الله لها مع فضله وفقهه وسعة علمه بالحديث! يُنظر: الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (ص: ٢١٣) و(ص: ٢١٥ - ٢١٩).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٨٨).

تعالى عنه، المدفون بالصعيد، كان ﷺ من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف، ومن كراماته ﷺ: أن امرأة اشتهت الجوز الهندي فلم يجدوه في مصر فقال: للنقيب مخيمر: يا مخيمر ادخل هذه الخلوة، واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التي تجدها في داخل الخلوة، فدخل فوجد شجرة جوز، فقطع لها منها خمس جوزات، ثم دخل بعد ذلك فلم يجد شجرة! ومر عليه شيخ الإسلام ابن حجر ﷺ بمصر يوما فقال في سره: ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذه لعلَّمه، على وجه الإنكار عليه، فقال له: قف يا قاضي، فوقف، فمسكه، وصار يضربه، ويصفعه على وجهه، ويقول: بل اتخذني، وعلَّمني! ودخل عليه بعض الرهبان فاشتهى بطيخا أصفر في غير أوانه فأتاه به، وقال: وعزة ربي لم أجده إلا خلف جبل قاف، وخطف التمساح بنت مخيمر النقيب، فجاء وهو يبكي إلى الشيخ، فقال له: اذهب إلى الموضع الذي خطفها منه، وناد بأعلى صوتك: يا تمساح تعال كلم الفرغل، فخرج التمساح من البحر، وطلع كالمركب، وهو ماش، والخلق بين يديه جارية يمينا وشمالا إلى أن وقف على باب الدار، فأمر الشيخ ﷺ الحداد بقلع جميع أسنانه، وأمره بلفظها من بطنه، فلفظ البنت حية مدهوشة! وأخذ على التمساح العهد أن لا يعود يخطف أحدا من بلده ما دام يعيش، ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر، وكان ﷺ يقول: كثيرا كنت أمشي بين يدي الله تعالى تحت العرش، وقال لي: كذا، وقلت له: كذا! فكذَّبه شخص من القضاة، فدعا عليه بالخرس فخرس حتى مات!

وكان آخر عمره مقعدا، ويتكلم على أخبار سائر الأقاليم من أطراف الأرض!)[(١)].

٣) قال الشعراني في ترجمة ولي من أولياء الصوفية يسمى وحيشا: (كان ﷺ من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر، والمحلة، وغيرهما من البلاد، وله كرامات، وخوارق، واجتمعت به... وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي ﷺ قال: كان الشيخ وحيش ﷺ يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخَطا، وكان كل من خرج يقول له: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم، واليومين، ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وقال يومًا لبنات الخطا: اخرجوا فإن الخان رائح يطبق عليكم، فما سمع منهن إلا واحدة فخرجت، ووقع على الباقي فمتن كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره يُنزله من على الحِمارة، ويقول له: أمسك رأسها لي حتى أفعل فيها! فإن أبى شيخ البلد تسمَّر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمح حصل له خجل عظيم، والناس يمرون عليه، وكان له أحوال غريبة، وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عنان ﷺ فقال: هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال، وليس لها حقيقة)[(٢)].

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٩٢).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٩). وما أكثر الخرافات في هذا الكتاب! وقد مدح مؤلفه أبا الحسن الأشعري في آخر كتابه فقال: (كان أبو الحسن الأشعري إماما زاهدا ورعا عالما مواظبا على السنة، مقدما على أقرانه من المتكلمين رضي الله عنه، ومكث عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء) =

يعجب الإنسان من كتابة بعض الناس مثل هذه الخرافات؟! وأعجب منه من ينقلها على أنها من العلم ويُصدِّق بها! وأعجب منه من يُنكِر على من لا يُصدِّق بها! اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع!

د- تكفير بعض الأشاعرة لأهل السنة وللمخالفين للمذهب الأشعري.

قال الجرجاني: (اعلم أن عدم تكفير أهل القبلة موافق لكلام الشيخ الأشعري والفقهاء، لكنا إذا فتشنا عقائد الإسلاميين وجدنا فيها ما يوجب الكفر قطعًا)(١).

= الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٤).

(١) المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٣/ ٥٧٢).

تنبيه: يذكر بعض طلاب العلم عن أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله أنه قال في كتابه الإشارة إلى مذهب أهل الحق (ص: ٤٠٢): (من اعتقد غير ما أشرنا إليه من اعتقاد أهل الحق، المنتمين إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه فهو كافر)، وللإنصاف أن هذا النص مبتور، ولا يصح نقله عن أبي إسحاق الشيرازي هكذا من غير إكمال عبارته، فهذا خطأ عليه، فكلامه كاملا كما يلي: (فمن اعتقد غير ما أشرنا إليه من اعتقاد أهل الحق، المنتمين إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه فهو كافر بتكفيره لهم، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما كفر رجل رجلا إلا باء به أحدهما إن كان كافرا إنه لكما قال، كان مسلما لقد كفر بتكفيره إياه)، فمن كان هذا اعتقاده ودينه، فكيف يستحل المسلم أن يغتابه، فضلا أن يكفره ويلعنه ... ينبغي للعاقل المكلف إذا سمع عن هذه الطائفة- أعني الأشعرية- ما ينفر قلبه عنهم، أن لا يبادر بالتصديق لذلك، فليس تصديق من يصدقه أولى من تصديقهم في إنكارهم فيما ينسب إليهم من خلق القرآن وغيره، ولأن المسلم لا يجوز له أن يكفر المسلم بالتقليد من غير نص في حاله، ولا تثبت في أمره، ... فمن كان مقصوده معرفة ما أهل الحق =

بل ذهب بعض الأشاعرة إلى عدم صحة إيمان العامي المقلد!

قال الدسوقي: (قد أنكر القول بعدم إيمان المقلد بعضهم، وهذا خلاف ما صححه في شرح الكبرى من كفره، وادعي الإجماع عليه، وقد علمت ما هو المعتمد من تلك الأقوال. واعلم أن الخلاف في المقلد في كفره وعدم كفره إنما هو بالنسبة لنجاته وعدمها في الآخرة؛ لأنه في الدنيا لا قائل بأنه يعامل معاملة الكافر، بل يعامل معاملة المسلمين فيها اتفاقا، قال الشاوي: وهذا الخلاف الذي في المقلد بعكس الخلاف الذي في المعتزلة في أنهم كفار أو مؤمنون عصاة، فإنه بالنظر لحال الدنيا أي: هل تجري عليهم أحكام الكفار في الدنيا أم لا؟ وأما في الآخرة فلا خلاف أنهم يخلدون في النار، وتأمله)[(١)].

وقال أيضا: (والحاصل أن من اخترمته المنية قبل أن ينظر أو عجز عن النظر لبلادة فهو مؤمن، وإن تمكن من النظر بأن وسع الزمن النظر ولم ينظر ولم يخترم فهو مؤمن عاص عند الأستاذ، وكافر عند ابن العربي)[(٢)].

= عليه، والرجوع عن تكفيرهم ولعنهم، فليدبر ما أشرت إليه يصل إلى مقصوده) الإشارة إلى مذهب أهل الحق (ص: ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥).

(١) حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٥٦). ويُنظر أيضا: حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٢١٨).

(٢) حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٦٢). ويُنظر في الرد على من لا يقول بصحة إيمان المقلد: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي (ص: ٧٠ - ٧٥)، صيانة صحيح مسلم لابن الصلاح (ص: ١٤٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٧١)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٦٧ - ٢٧٠)، =

وقد شنَّع العلماء على توسع الأشاعرة في تكفير المسلمين، فقال الهروي فيما نقله عنه ابن تيمية: (وأبطلوا التقليد، فكفَّروا آباءهم وأمهاتهم وأزواجهم وعوام المسلمين، وأوجبوا النظر في الكلام،... فكفَّروا السلف!)[(١)].

وقال أبو العباس القرطبي: (لو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقا بالذم، وجديرا بالترك: إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالى! والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر! فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه)[(٢)].

وإن من أغرب ما في المذهب الأشعري إنكار كون الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها! فينكرون مثلا أن الأكل مشبِع، وأن الماء مروٍ، وأن النار محرقةٌ بطبعها الذي خلقه الله عليها، فخالفوا العقلاء في تأثير الأسباب[(٣)]، ولم يكتفوا بإنكار أثرها، بل كفَّر بعض الأشاعرة من خالفهم في هذه المسألة!

= الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٤٠٩).

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٤١٤).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦٩٣).

(٣) قال ابن تيمية: (جمهور أهل السنة يقولون: إن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية، ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية، بل يقررون بها دل عليه الشرع والعقل من أن الله ينبت النبات بالماء، ولا يقولون: إن القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها، بل =

قال السنوسي الأشعري: (قال ابن دهاق في شرح الإرشاد حين تعرض لأصناف الشرك:... الثاني: ما أضيف من أفعال بعض إلى بعض، من أن النار تحرق، والطعام يشبع، والثوب يستر، إلى غير ذلك من ربط المعتادات حتى ظنوها واجبة، وتلك ضلالة تبع الفيلسوفي فيها كثير من عامة المسلمين. قلت: بل وكثير من المتفقهين المشتغلين بما لا يعنيهم من العلوم، وعن مراشدهم عمين، قال: وهم فيها على اعتقادات، فمن قال بطبعها تفعل فلا خلاف في كفره، ومن قال: بقوة جعلها الله فيها كان مبتدعا، وقد اختلف الناس في كفره. قلت: وهذا القسم هو اعتقاد أكثر عامة المتفقهة في زماننا، ومن في معناهم من جهلة المقلدين قال: ومن قال: إن الأكل دليل عقلي على الشبع دون أن يكون معتادا كان جاهلا بمعنى الدلالة العقلية، ومن علم أن الله ﷻ ربط بعض أفعاله ببعض، وكلما فعل هذا فعل هذا باختياره، وإذا شاء خرق هذه العادة فعل، فهذا هو المؤمن الذي سلم من هذه الآفة بفضل ﷻ)[(١)].

= يقرون أن لها تأثيرا لفظا ومعنى، يقولون: هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خالق السبب والمسبب، ومع أنه خالق السبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه، ولا بد له من معارض يمانعه، فلا يتم أثره مع خلق الله له إلا بأن يخلق الله السبب الآخر، ويزيل الموانع) يُنظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ١٢، ١٣) باختصار وتصرف.

(١) حواش على شرح الكبرى للسنوسي (ص: ١٨٣، ١٨٤). ويُنظر: حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٤٠).

هـ - ارتباط المذهبين الفقهيين الشافعي والمالكي بالمذهب الأشعري.

كان قدماء فقهاء الشافعية والمالكية على مذهب أهل السنة، ولما ظهر المذهب الأشعري صرح بعض قدماء الشافعية والمالكية بالتحذير منه.

قال محمد بن خواز منداد المصري المالكي رحمه الله (ت ٣٩٠هـ) تقريبا: (أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريا كان أو غير أشعري، ولا تُقبل له شهادة في الإسلام، ويُهجَر ويُؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها)(١).

وقد نقل هذا أبو عمر ابن عبد البر المالكي (ت ٤٦٣هـ) ثم قال مؤيدا لكلام ابن خواز منداد: (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صح عن رسول ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له، ولا يناظر فيه)(٢).

وقال القاضي ابن سُريج (ت ٣٠٦هـ) رحمه الله إمام الشافعية في زمن الأشعري: (نفسر ما فسره النبي ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة، ونجمع على ما أجمعوا عليه، ونمسك عن ما

(١) يُنظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٩٤٢). وقد طعن في ابن خواز منداد بعض المالكية المتأثرين بالأشاعرة كأبي الوليد الباجي والقاضي عياض، يُنظر: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية لقاسم بن سعد (٢/ ١٠٠٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٢).

أمسكوا عنه، ونسلم الخبر الظاهر والآية الظاهر تنزيلها، لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والكيفية، بل نقبلها بلا تأويل، ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول: الإيمان بها واجب، والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة. آخر كلام أبي العباس بن سريج الذي حكاه أبو القاسم سعيد بن علي الزنجاني في أجوبته، ثم ذكر باقي المسائل وأجوبتها)[1].

وممن كان يتبرأ من الأشعرية أبو حامد الإسفراييني (ت ٤٠٦هـ) ﷺ إمام الشافعية في زمانه، نقل ابن تيمية عن أبي الحسن الكرجي الشافعي قوله: (وكان الشيخ أبو حامد الإسفراييني شديد الإنكار على الباقلاني وأصحاب الكلام، قال: ولم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن يُنسَبوا إلى الأشعري، ويتبرؤون مما بنى الأشعري مذهبه عليه، وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه، على ما سمعت عدة من المشايخ والأئمة - منهم الحافظ المؤتمن بن أحمد بن علي الساجي - يقولون: سمعنا جماعة من المشايخ الثقات، قالوا: كان الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفراييني إمام الأئمة، الذي طبق الأرض علما وأصحابا إذا سعى إلى الجمعة من قطعية الكرج إلى جامع المنصور، يدخل الرباط المعروف بالزوزي المحاذي للجامع، ويقبل على من

(١) جزء فيه أجوبة في أصول الدين لأبي العباس بن سريج (ص٨٦-٨٧)، ونقله ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٧٣، ١٧٤).

حضر، ويقول: اشهدوا علي بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، كما قاله الإمام ابن حنبل، لا كما يقوله الباقلاني، وتكرر ذلك منه جمعات، فقيل له في ذلك، فقال: حتى ينتشر في الناس وفي أهل الصلاح، ويشيع الخبر في أهل البلاد: أني بريء مما هم عليه - يعني الأشعرية - وبريء من مذهب أبي بكر بن الباقلاني، فإن جماعة من المتفقهة الغرباء يدخلون على الباقلاني خفية، ويقرؤون عليه، فيُفتنون بمذهبه، فإذا رجعوا إلى بلادهم أظهروا بدعتهم لا محالة، فيظن ظان أنهم مني تعلموه قبل، وأنا ما قلته، وأنا بريء من مذهب الباقلاني وعقيدته. قال الشيخ أبو الحسن الكرجي: وسمعت شيخي الإمام أبا منصور الفقيه الأصبهاني يقول: سمعت شيخنا الإمام أبا بكر الزاذقاني يقول: كنت في درس الشيخ أبي حامد الإسفرايني، وكان ينهي أصحابه عن الكلام، وعن الدخول على الباقلاني، فبلغه أن نفرا من أصحابه يدخلون عليه خفية لقراءة الكلام، فظن أني معهم ومنهم، وذكر قصة قال في آخرها: إن الشيخ أبا حامد قال لي: يا بني، قد بلغني أنك تدخل على هذا الرجل - يعني الباقلاني - فإياك وإياه، فإنه مبتدع يدعو الناس إلى الضلالة، وإلا فلا تحضر مجلسي، فقلت: أنا عائذ بالله مما قيل، وتائب إليه، واشهدوا علي أني لا أدخل إليه. قال الشيخ أبو الحسن: وسمعت الفقيه الإمام أبا منصور سعد بن علي العجلي يقول: سمعت عدة من المشايخ والأئمة ببغداد - أظن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي أحدهم - قالوا: كان أبو بكر الباقلاني يخرج إلى الحمام متبرقعا، خوفا من الشيخ أبي حامد الإسفرايني. قال أبو الحسن: ومعروف شدة الشيخ أبي حامد على أهل الكلام، حتى ميز أصول

فقه الشافعي من أصول الأشعري، وعلقه عنه أبو بكر الزاذقاني، وهو عندي، وبه اقتدى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتابيه اللمع والتبصرة، حتى لو وافق قول الأشعري وجها لأصحابنا ميزة، وقال: هو قول بعض أصحابنا، وبه قالت الأشعرية[(١)]، ولم يعدهم من أصحاب الشافعي، استنكفوا منهم ومن مذهبهم في أصول الفقه، فضلا عن أصول الدين). قلت: هذا المنقول عن الشيخ أبي حامد وأمثاله من أئمة أصحاب الشافعي، أصحاب الوجوه، معروف في كتبهم المصنفة في أصول الفقه وغيرها. وقد ذكر ذلك الشيخ أبو حامد والقاضي أبو الطيب وأبو إسحاق الشيرازي وغير واحد، بينوا مخالفة الشافعي وغيره من الأئمة لقول ابن كلاب والأشعري في مسألة الكلام التي امتاز بها عن ابن كلاب والأشعري عن غيرهما)[(٢)].

وقال يحيى بن أبي الخير العِمراني رحمه الله (ت ٥٥٨هـ) شيخ الشافعية في بلاد اليمن: (أدخلت المعتزلة والقدرية على الإسلام وأهله شبها في الدين ليموهوا بها على العوام، ومن لا خبرة له بأصولهم التي بنوا عليها أقوالهم، فاتبعوا متشابه القرآن، وأولوا القرآن على خلاف ما نقل عن الصحابة والتابعين المشهورين

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: التبصرة في أصول الفقه (ص: ٢٢، ٢٧، ٦٧، ٩٩)، اللمع في أصول الفقه (ص: ١٠، ١٣، ٢٤، ٧١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٩٦ - ٩٨).

بالتفسير، لينفقوا بذلك أقوالهم، فهم أشد الفرق ضررا على أصحاب الحديث، ثم بعدهم الأشعرية؛ لأنهم أظهروا الرد على المعتزلة وهم قائلون بقولهم)[١].

وقال أيضا: (والأشعرية موافقة للمعتزلة في أن هذا القرآن المتلو المسموع مخلوق)[٢].

وقال مبينا موافقة الكلابية والأشاعرة للمعتزلة: (فوافقوهم أن هذا القرآن المتلو مخلوق كما قالوا، وادعوا أن هاهنا قرآنا قديما يوصف بأنه كلام الله ينتفي عنه ضده، وهو المعنى القائم بنفسه، فهم قائلون بخلق القرآن الذي لا يعرف المعتزلة ولا غيرهم من المسلمين قرآنا غيره. وادعت الأشعرية قرآنا وكلاما لله لا يعقل، ولم يسبقهم إلى هذا القول أحد من أهل الملل والنحل، فردهم على المعتزلة بخلق القرآن تمويه وتستر بقول أصحاب الحديث، وهو مذهب مسقف باطنه الاعتزال وظاهره التستر،... والأشعرية قدموا رجلا إلى الاعتزال ووضعوها حيث وضعت المعتزلة أرجلهم، وأموا بالرجل الأخرى إلى حيث وضع أهل الحديث أرجلهم، وهذا مثال عقلي يفقهه من فهم قولهم)[٣].

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/ ٩٥، ٩٦).

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٥٤٤).

(٣) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٥٨٣، ٥٩٥).

وقال أيضا: (القرآن والسنة والإجماع دل كل واحد منهما أن القرآن هو هذه السور والآيات دون ما تدعي الأشعرية بعقولهم وتأويلهم الذي يؤدي إلى خلاف ذلك)[1].

وقال أيضا: (قالت المعتزلة: لا يجوز وصف الله بأنه يرى. وقالت الأشعرية: المؤمنون يرونه ولكن لا يرونه عن مقابلة... وأما الدليل على إبطال قول الأشعرية فهو: أن الشرع ورد بثبوت الرؤية لله تعالى بالأبصار، فحمل ذلك على الرؤية المعهودة، وهو ما كان عن مقابلة، بدليل قوله ﷺ: «كما ترون القمر ليلة البدر»، ولا يقتضي ذلك تحديدا ولا تجسيما لله، كما لا يقتضي العلم به تحديدا له، ولا تجسيما. وإن قالوا: إن الرؤية لا تختص بالأبصار، رجعوا إلى قول المعتزلة في نفي الرؤية، وأن المراد بالرؤية العلم به علما ضروريا، وقد حكي عن بعض متأخري الأشعرية أنه قال: لولا الحياء من مخالفة شيوخنا لقلت: إن الرؤية العلم لا غير. وهكذا قالوا في سماع موسى لكلام الله أنه لا يختص بالأذن، وإذا لم يختص بالأذن رجع إلى معنى العلم. وأقوال الأشعرية مثبتة على أصول المعتزلة لأن أبا الحسن كان معتزليا)[2].

وقال أيضا: (اختلف الناس في الإيمان الشرعي على ثلاثة مذاهب:

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٥٩٩).

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٦٣٧، ٦٤٧، ٦٤٨).

فذهب الأشعرية: إلى أن الإيمان الشرعي هو التصديق بالقلب لا غير. وذهب المرجئة: إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان بالشهادتين، وإن لم يعرف بقلبه من غير عمل. وقيل: إن المرجئة يقولون: الإيمان هو القول باللسان، والتصديق بالقلب من غير عمل، وقالت الجهمية: الإيمان التصديق بالقلب لا غير. وذهب أهل الحديث وجماهير العلماء إلى أن الإيمان: هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان بالشهادتين والأعمال بالجوارح)[(١)].

فهذا بعض كلام أئمة الشافعية والمالكية المتقدمين في ذم مذهب الأشاعرة، ثم لما انتشر المذهب الأشعري، ودعا إليه أعلام مشهورون من أئمة المذهب المالكي والشافعي صار أغلب فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين أشاعرة[(٢)]، وصاروا يعتقدون أن المذهب الأشعري هو مذهب أهل السنة.

قال أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) الفقيه الشافعي المشهور: (من كان في الفروع على مذهب الشافعي، وفي الأصول على اعتقاد الأشعري، فهو معلم الطريق، وهو على الحق المبين)[(٣)].

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/ ٧٣٦، ٧٣٧).

(٢) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٤٠، ٢٥٥)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/ ٣٦٥ - ٣٦٧، ٣٧٣ - ٣٧٧)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لابن مخلوف (١/ ١١٨، ١٣٨).

(٣) الإشارة إلى مذهب أهل الحق (ص: ٤٠٥). وقد اختلف الباحثون في عقيدة أبي إسحاق الشيرازي هل كان أشعريا أو لا؟ فهذا النقل من كتابه يدل على أنه أشعري، وتوجد عنه نقول أخرى تدل على أنه =

وقال القاضي عياض المالكي (ت ٥٤٤هـ) في ترجمة ابن الباقلاني: (أبو بكر بن محمد بن الطيب بن محمد القاضي، المعروف بابن الباقلاني، الملقب بشيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب المثبتة، وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري)[(١)].

ففُتِن كثير من العلماء وطلاب العلم بالمذهب الأشعري لفضل الإمام أبي الحسن الأشعري وأعلامه الذين طوروا المذهب الأشعري، وصاروا من الدعاة إليه أو من المتأثرين به، ولهم جهود عظيمة جدا في الرد على كثير من أهل البدع والأهواء، ولهم أثر كبير لا يُنكَر في مختلف العلوم النافعة من التفسير والحديث والقراءات والفقه وأصول الفقه والنحو وغير ذلك، فلم يميز كثير من الناس بين العلوم النافعة التي نقلها هؤلاء العلماء الأجلاء، وبين البدع التي وافقوا فيها أهل الكلام أو تأثروا فيها بالفلاسفة والمعتزلة، لا سيما وكثير من الناس لم يطلع على كتب العقائد التي ألفها علماء أهل السنة، وبينوا فيها عقيدة السلف أصحاب الحديث، العقيدة الصحيحة الموافقة لكتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وبعضهم له اطلاع عليها، لكن تقرر عنده أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم وأعلم، فعظمت الفتنة،

= ليس أشعريا، فالله أعلم. يُنظر: مقدمة محقق كتاب النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة للشيرازي (ص: ٣١ - ٣٣).

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/ ٤٤).

وانتشرت البدعة، ونسأل الله أن يغفر لنا ولجميع المسلمين، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم.

قال ابن تيمية عن أبي ذر الهروي (ت ٤٣٤هـ) الذي أدخل مذهب الأشعري إلى مكة، وهو أحد أشهر رواة صحيح البخاري: (أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به، وكان قد قدم إلى بغداد من هراة، فأخذ طريقة ابن الباقلاني وحملها إلى الحرم، وأهل المغرب كانوا يحجون، فيجتمعون به ويأخذون عنه الحديث وهذه الطريقة، ويدلهم على أصلها، فيرحل منهم من يرحل إلى المشرق، كما رحل أبو الوليد الباجي فأخذ طريقة أبي جعفر السمناني الحنفي صاحب القاضي أبي بكر، ورحل بعده القاضي أبو بكر بن العربي فأخذ طريقة أبي المعالي في الإرشاد، ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك: منهم من يعظمهم، لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم، لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها. وهذا ليس مخصوصا بهؤلاء، بل مثل

هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]. ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يُشنِّع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابا بعد اجتهاده، وهو من البدع المخالفة للسنة، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه، فقل من يَسلَم من مثل ذلك في المتأخرين، لكثرة الاشتباه والاضطراب، وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب؛ ولهذا تجد كثيرا من المتأخرين من علماء الطوائف يتناقضون في مثل هذه الأصول ولوازمها، فيقولون القول الموافق للسنة، وينفون ما هو من لوازمه، غير ظانين أنه من لوازمه، ويقولون ما ينافيه، غير ظانين أنه ينافيه، ويقولون بملزومات القول المنافي ما أثبتوه من السنة،... وكثير ممن تكلم بالألفاظ المجملة المبتدعة كلفظ الجسم والجوهر والعرض وحلول الحوادث ونحو ذلك، كانوا يظنون أنهم ينصرون الإسلام بهذه الطريقة، وأنهم بذلك يثبتون معرفة الله وتصديق رسوله، فوقع منهم من الخطأ والضلال ما أوجب ذلك، وهذه حال أهل البدع كالخوارج وأمثالهم، فإن البدعة لا تكون حقا محضا موافقا للسنة،

إذا لو كانت كذلك لم تكن باطلا، ولا تكون باطلا محضا لا حق فيها، إذ لو كانت كذلك لم تخف على الناس، ولكن تشتمل على حق وباطل، فيكون صاحبها قد لبس الحق بالباطل: إما مخطئا غالطا، وإما متعمدا لنفاق فيه وإلحاد)[(١)].

ثم في عصرنا الحاضر اهتم كثير من طلاب العلم بالحديث النبوي والعقيدة الصحيحة التي كان عليها السلف الصالح، وتمسك بها - بتوفيق الله وفضله - كثير من العلماء وطلاب العلم حتى من المنتسبين إلى المذهب الشافعي والمالكي والحنفي، وهي العقيدة الموافقة للفطرة، الخالية من تكلفات أهل البدع، قال ابن الوزير اليماني: (المسلم بالفطرة ينكر هذه البدع، وبالرسوخ في علم الحديث يعلم بالضرورة حدوثها، وأن عصر النبوة والصحابة بريء منها، مثل ما يعلم أن المعتزلة أبرياء من مذهب الأشعرية، وأن الأشعرية أبرياء من مذهب المعتزلة)[(٢)].

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٠١ - ١٠٤).

(٢) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق (ص: ١٣٠).

المبحث الرابع:

تراجم أشهر أعلام الأشاعرة الذين طوروا المذهب الأشعري

تقدم أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله كان معتزليا ثم رجع عن عقيدة المعتزلة، ورد عليهم، واتبع طريقة ابن كُلَّاب الذي كان من أهل السنة من حيث الجملة، وإن كان متأثرا بأهل الكلام في بعض المسائل، وقد انتسب أبو الحسن إلى السلف، وصرح باقتدائه بأحمد بن حنبل في كتابه (الإبانة عن أصول الديانة)، إلا أنه كان خبيرا بمذاهب المعتزلة والجهمية أكثر من خبرته بمذهب أئمة السلف، فبقيت عنده بقايا من مذهب المعتزلة والجهمية، وهو أقرب إلى مذهب السلف ممن جاء بعده من أتباعه، فقد تطور مذهب الأشاعرة بواسطة أعلامه إلى ما يخالف مذهب أبي الحسن الأشعري، مع انتسابهم إليه، فاقترب كثير من أعلام الأشاعرة بعد أبي الحسن على درجات متفاوتة من مذهب الجهمية والمعتزلة والفلاسفة[(١)].

(١) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/ ١٣٨٥).

قال ابن تيمية: (ابن كُلاب قوله مشوب بقول الجهمية، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية، وكذلك مذهب الأشعري في الصفات، وأما في القدر والإيمان فقوله قول جهم، وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث وقال: وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، فهو أقرب ما ذكره، وبعضه ذكره عنهم على وجهه، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر؛ إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول، وهو يحب الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم، فأراد أن يجمع بين ما رآه من رأي أولئك، وبين ما نقله عن هؤلاء. ولهذا يقول فيه طائفة: إنه خرج من التصريح إلى التمويه، كما يقوله طائفة: إنهم الجهمية الإناث، وأولئك الجهمية الذكور... والطائفتان أهل السنة والجهمية يقولون: إنه تناقض، لكن السني يحمد موافقته لأهل الحديث، ويذم موافقته للجهمية، والجهمي يذم موافقته لأهل الحديث، ويحمد موافقته للجهمية، ولهذا كان متأخرو أصحابه كأبي المعالي ونحوه أظهر تجهما وتعطيلا من متقدميهم، وهي مواضع دقيقة يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده، لكن الصواب ما أخبر به الرسول، فلا يكون الحق في خلاف ذلك قط، والله أعلم)[(١)].

وقال ابن تيمية: (الأشعري ما كان ينتسب إلا إلى مذهب أهل الحديث وإمامهم أحمد بن حنبل، وقد ذكر أبو بكر عبد العزيز ما يقتضي أنه عنده من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠٨، ٣٠٩).

متكلمي أهل الحديث، لم يجعله مباينا لهم، وكانوا قديما متقاربين إلا أن فيهم من ينكر عليه ما قد ينكرونه على من خرج منهم إلى شيء من الكلام، لما في ذلك من البدعة، مع أنه في أصل مقالته ليس على السنة المحضة، بل هو مقصر عنها تقصيرا معروفًا)[1].

وقال ابن تيمية أيضا: (الأشعري وأمثاله برزخ بين السلف والجهمية، أخذوا من هؤلاء كلاما صحيحا، ومن هؤلاء أصولا عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فمن الناس من مال إليه من الجهة السلفية، ومن الناس من مال إليه من الجهة البدعية الجهمية كأبي المعالي وأتباعه، ومنهم من سلك مسلكهم كأئمة أصحابهم)[2].

وقال ابن تيمية أيضا عن أبي الحسن الأشعري ومتقدمي أصحابه: (من الناس من له خبرة بالعقليات المأخوذة عن الجهمية وغيرهم، وقد شاركهم في بعض أصولها، ورأى ما في قولهم من مخالفة الأمور المشهورة عند أهل السنة، كمسألة القرآن والرؤية، فأراد هؤلاء أن يجمعوا بين نصر ما اشتهر عند أهل السنة والحديث، وبين موافقة الجهمية في تلك الأصول العقلية التي ظنها صحيحة، ولم يكن لهم من الخبرة المفصلة بالقرآن ومعانيه، والحديث وأقوال الصحابة، ما لأئمة السنة والحديث، فذهب مذهبا مركبا من هذا وهذا، وكلا

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣) باختصار يسير.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٧١).

الطائفتين ينسبه إلى التناقض، وهذه طريقة الأشعري وأئمة أتباعه، كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأمثالهما، ولهذا تجد أفضل هؤلاء كالأشعري يذكر مذهب أهل السنة والحديث على وجه الإجمال، ويحكيه بحسب ما يظنه لازما، ويقول: إنه يقول بكل ما قالوه، وإذا ذكر مقالات أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم حكاها حكاية خبير بها، عالم بتفصيلها، وهؤلاء كلامهم نافع في معرفة تناقض المعتزلة وغيرهم، ومعرفة فساد أقوالهم، وأما في معرفة ما جاء به الرسول، وما كان عليه الصحابة والتابعون، فمعرفتهم بذلك قاصرة)[(١)].

وقال ابن تيمية: (كثير من متأخري أصحاب الأشعري خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة)[(٢)].

وقد ذكر ابن تيمية قول العز ابن عبد السلام: (العلماء أنصار فروع الدين، والأشعرية أنصار أصول الدين)، ثم قال ابن تيمية: (ما نصروه من أصول الدين هو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث؛ ولهذا كان الشيخ أبو إسحاق يقول: إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنابلة، وهذا ظاهر عليه وعلى أئمة أصحابه في كتبهم ومصنفاتهم قبل وقوع الفتنة القشيرية ببغداد؛ ولهذا قال أبو القاسم بن عساكر في مناقبه: ما زالت الحنابلة والأشاعرة في قديم الدهر متفقين غير مفترقين حتى

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٥، ٣٦) باختصار يسير.

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٧).

حدثت فتنة ابن القشيري، ثم بعد حدوث الفتنة وقبلها لا تجد من يمدح الأشعري بمدحة إلا إذا وافق السنة والحديث، ولا يذمه من يذمه إلا بمخالفة السنة والحديث، وهذا إجماع من جميع هذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث، واتفاق شهاداتهم على أن الحق في ذلك؛ ولهذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم ممن هو دونه، فالأشعري نفسه لما كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة كان عندهم أعظم من أتباعه، والقاضي أبو بكر بن الباقلاني لما كان أقربهم إلى ذلك كان أعظم عندهم من غيره، وأما مثل الأستاذ أبي المعالي وأبي حامد ونحوهما ممن خالفوا أصوله في مواضع فلا تجدهم يُعظِّمون إلا بما وافقوا فيه السنة والحديث، وأكثر ذلك تقلدوه من مذهب الشافعي في الفقه الموافق للسنة والحديث، ومما ذكروه في الأصول مما يوافق السنة والحديث، وما ردوه مما يخالف السنة والحديث، وبهذا القدر ينتحلون السنة ويُنحلونها وإلا لم يصح ذلك)(١).

وقد تقدمت بعض النقول من الكتب المعتمدة عند الأشاعرة المتأخرين، وفيها بيان خوض الأشاعرة في علم الكلام المذموم، ومن أشهر الأمثلة التي تبين قرب متأخري الأشاعرة من الجهمية نفيهم الصفات الإلهية الخبرية كالاستواء، فقد خالفوا مذهب شيخهم أبي الحسن الأشعري رحمه الله الذي أثبت صفة الاستواء وغيرها من الصفات الخبرية في كتابه (الإبانة) و(رسالة إلى أهل

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٦ - ١٨) بتصرف.

الثغر)، ومع ذلك خالفه المنتسبون إليه، فأولوا هذه الصفات بما لا يثبت عن شيخهم أبي الحسن، ولا عن أحد من السلف الصالح.

قال ابن تيمية في رده على الرازي الذي نصر قول الجهمية بنفي صفة الاستواء لله على عرشه: (إذا كان قول ابن كُلَّاب والأشعري وأئمة أصحابه، وهو الذي ذكروا أنه اتفق عليه سلف الأمة وأهل السنة، أن الله فوق العرش، وأن له وجها ويدين، وتقرير ما ورد من النصوص الدالة على أنه فوق العرش، وأن تأويل استوى بمعنى استولى هو تأويل المبطلين؛ علم أن هذا الرازي ونحوه هم المخالفون لأئمتهم في ذلك، وأن الذي نصره ليس هو قول ابن كُلَّاب والأشعري وأئمة أصحابه، وإنما هو صريح قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم، وإن كان قد قاله بعض متأخري الأشعرية كأبي المعالي ونحوه)[(١)].

والناظر في كتب الأشاعرة بعلم وإنصاف يجد تأثر الأشاعرة بالجهمية واضحا، ويجد مخالفة متأخري الأشاعرة لقول أئمتهم المتقدمين كأبي الحسن الأشعري، وتأمل هذا النقل عن أبي المعالي الجويني في تأويله صفة الاستواء لله سبحانه، قال الجويني: (لم يمتنع منا حمل الاستواء على القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة، إذ العرب تقول: استوى فلان على الممالك إذا احتوى على

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٣٨٢، ٣٨٣) باختصار يسير.

مقاليد الملك، واستعلى على الرقاب، وفائدة تخصيص العرش بالذكر أنه أعظم المخلوقات في ظن البرية، فنص تعالى عليه تنبيها بذكره على ما دونه)[(١)].

وقال أبو المعالي: (ذهب بعض أئمتنا إلى أن اليدين والعينين والوجه صفات ثابتة للرب تعالى، والسبيل إلى إثباتها السمع دون قضية العقل، والذي يصح عندنا حمل اليدين على القدرة، وحمل العينين على البصر، وحمل الوجه على الوجود)[(٢)].

فهذا الذي صححه الجويني موافق لقول الجهمية، وهو الذي اعتمده الأشاعرة المتأخرون، مع مخالفته الصريحة لأئمتهم المتقدمين الذين يعظمونهم، فتأمل هذه النقول عن أبي الحسن الأشعري والباقلاني في إثبات الصفات وعدم تأويلها:

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤] يدل على أنه تعالى في السماء مستو على عرشه، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض، فدل على أنه تعالى منفرد بوحدانيته، مستو على عرشه استواء منزها عن الحلول والاتحاد)[(٣)].

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص: ٦٠، ٦١).

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص: ١٧٥).

(٣) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١١٣) باختصار.

وقال أبو الحسن أيضا: (أخبر تعالى أن له وجها وعينا ولا تكيف ولا تحد... ونفى الجهمية أن يكون لله تعالى وجه كما قال، وأبطلوا أن يكون له سمع وبصر وعين... فمن سألَنا فقال: أتقولون إن لله سبحانه وجها؟ قيل له: نقول ذلك، خلافا لما قاله المبتدعون... قد سُئِلنا أتقولون: إن لله يدين؟ قيل: نقول ذلك بلا كيف، فثبتت اليد بلا كيف،... وليس يجوز في لسان العرب، ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة، وإذا كان الله ﷻ إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوما في كلامها، ومعقولا في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني النعمة؛ بطل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] النعمة)(١).

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر مبينا ما أجمع عليه السلف: (وأجمعوا على أنه ﷻ يسمع ويرى، وأن له تعالى يدين مبسوطتين، وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه من غير أن يكون جوارحا، وأن يديه تعالى غير نعمته)(٢).

وقال الباقلاني رحمه الله: (باب في أن لله وجها ويدين، فإن قال قائل: فما الحجة في أن لله ﷻ وجها ويدين؟ قيل له: قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فأثبت لنفسه

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٢١ - ١٢٧).

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص: ١٢٧).

وجها ويدين، فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون المعنى في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أنه خلقه بقدرته أو بنعمته؛ لأن اليد في اللغة قد تكون بمعنى النعمة، وبمعنى القدرة، كما يقال: لي عند فلان يد بيضاء يراد به نعمة؟ يقال لهم: هذا باطل؛ لأن قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ يقتضي إثبات يدين هما صفة له، فلو كان المراد بهما القدرة لوجب أن يكون له قدرتان، وأنتم فلا تزعمون أن للباري سبحانه قدرة واحدا، فكيف يجوز أن تثبتوا له قدرتين؟ وقد أجمع المسلمون من مثبتي الصفات والنافين لها على أنه لا يجوز أن يكون له تعالى قدرتان، فبطل ما قلتم، وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين؛ لأن نعم الله تعالى على آدم وعلى غيره لا تحصى... صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفا بها، وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان، والغضب والرضى وهما الإرادة)[١].

ويدَّعي بعض الأشاعرة أن أبا الحسن الأشعري والباقلاني ونحوهما من المتقدمين يريدون بكلامهم تفويض المعنى، ولا يريدون إثبات الصفات، وليس الأمر كما زعموا، فتأمل ما تقدم قريبا من قول أبي الحسن: (وإذا كان الله ﷻ إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوما في كلامها، ومعقولا في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني النعمة؛ بطل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة)، وتأمل كيف

(١) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (ص: ٢٩٥ - ٢٩٩) باختصار.

ذكر الباقلاني في كلامه الأخير الصفات الذاتية من غير تأويل لمعناها، وإنما أول صفة الغضب والرضا، وهو وإن خالف في تأويلهما السلف الصالح الذين لا يؤلونهما فقد أثبت غالب الصفات كما يثبتها السلف الصالح، ولم يفوض معناها ولم يؤولها، ثم لو سلمنا أن أبا الحسن والباقلاني يريدان التفويض، فقد تركا تأويل غالب الصفات، وردا على من يؤولها، فلماذا لا يقتدي متأخرو الأشاعرة بهما في ترك التأويل؟ ولماذا قال متأخرو الأشاعرة بنفس تأويل الجهمية الذي رده أبو الحسن الأشعري والباقلاني؟! فهذا يدل بوضوح على تأثر الأشاعرة بالجهمية.

وقد صرح كثير من متأخري الأشاعرة أن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم وأعلم، وقد شنع عليهم في هذا القول كثير من العلماء، قال الملا علي القاري: (كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها، واضطربوا في بيان خطئها وصوابها، فالعلم نقطة كثَّرها الجاهلون، ولذلك صار كلام الخلف كثيرا قليل البركة، بخلاف كلام السلف فإنه قليل كثير البركة والمنفعة، فالفضل للمتقدمين لا ما يقوله جهلة المتكلمين: إن طريقة المتقدمين أسلم، وطريقتنا أحكم وأعلم)[(١)].

وقد وصل الحال بالأشاعرة المتأخرين إلى موافقة الجهمية في إنكارهم أن الله سبحانه مستو على عرشه كما أخبر في كتابه، وخالفوا أبا الحسن الذين

---

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود (ص: ٢٨).

ينتسبون إليه، وقالوا قولهم العجيب الغريب الذي لا يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم: إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا فوق ولا تحت[1]!

وهذه تراجم أشهر أعلام الأشاعرة الذين طوروا المذهب الأشعري:

١- القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بابن الباقلاني، (ت ٤٠٣هـ)

قال الخطيب البغدادي: (محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني المتكلم على مذهب الأشعري من أهل البصرة، سكن بغداد، وسمع بها الحديث، وكان ثقة، فأما علم الكلام فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، وغيرهم. سمعت أبا الفرج محمد بن عمران الخلال يقول: كان وِرد القاضي أبي بكر محمد بن الطيب في كل ليلة عشرين ترويحة، ما تركها في حضر ولا سفر. قال: وكان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى وِرده وضع

(١) يُنظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٣٧)، أساس التقديس في علم الكلام للفخر الرازي (ص: ١٩)، المواقف للإيجي مع شرح الجرجاني (٣/ ٣١، ٣٢)، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين للحامدي (١/ ٨٢)، ويُنظر رسالة: نقض قول من تبع الفلاسفة في دعواهم أن الله لا داخل العالم ولا خارجه لمحمد بن عبد الرحمن الخميس.

الدواة بين يديه وكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه، فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه في ليلته، وأمره بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات فيه. قال أبو الفرج: وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: كل مصنِّف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه سوى القاضي أبي بكر، فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس! حدثنا علي بن محمد بن الحسن الحربي المالكي قال: كان القاضي أبو بكر الأشعري يهم بأن يختصر ما يصنفه، فلا يقدر على ذلك؛ لسعة علمه، وكثرة حفظه، قال: وما صنف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي أبي بكر، فإن جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه)[1].

وعده أبو الحسن محمد بن الفتح السلمي مجدد المائة الرابعة، ووافقه على ذلك ابن عساكر[2].

وقال ابن برهان النحوي: (من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمترسلين، ولا الأغاني أيضا! من طيب كلامه، وفصاحته، وحسن نظامه، وإشارته، له التصانيف

(١) تاريخ بغداد (٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٥٣، ٥٤).

الكثيرة، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة والخوارج والمرجئة والمشبهة والحشوية)[(١)].

وقال عنه الذهبي: (صاحب التصانيف في علم الكلام، سكن بغداد، وكان في فنه أوحد زمانه، وكان ثقة عارفا بعلم الكلام، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية، وذكره القاضي عياض في طبقات الفقهاء المالكية فقال: هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن الأشعري، وإليه انتهت رياسة المالكيين في وقته، وكان له بجامع المنصور حلقة عظيمة. قلت: وقد أخذ ابن الباقلاني علم النظر عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري)[(٢)].

وقال ابن خلدون: (كثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد وغيره، وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني، فتصدر للإمامة في طريقتهم، وهذبها، ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار،... وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها؛ لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول)[(٣)].

---

(١) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢١٩).

(٢) تاريخ الإسلام (٩/ ٦٣).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٨٩).

ويتبين من كتب الباقلاني رحمه الله أنه يثبت صفات لله تعالى، ولا يفرق بين الصفات العقلية والصفات الخبرية، وهو كأبي الحسن الأشعري لا يقتصر على إثبات الصفات السبع كما هو مشهور عند الأشاعرة المتأخرين، ومن ذلك إثباته صفة العلو والاستواء لله تعالى موافقة للأشعري، وتابع الأشعري في تأويل صفة الغضب والرضا بأن المقصود بهما: إرادة الثواب والعقاب، وخالف الأشعري فأثبت صفة البقاء لله سبحانه، وذهب الباقلاني إلى أن كلام الله معنى قائما بنفسه، وليس بحرف ولا صوت، وينفي الباقلاني تعليل أفعال الله كما هو قول الأشاعرة، ويرى إنكار السببية، فالإحراق عنده لا يكون بالنار، وإنما يقع عندها لا بها، وهذا مبدأ السببية الذي اشتهر إنكاره عند الأشاعرة، ويعتبر الباقلاني المؤسس الثاني للمذهب الأشعري، وقد أخذ الباقلاني علم الكلام عن أصحاب الأشعري، ومع كون تلامذة الأشعري ذوي تأثير واسع إلا أنه لم يبلغ أحد منهم ما وصل إليه الباقلاني من تجريده نفسه لنصرة مذهب أبي الحسن الأشعري، وقد تمثل ذلك بعدة طرق أهمها:

١- أن الباقلاني ربط اسمه بالأشعري، فصار علمًا عليه يذكر في نسبه فيقال: أبو بكر بن الطيب الباقلاني الأشعري، وهذا موجود في الكتب التي ترجمت له، وفي صور عناوين مخطوطات كتبه.

٢- مع انتساب الباقلاني إلى الأشعري كانت علاقته طيبة مع الحنابلة، تبعًا لأبي الحسن الأشعري الذي صرح في كتابه الإبانة برجوعه إلى قول الإمام أحمد بن حنبل، وقد كان الباقلاني يكتب أحيانًا في أجوبته: محمد بن الطيب

الحنبلي، كما كان يكتب: الأشعري؛ لأن الأشعري وأصحابه كانوا منتسبين إلى الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة، وقد استفاد الباقلاني من ذلك سمعة طيبة عند الحنابلة مع أنه أشعري جلد، كما أن بعض الحنابلة مالوا إلى بعض أقوال الأشاعرة بسبب علاقتهم بالباقلاني صاحب البلاغة والفصاحة والحجج المنطقية التي كان لها تأثير كبير عليهم.

٣- ناظر الباقلاني المبتدعة من المعتزلة وغيرهم مناظرة علنية أمام السلاطين، وألف لعضد الدولة كتاب (التمهيد)، وقد أرسل عضد الدولة الباقلاني إلى ملك الروم، وجرت له هناك مناظرات مشهورة مع النصارى.

٤- كان للباقلاني دور واضح في تطوير المذهب الأشعري(١).

وقد طور الباقلاني المذهب الأشعري من خلال:

١- وضع المقدمات العقلية لمباحث العقيدة وعلم الكلام، مثل مباحث الجوهر والعرض، وأقسام العلوم، والاستدلال، والكلام عن الموجودات وأنواعها.

٢- الميل في المناقشات إلى العقل، وضعف الاعتماد على النقل.

٣- الميل إلى بعض أقوال المعتزلة، خاصة في بعض الصفات، فقرَّب المذهب الأشعري من أهل الكلام، وقعَّد بعض القواعد الكلامية التي كانت سببا في

(١) يُنظر: تاريخ ابن خلدون (١/ ٥٨٩)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود (٢/ ٥٢٦ - ٥٥٣)، المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ٧٨ - ٨١).

تطور المذهب الأشعري إلى ما يقارب مذاهب الفلاسفة والجهمية في بعض المسائل العقدية(١).

٢- الأستاذ محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، (ت ٤٠٦هـ)

قال الذهبي: (أبو بكر الأصبهاني الفقيه المتكلم، سمع مسند الطيالسي من عبد الله بن جعفر الإصبهاني، واستدعي إلى نيسابور لحاجتهم إلى علمه، فاستوطنها، وتخرج به طائفة في الأصول والكلام، وله تصانيف جمة، وكان رجلا صالحا، روى عنه أبو بكر البيهقي، وأبو القاسم القشيري، وقال ابن خلكان: الأستاذ أبو بكر المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ، الأصبهاني، درس بالعراق مدة، ثم توجه إلى الري، فسعت به المبتدعة فراسله أهل نيسابور، فورد عليهم، وبنوا له بها مدرسة ودارا، وظهرت بركته على المتفقهة، وبلغت مصنفاته قريبا من مائة مصنف، وكان شديد الرد على الكرامية، ثم عاد إلى نيسابور، فسُمَّ في الطريق، فمات بقرب بست، قلت: أخذ طريقة الأشعري عن أبي الحسن الباهلي، وغيره، وكان مع دينه صاحب بدعة رحمه الله)(٢).

وقال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري فيما نقله عنه ابن عساكر: (محمد بن الحسن بن فورك الأديب المتكلم الأصولي الواعظ النحوي أبو بكر الأصبهاني، أقام أولا بالعراق إلى أن درس بها على مذهب الأشعري، ثم لما ورد الري

(١) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود (٢/ ٥٥٤).

(٢) تاريخ الإسلام (٩/ ١٠٩، ١١٠) باختصار وتصرف.

سعت به المبتدعة، وتقدمنا إلى الأمير ناصر الدولة والتمسنا منه المراسلة في توجيهه إلى نيسابور ففعل، وورد نيسابور فبنى له الدار والمدرسة، وأحيا الله تعالى به في بلدنا أنواعا من العلوم لما استوطنها، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة، وتخرجوا به، سمع عبد الله بن جعفر الأصبهاني، وكثر سماعه بالبصرة وبغداد، وحدث بنيسابور)[(١)].

وقال السبكي: (الأستاذ أبو بكر الأنصاري الأصبهاني، الإمام الجليل، والحبر الذي لا يجارى فقها وأصولا وكلاما ووعظا ونحوا، مع مهابة وجلالة وورع بالغ، رفض الدنيا وراء ظهره، وعامل الله في سره وجهره، وصمم على دينه... أقام أولا بالعراق إلى أن درس بها مذهب الأشعري على أبي الحسن الباهلي)، وقد أبطل السبكي ما ذكره ابن حزم من أن ابن فورك كان يقول: إن النبي محمدا كان في حياته نبيا، وأنه بعد موته ليس نبيا، وأن السلطان محمود بن سبكتكين أمر بقتله بالسم لذلك، وبين أن ابن فورك لا يقول ذلك، وبين خطأ ابن حزم في دعواه أن هذا قول الأشاعرة[(٢)].

وذكر ابن رجب في ترجمة علي بن الحسين العكبري أنه روى حكاية سمعها من الحافظ أبي مسعود أحمد بن محمد البجلي قال: (دخل ابن فورك على السلطان محمود، فتناظرا، قال ابن فورك لمحمود: لا يجوز أن تصف الله

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ٢٣٢) باختصار يسير.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٤/ ١٢٧ - ١٣٣).

بالفوقية؛ لأنه يلزمك أن تصفه بالتحتية؛ لأنه من جاز أن يكون له فوق جاز أن يكون له تحت، فقال محمود: ليس أنا وصفته بالفوقية فتلزمني أن أصفه بالتحتية، وإنما هو وصف نفسه بذلك، قال: فبُهت)(١).

وذكر ابن عساكر أن ابن فورك من أعلم الناس بأمر أبي الحسن الأشعري وأسماء كتبه(٢).

وابن فورك من المعاصرين للباقلاني، وكلاهما تتلمذ على يد أبي الحسن الباهلي صاحب أبي الحسن الأشعري، وكلاهما له أثر كبير في تطوير المذهب الأشعري، وقد تميز ابن فورك عن الباقلاني بما يلي:

١) تأويل صفة الاستواء والعلو مجاراة للمعتزلة، خلافًا للباقلاني الذي تقدم في ترجمته أنه يثبتهما كأبي الحسن الأشعري(٣).

(١) يُنظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٢١، ٢٢).

(٢) يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ١٣٥، ١٤٧).

(٣) يُنظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ١٥٨ - ١٦٠، ٣٨٩). وقد نقل ابن تيمية عن ابن فورك فيما صنفه في أصول الدين قولا آخر يوافق أبا الحسن الأشعري وابن الباقلاني في إثبات صفة العلو، ثم قال ابن تيمية: (فيشبه والله أعلم أن يكون اجتهاده مختلفا في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره، فأبو المعالي كان يقول بالتأويل ثم حرمه، وحكى إجماع السلف على تحريمه، وابن عقيل له أقوال مختلفة، وكذلك لأبي حامد والرازي وغيرهم، ومما يبين اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال: فإن قال قائل: أين هو؟ قيل: ليس بذي كيفية فنخبر عنها) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٩، ٩٠).

٢) الاستدلال بالسنة في دقائق مسائل الأسماء والصفات، مع أنه يرى أن أخبار الآحاد لا تفيد اليقين والعلم، لكنه يرى جواز ذكرها لإفادتها غلبة الظن، فهي من باب الجائز الممكن[(١)].

والمطلع على كتاب ابن فورك في مشكل الحديث يلحظ أمرين عجيبين:

أحدهما: البحث عن أوجه التأويل لكل حديث من أحاديث الصفات، والتكلف في ذلك، وهو يعتقد أن هذه مهمة طائفة من أهل الحديث، فقد قسمهم إلى فرقتين: فرقة هم أهل الرواية، وفرقة يغلب عليهم تحقيق طرق النظر والمقاييس، والإبانة عن ترتيب الفروع على الأصول، وقد جعل ابن فورك مهمته في كتابه هدف الفرقة الثانية، فأوَّل من مشكل الحديث ما يرى أنه يوهم التشبيه[(٢)].

والأمر الآخر: خلطه فيما يورده بين الأحاديث الصحيحة، والضعيفة، والموضوعة[(٣)].

وقد طور ابن فورك المذهب الأشعري من خلال:

١ـ العناية بالحديث والاهتمام به، مع البقاء على منهج وطريقة أهل الكلام وتأويلاتهم، وبذلك خف الحاجز الذي كان يفصل بين أهل السنة من أهل

---

(١) يُنظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ٣٧، ٣٨).

(٣) يُنظر مثلا: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ١٧ – ١٩، ١٢٠).

الحديث الذين يثبتون ما دلت عليه النصوص، وأهل الكلام الذين كانوا بعيدين عن الاهتمام بعلم الحديث رواية ودراية[(١)].

٢ـ الغلو والتكلف في تأويل نصوص الصفات، وصار تأويلها هو الأصل، وإثباتها قليل[(٢)].

٣ـ تأويل صفة الاستواء والعلو، وهذا تطور خطير وكبير في المذهب الأشعري، وإن كان قد نُقِل عنه المنع من تأويلها[(٣)].

٣- أبو منصور البغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي، (ت ٤٢٩هـ)

قال الذهبي: (العلامة، البارع، المتفنن، الأستاذ، أبو منصور البغدادي، نزيل خراسان، وصاحب التصانيف البديعة، وأحد أعلام الشافعية، حدث عنه: أبو

(١) قال ابن فورك في أول كتابه مشكل الحديث: (... إملاء كتاب نذكر فيه ما اشتهر من الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يوهم ظاهره التشبيه) مشكل الحديث وبيانه (ص: ٣٧)، وقد ذكر ابن عساكر أن لابن فورك كتابا باسم (طبقات المتكلمين). يُنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: تفسير ابن فورك (٢/ ٣٣٤، ٣٣٦) و(٣/ ١٩٨)، ومن الصفات القليلة التي أثبتها ابن فورك صفة اليدين، قال ابن فورك: ({لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥] هما يدا صفة خلق بهما آدم عليه السلام، وفضله على إبليس، ولا يجوز أن يكون معناه تحقيق إضافة الخلق إليه؛ لأن ذلك يبطل موضع تفضيله على إبليس؛ لأنه خلق إبليس كما خلقه) تفسير ابن فورك (٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ١٥٨ - ١٦٠، ٣٨٩)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٩، ٩٠)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٥٥٥ - ٥٦٩).

بكر البيهقي، وأبو القاسم القشيري، وخلق، وكان أكبر تلامذة أبي إسحاق الإسفراييني، وكان يدرس في سبعة عشر فنا، ويُضرب به المثل)[(١)].

وقال الكتبي: (ولد ببغداد ونشأ بها، وسافر مع أبيه إلى خراسان، وسكنا بنيسابور إلى أن ماتا، تفقه أبو منصور على أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني، وقرأ عليه أصول الدين، وكان ماهرا في فنون عديدة، خصوصا في علم الحساب، وله فيه تواليف نافعة، وكان عارفا بالفرائض والنحو والشعر، وكان ذا مال وثروة، ولم يكتسب بعلمه مالا، وأربى على أقرانه في الفنون، وجلس بعد أستاذه أبي إسحاق للإملاء، واختلف إليه الأئمة فقرأوا عليه)[(٢)].

وقال السبكي: (عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي الإمام الكبير الأستاذ أبو منصور البغدادي، إمام عظيم القدر، جليل المحل، كثير العلم، حبر لا يساجل في الفقه، وأصوله، والفرائض، والحساب، وعلم الكلام، اشتهر اسمه، وبعد صيته، وحمل عنه العلم أكثر أهل خراسان،... قال أبو عثمان الصابوني: كان من أئمة الأصول، وصدور الإسلام بإجماع أهل الفضل والتحصيل، بديع الترتيب، غريب التأليف والتهذيب، تراه الجلة صدرا مقدما، وتدعوه الأئمة إماما مفخما،... ومن تصانيفه كتاب (التفسير)، وكتاب (فضائح المعتزلة)، وكتاب (الفرق بين الفرق)، وكتاب (التحصيل في أصول الفقه)، وكتاب

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٧٢) باختصار.

(٢) فوات الوفيات (٢/ ٣٧١) باختصار.

(فضائح الكرامية)، وكتاب (تأويل متشابه الأخبار)، وكتاب (الملل والنحل)، مختصر ليس في هذا النوع مثله، وكتاب (نفي خلق القرآن)، وكتاب (الصفات)، وكتاب (الإيمان وأصوله)، قال ابن الصلاح: ورأيت له كتابا في معنى لفظتي التصوف والصوفي جمع فيه من أقوال الصوفية ألف قول مرتبة على حروف المعجم، وجميع تصانيفه بالغة في الحسن أقصى الغايات)[(١)].

وقال عبد الرحمن المحمود: (البغدادي أحد أعلام الأشاعرة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، وهو يمثل تقريبًا مرحلة كل من الباقلاني وابن فورك، وقد أدرك البغدادي ابن مجاهد تلميذ أبي الحسن الأشعري، والبغدادي في كتبه ينقل أقوال الكلابية والأشعرية، ويذكر الخلاف بينهم إن وجد، وله ترجيحات خاصة تعتبر منعطف في تطور المذهب الأشعري، والبغدادي لا يخالف من سبقه من الأشاعرة في غالب مسائل العقيدة وعلم الكلام، وهو ينفي صفات الله الاختيارية، فيؤول ما ورد من صفات المحبة، والرحمة، والغضب، والفرح، والضحك، ويقول بكلام الله الأزلي)[(٢)].

وقد طور أبو منصور البغدادي المذهب الأشعري من خلال:

١- مخالفته لبعض أقوال أبي الحسن الأشعري.

٢- تبني بعض أدلة المعتزلة مثل دليل حدوث الأجسام.

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٣٦ - ١٤٠) باختصار وتصرف.

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٥٧٢ - ٥٧٤) باختصار وتصرف.

٣- تأويل البغدادي صفة الاستواء لله سبحانه، مع أنه رد على المعتزلة الذين أولوا الاستواء بالاستيلاء، وعرض أقوال أصحابه الأشاعرة، ثم صحح تأويل العرش بمعنى الملك، كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره، وذكر أن معنى آية الاستواء: على الملك استوى، أي استوى الملك للإله، ونفى صفة العلو لله سبحانه.

٤- تأويل البغدادي صفات الوجه والعين واليدين ونحوها من الصفات الخبرية التي أثبتها أبو الحسن الأشعري وابن الباقلاني.

٥- عرض البغدادي في كتابيه (الفرق بين الفرق) و(الملل والنحل) مذهب الأشاعرة على أنه مذهب أهل السنة والجماعة، وقد عرض البغدادي أقوال الفرق بمنهج واضح ومرتب، واعتمد على حديث الافتراق الوارد، وساق بعض رواياته بأسانيده، ثم ذكر أنه مروي عن جمع من الصحابة، ثم حصر أعداد الفرق لتوافق ما في الحديث، فذكر اثنتين وسبعين فرقة، ثم الفرقة الثالثة والسبعين، وهي الفرقة الناجية الواردة في الحديث، وجعلها فرقة أهل السنة والجماعة، وذكر أن أصناف أهل السنة والجماعة على مذهب أبي الحسن الأشعري، فذكر منهم المتكلمين الذين تبرؤا من التشبيه والتعطيل، وذكر منهم أئمة الفقه من فريقي أهل الرأي وأهل الحديث، وأدخل فيهم أصحاب المذاهب الأربعة وأهل الظاهر وغيرهم، وذكر منهم أهل الأدب والنحو والتصريف واللغة، فذكر أعلامهم، وذكر منهم علماء القراءات والتفسير، وذكر منهم الزهاد والصوفية، والمرابطين

في الثغور، وعامة البلدان التي غلب فيها شعار أهل السنة، وبنسبة هذه الأصناف كلها إلى مذهب الأشاعرة يكون البغدادي قد ادَّعى أن انتشار المذهب الأشعري عند هؤلاء دليل على أنه الحق، بل إن البغدادي عد أعلام الصحابة والسلف من المتكلمين، فذكر أن منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه ناظر الخوارج، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لتبرئه من القدرية، وعمر بن عبد العزيز، وزيد بن علي بن الحسين، والحسن البصري، والزهري، والشعبي، وجعفر الصادق، وعد من المتكلمين أبا حنيفة، والشافعي، وأبا يوسف القاضي، ثم ذكر أعلام الكلابية والأشعرية الذين سبقوه أو عاصروه، وبهذا المنهج المتميز الذي لم يكن معهودًا في مؤلفات ذلك العصر، مع حسن العرض والترتيب والتبويب، استطاع البغدادي أن ينشر بين الناس أن المذهب الأشعري هو المذهب الصحيح، وأنه المذهب الذي يتبناه أعلام المسلمين من الصحابة والتابعين وأئمة الدين من الفقهاء والقراء والمفسرين وغيرهم، وقرر أن الأشاعرة ليسوا فرقة من فرق المسلمين، وإنما عقيدتهم هي عقيدة جمهور أهل السنة من المسلمين[١].

(١) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٥٧٤ - ٥٨٠). ويُنظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٤ - ٢٠، ٢٠٠، ٣٠٤ - ٣٥٤).

وبهذا يتبين أن انتشار المذهب الأشعري كان بواسطة أعلامه الذين كانوا من أئمة العلم ومن أهل الفصاحة والبيان، ولهم الردود العظيمة على كثير من أهل البدع كالمعتزلة والرافضة، واجتهدوا في دعوة الناس إلى المذهب الأشعري على أنه مذهب أهل السنة والجماعة، ووقع لبعضهم في مؤلفاتهم زلات وأوهام ظنوها من الدين، فعظمت الفتنة بهم، كما يقال: زلة العالِم زلة عالَم.

عن يزيد بن عميرة قال: قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟! ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، قال: قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟! قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها: ما هذه؟! ولا يثنينك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إذا سمعته؛ فإن على الحق نورا)[(١)].

قال عبد الرحمن المحمود: (إذا كان الباقلاني، وابن فورك، والبغدادي يمثلون مرحلة زمنية معينة بالنسبة للمذهب الأشعري - وقد سبق عرض دور

(١) رواه أبو داود (٤٦١١) وصححه الألباني.

كل واحد منهم في تطوره - فإن البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ، والقشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ، والجويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ، يمثلون مرحلة تالية، وقد أخذ التطور في هذه المرحلة أبعادا أخرى: فالبيهقي: مجدد المذهب الشافعي في الفقه، وأحد أعلام المحدثين، كان له دور في ربط المذهب الأشعري بالفقه الشافعي، ثم في دعم الأشاعرة من خلال حرصه على الحديث وروايته، ولبيان أن ذلك لا يخالف منهج الأشاعرة الكلامي، والقشيري أدخل التصوف في منهج وعقائد الأشاعرة، والجويني خطا خطوات بالمذهب نحو الاعتزال)[(١)].

٤- أحمد بن الحسين البيهقي، (ت ٤٥٨هـ)

قال الذهبي: (الإمام أبو بكر البيهقي، مصنف (السنن الكبير)، و(السنن الصغير)، و(السنن والآثار)، و(دلائل النبوة)، و(شعب الإيمان)، و(الأسماء والصفات)، وغير ذلك. كان واحد زمانه، وفرد أقرانه، وحافظ أوانه، ومن كبار أصحاب أبي عبد الله الحاكم. أخذ مذهب الشافعي عن أبي الفتح المروزي، وغيره، وبرع في المذهب، وشيوخه أكثر من مائة شيخ[(٢)]، بورك له في مروياته، وحسن تصرفه فيها، لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال، وبعد صيته، وقيل: إن تصانيفه ألف جزء، سمعها الحافظان ابن عساكر، وابن السمعاني من أصحابه.

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٥٨٠).

(٢) من أشهر مشايخه: أبو عبد الله الحاكم، وابن فورك، وعبد القاهر البغدادي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو ذر الهروي. يُنظر: السلسبيل النقي في تراجم شيوخ البيهقي للمنصوري (ص: ٤١٩، ٣٧٩، ٥٥٠، ٥٦٤).

وأقام مدة ببيهق يصنف كتبه، ثم إنه طُلِب إلى نيسابور لنشر العلم بها فأجاب، وذلك في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فاجتمع الأئمة وحضروا مجلسه لقراءة تصانيفه، جمع نصوص الشافعي، واحتج لها بالكتاب والسنة. قال عبد الغافر: كان على سيرة العلماء، قانعا من الدنيا باليسير، متجملا في زهده وورعه، وقال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة إلا البيهقي، فإن له على الشافعي منة؛ لتصانيفه في نصرة مذهبه)[(١)].

وقال السبكي: (كان الإمام البيهقي أحد أئمة المسلمين، وهداة المؤمنين، والدعاة إلى حبل الله المتين، فقيه جليل، حافظ كبير، أصولي نحرير، زاهد ورع، قانت لله، قائم بنصرة المذهب أصولا وفروعا، جبلا من جبال العلم... وقرأ علم الكلام على مذهب الأشعري، ثم اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحد زمانه، وفارس ميدانه، وأحذق المحدثين، وأحدهم ذهنا، وأسرعهم فهما، وأجودهم قريحة، وبلغت تصانيفه ألف جزء، ولم يتهيأ لأحد مثلها)[(٢)].

والبيهقي رحمه الله يوافق مذهب الأشاعرة في كثير من مسائل الاعتقاد، فإنه ذهب إلى تأويل بعض الصفات، وتفويض معاني بعضها الآخر، ولعله أول من نسب التفويض إلى مذهب السلف الصالح[(٣)]، وقرر البيهقي اتباعا للأشاعرة أن كلام

---

(١) تاريخ الإسلام (١٠/ ٩٥) باختصار وتصرف.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٤/ ٨ - ١١) باختصار.

(٣) قال البيهقي بعد أن ذكر حديث النزول: (لم يتكلم أحد من الصحابة والتابعين في تأويله، ثم إنهم على قسمين: منهم من قبله وآمن به ولم يؤوله، ووكل علمه إلى الله، ونفى الكيفية والتشبيه عنه. ومنهم من =

الله ليس بصوت ولا حرف، وهو يثبت صفة الوجه، واليدين، والعين لله سبحانه بلا تأويل كما هو قول متقدمي الأشاعرة[1].

قال ابن تيمية: (الحافظ أبو بكر البيهقي وأمثاله أقرب إلى السنة من كثير من أصحاب الأشعري المتأخرين الذين خرجوا عن كثير من قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة)[2].

وللبيهقي كتاب (الأسماء والصفات)، وافق في كثير من مسائله منهج السلف الصالح ومن اتبعهم من أهل السنة، ووافق في بعض مسائله الأشاعرة، قال البيهقي مبينا سبب تأليفه هذا الكتاب: (كتب إلي الأستاذ أبو منصور محمد بن الحسين بن أبي أيوب الأصولي ﵀، الذي كان يحثني على تصنيف هذا الكتاب

= قبله وآمن به وحمله على وجه يصح استعماله في اللغة، ولا يناقض التوحيد) الاعتقاد (ص: ١١٧)، ولعل أول من أشهر التفويض ودعا إليه أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ)، المتوفى بعد البيهقي بعشرين سنة، قال الجويني في آخر كتبه: (فحقت على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى) العقيدة النظامية (ص: ١٦٦). ويُنظر: المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ١٧٢ – ١٧٤، ٣٩٩، ٤٠٠).

(١) يُنظر: الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢٩)، الاعتقاد للبيهقي (ص: ٧١، ٨٨)، البيهقي وموقفه من الإلهيات للغامدي (ص: ٣٢٢ – ٣٧٣، ٤٠٩ – ٤١٢).

(٢) يُنظر: شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٧).

لما في الأحاديث المخرجة فيه من العون على ما كان فيه من نصرة السنة وقمع البدعة)[(١)].

وأبو منصور هذا الذي كان يحث البيهقي على تأليف كتاب (الأسماء والصفات) أشعري مشهور، وهو تلميذ أبي بكر بن فورك وختنه[(٢)].

ومن تأويلات الصفات التي ذكرها البيهقي قوله: (الرضا عند أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه يرجع إلى الإرادة، وهو إرادة إكرام المؤمنين، وكذلك الرحمة ترجع إلى الإرادة، وهي إرادة الإنعام والإكرام)[(٣)].

وبعد أن ذكر البيهقي بعض الأدلة من القرآن والسنة على صفة الاستواء قال: (المتقدمون من أصحابنا رضي الله عنهم كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك،... أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ قال: هذه نسخة الكتاب الذي أملاه الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب في مذهب أهل السنة فيما جرى بين محمد بن إسحاق بن خزيمة وبين أصحابه، فذكرها وذكر فيها: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] بلا كيف، والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة، وعلى هذه الطريق يدل مذهب الشافعي رضي الله عنه، وإليها ذهب أحمد بن حنبل والحسين بن الفضل البجلي، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي، وذهب أبو

---

(١) الأسماء والصفات (٢/ ٦٠).

(٢) يُنظر: السلسبيل النقي في تراجم شيوخ البيهقي للمنصوري (ص: ٥٥٦).

(٣) الأسماء والصفات (١/ ٤٧٨).

الحسن علي بن إسماعيل الأشعري إلى أن الله تعالى جل ثناؤه فعل في العرش فعلا سماه استواء، كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا أو نعمة أو غيرهما من أفعاله، ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وثم للتراخي، والتراخي إنما يكون في الأفعال، وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة، وذهب أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري في آخرين من أهل النظر إلى أن الله تعالى في السماء فوق كل شيء مستو على عرشه بمعنى أنه عال عليه، ومعنى الاستواء: الاعتلاء، كما يقول: استويت على ظهر الدابة، واستويت على السطح بمعنى علوته، واستوت الشمس على رأسي، واستوى الطير على قمة رأسي، بمعنى علا في الجو، فوجد فوق رأسي، والقديم سبحانه عال على عرشه لا قاعد ولا قائم ولا مماس ولا مباين عن العرش، يريد به: مباينة الذات التي هي بمعنى الاعتزال أو التباعد، لأن المماسة والمباينة التي هي ضدها، والقيام والقعود من أوصاف الأجسام، والله ﷻ أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فلا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام ﵎. وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك هذه الطريقة عن بعض أصحابنا أنه قال: استوى بمعنى: علا، ثم قال: ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون في مكان متمكنا فيه، ولكن يريد معنى قول الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: من فوقها على معنى نفي الحد عنه، وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر، ووصف الله ﷻ بذلك بطريقة الخبر، فلا نتعدى ما ورد به الخبر. قلت: وهو على هذه الطريقة من صفات الذات، وكلمة

﴿ثم﴾ تعلقت بالمستوى عليه، لا بالاستواء، وهو كقوله: ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس:٤٦] يعني: ثم يكون عملهم فيشهده، وقد أشار أبو الحسن علي بن إسماعيل إلى هذه الطريقة حكاية فقال: وقال بعض أصحابنا: إنه صفة ذات، ولا يقال: لم يزل مستويا على عرشه، كما أن العلم بأن الأشياء قد حدثت من صفات الذات، ولا يقال: لم يزل عالما بأن قد حدثت، ولما حدثت بعد، قال: وجوابي هو الأول، وهو أن الله مستو على عرشه، وأنه فوق الأشياء بائن منها، بمعنى أنها لا تحله ولا يحلها، ولا يمسها ولا يشبهها، وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا. قال: وقد قال بعض أصحابنا: إن الاستواء صفة الله تعالى تنفي الاعوجاج عنه، وفيما كتب إلي الأستاذ أبو منصور بن أبي أيوب أن كثيرا من متأخري أصحابنا ذهبوا إلى أن الاستواء هو القهر والغلبة، ومعناه: أن الرحمن غلب العرش وقهره، وفائدته الإخبار عن قهره مملوكاته، وأنها لم تقهره، وإنما خص العرش بالذكر لأنه أعظم المملوكات، فنبه بالأعلى على الأدنى، قال: والاستواء بمعنى القهر والغلبة شائع في اللغة،... قال: وليس ذلك في الآية بمعنى الاستيلاء؛ لأن الاستيلاء غلبة مع توقع ضعف، قال: ومما يؤيد ما قلناه قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]، والاستواء إلى السماء هو القصد إلى خلق السماء، فلما جاز أن يكون القصد إلى السماء استواء جاز أن تكون القدرة

على العرش استواء... ويُذكر عن أبي العالية في هذه الآية أنه قال: استوى يعني: ارتفع. ومراده بذلك - والله أعلم - ارتفاع أمره، وهو بخار الماء الذي منه وقع خلق السماء)[(١)].

رحم الله الإمام البيهقي، ففي بعض كلامه نلاحظ تأثره بعلماء الكلام! وكان الأولى له أن يعرض عنهم، فهو من كبار أهل الحديث الذين يحرصون على الاتباع وترك الابتداع، ومن الذي ما ساء قط؟! ومن له الحسنى فقط؟!

٥- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، (ت ٤٦٥هـ)

قال الذهبي: (شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، قرأ الأدب والعربية، وحضر مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق، وكان واعظ وقته، فقبله الدقاق وأقبل عليه، وأشار عليه بتعلم العلم، فتفقه، ثم اختلف إلى الأستاذ أبي بكر بن فورك الأصولي، فأخذ عنه الكلام والنظر، حتى بلغ فيه الغاية، ثم اختلف إلى أبي إسحاق الإسفراييني، ونظر في تواليف ابن الباقلاني، ثم زوجه أبو علي الدقاق بابنته، فلما توفي أبو علي عاشر أبا عبد الرحمن السلمي الصوفي وصحبه، وانتهت إليه رياسة التصوف في زمانه؛ لما آتاه الله من الأحوال والمجاهدات، وتربية المريدين وتذكيرهم، فكان عديم النظير في ذلك، طيب النفس، لطيف الإشارة، غواصا على المعاني، وكان إماما قدوة، مفسرا، محدثا، فقيها، متكلما، نحويا، كاتبا، شاعرا، قال أبو سعد السمعاني: لم ير أبو القاسم

---

(١) الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤، ٣٠٨ - ٣١١).

مثل نفسه في كماله وبراعته، قال الخطيب البغدادي: كتبنا عنه وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. قال القاضي ابن خلكان: صنف أبو القاسم القشيري التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وحج مع البيهقي وأبي محمد الجويني، وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء)[(١)].

وقال السبكي: (الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري الملقب زين الإسلام، الإمام مطلقا، وصاحب الرسالة التي سارت مغربا ومشرقا، أحد أئمة المسلمين علما وعملا، وأركان الملة فعلا ومقولا، إمام الأئمة، ومجلي ظلمات الضلال المدلهمة، أحد من يقتدى به في السنة، ويتوضح بكلامه طرق النار وطرق الجنة، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، الجامع بين أشتات العلوم... أخذ الفقه عن أبي بكر الطوسي، وعلم الكلام عن الأستاذ أبي بكر بن فورك، واختلف أيضا يسيرا إلى الأستاذ أبي إسحاق، وأخذ التصوف عن أستاذه أبي علي الدقاق، وكان فقيها بارعا أصوليا محققا متكلما سنيا محدثا حافظا مفسرا متفننا نحويا لغويا أديبا كاتبا شاعرا، مليح الخط جدا)[(٢)].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٠/ ٢١٧، ٢١٨) باختصار وتصرف.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/ ١٥٣ - ١٥٦) باختصار.

وهذه بعض النقولات من كتب القشيري تبين دعوته إلى التصوف، وتأويله الصفات:

١) قال القشيري: (اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله ﷺ؛ إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)[١].

٢) قال القشيري في تفسير سورة الملك: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]: بقدرته إظهار ما يريد)[٢].

٣) قال القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦] (﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٤).

(٢) لطائف الإشارات (٣/ ٦١٠).

يسكنون السماء، فهم موكلون بالعذاب، وخوَّفهم بالملائكة أن ينزلوا عليهم العقوبة من السماء، أو يخسفوا بهم الأرض، وكذلك خوفهم أن يرسلوا عليهم حجارة كما أرسلوا على قوم لوط)[(١)].

٤) قال القشيري: (تعالى عن أن يقال: كيف هو؟ أو أين هو؟)[(٢)].

٥) قال القشيري: (سمعت الإمام أبا بكر محمد ابن الحسن بن فورك رحمه الله تعالى يقول: سمعت محمد بن المحبوب خادم أبي عثمان المغربي يقول: قال لي أبو عثمان المغربي يوما: يا محمد لو قال لك أحد أين معبودك إيش تقول؟ قال: قلت: أقول: حيث لم يزل، قال: فإن قال: أين كان في الأزل إيش تقول؟ قال: قلت: أقول: حيث هو الآن، يعني أنه كما كان ولا مكان فهو الآن كما كان، قال: فارتضى مني ذلك، ونزع قميصه وأعطانيه)[(٣)].

٦) قال القشيري: (سئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] فقال: الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى. وسئل جعفر بن نصير عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] فقال: استوى علمه بكل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء. ورأيت بخط الأستاذ أبي علي أنه قيل لصوفي: أين الله؟ فقال: أسحقك الله! تطلب

(١) لطائف الإشارات (٣/ ٦١٤).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ١٤).

(٣) الرسالة القشيرية (١/ ٢٤، ٢٥).

مع العين أين؟!)[١].

٧) قال القشيري: (له يدان، هما صفتان يخلق بهما ما يشاء سبحانه على التخصيص، وله الوجه الجميل، وصفات ذاته مختصة بذاته، لا يقال: هي وهو، ولا هي أغيار له، بل هي صفات له أزلية، ونعوت سرمدية، وأنه أحدي الذات، ليس يشبهه شيئا من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات، ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا صفاته أعراض، ولا يتصور في الأوهام، ولا يتقدر في العقول، ولا له جهة ولا مكان، ولا يجري عليه وقت وزمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان، ولا يخصه هيئة وقد، ولا يقطعه نهاية وحد، ولا يحله حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حُكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، لا يقال له: أين، ولا حيث، ولا كيف)[٢].

وبمثل هذه الفصاحة والبلاغة والبيان الذي يسحر السامعين والقارئين انتشر المذهب الأشعري، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «إن من البيان لسحرا»[٣]،

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٩).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢، ٣٣).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ففي كلام القشيري ونقولاته البليغة والمزخرفة حق وباطل، وفي بعض كلامه ألفاظ مجملة لم يتكلم فيها السلف الصالح بالنفي ولا الإثبات، كالجسم والجوهر والعرض، ولا شك أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، وما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، وقد أخذ أهل الكلام مثل هذه الألفاظ من كتب الفلاسفة، وعلماء الكلام الفضلاء كالقشيري يريدون نصر الإسلام بما كتبوا من مصنفات، ويريدون تنزيه الله سبحانه عن النقائص بهذه العبارات، فوقعوا في تأويل كثير من الصفات، وقد أثَّر القشيري تأثيرا عظيما في الصوفية الذين اتخذوا رسالته عمدة في التصوف، فصار غالب الصوفية بعد القشيري أشاعرة أو متأثرين بمذهب الأشاعرة(١).

دور القشيري في نصرة المذهب الأشعري وتطويره:

اشتهر القشيري بالتصوف أكثر من شهرته بالمذهب الأشعري، ودوره في نصرة المذهب الأشعري وتطويره تتمثل في جانبين:

---

(١) مع أن الصوفية القدامى قبل القشيري يثبتون الصفات لله سبحانه، ويخالفون مذهب الأشاعرة المتأخرين الذين يؤولونها أو يفوضونها، قال أبو بكر الكلاباذي (ت٣٨٠ هـ) مبينا ما أجمع عليه الصوفية: (أجمعوا على أن لله صفات على الحقيقة هو بها موصوف من العلم والقدرة والقوة والعز والحلم والحكمة والكبرياء والجبروت والقِدَم والحياة والإرادة والمشيئة والكلام، وأنها ليست بأجسام ولا أعراض ولا جواهر، كما أن ذاته ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر، وأن له سمعا وبصرا ووجها ويدا على الحقيقة، ليس كالأسماع والأبصار والأيدي والوجوه، وأجمعوا أنها صفات لله، وليس بجوارح ولا أعضاء ولا أجزاء) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص: ٣٥).

الجانب الأول: دفاعه عن الأشاعرة وقت المحنة التي مروا بها، حين انتشر لعنهم على المنابر في خراسان، فقد كتب رسالته الشكاية التي دافع فيها عن الأشعري وعن الأشاعرة، ورد على التهم الموجهة إليهم، وأجاب عن المسائل التي نُقِمت على الأشعري ولُعِن من أجلها، وأهم تلك المسائل:

أ - اتهام أبي الحسن الأشعري مع أتباعه أنهم يقولون: إن الرسول ﷺ ليس بنبيٍّ في قبره، ولا رسول بعد موته، والحق أن الأشاعرة لا يقولون بهذا، ولا يوجد هذا في كتب أبي الحسن ولا أتباعه.

ب - أن الأشعري يقول: إن الله لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم، ولا يعذب الكفار والعصاة على كفرهم ومعاصيهم.

ج - مسألة كلام الله، وأن موسى لم يسمع كلام الله، فكلام الله ليس صوتا ولا حرفا.

د - أن الأشعري يكفر العوام الذين لا يملكون النظر والاستدلال، وقد بين القشيري أن هذا كذب على الأشعري، وأنه يرى صحة إيمان المقلد.

هـ - أن الاشتغال بعلم الكلام بدعة، وقد دافع القشيري عن علم الكلام.

الجانب الثاني: إدخال التصوف في المذهب الأشعري، وربطه به، وذلك حين ألف القشيري رسالته المشهورة في التصوف وأحواله وتراجم رجاله المشهورين، فذكر في هذه الرسالة أن عقيدة أعلام التصوف هي عقيدة

الأشاعرة، فكانت رسالته سببا عظيما في دخول الأشاعرة في التصوف، ودخول الصوفية في المذهب الأشعري[(١)].

٦- إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، (ت ٤٧٨هـ)

قال الذهبي: (إمام الحرمين أبو المعالي ابن الإمام أبي محمد الجويني، رئيس الشافعية بنيسابور، قال أبو سعد السمعاني: كان إمام الأئمة على الإطلاق، المجمع على إمامته شرقا وغربا، لم تر العيون مثله. تفقه على والده، فأتى على جميع مصنفاته، وتوفي أبوه وله عشرون سنة، فأُقعِد مكانه للتدريس، فكان يدرس ويخرج إلى مدرسة البيهقي، وأحكم الأصول على أبي القاسم الإسفراييني الإسكاف، واضطر إلى السفر عن نيسابور، فذهب إلى المعسكر، ثم إلى بغداد، وصحب أبا نصر الكندري الوزير مدة يطوف معه، ويلتقي في حضرته بالأكابر من العلماء، ويناظرهم، ويحتك بهم، حتى تهذب في النظر، وشاع ذكره، ثم خرج إلى الحجاز، وجاور بمكة أربع سنين، يُدرِّس ويفتي، ويجمع طرق المذهب، إلى أن رجع إلى بلده نيسابور، فأُقعِد للتدريس بنظامية نيسابور، واستقامت أمور الطلبة، وبقي على ذلك قريبا من ثلاثين سنة، غير

---

(١) يُنظر: الرسالة القشيرية (١/ ٣٤ - ١٤٩)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر (ص: ١٠٩ - ١١٣)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٦٩)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٥٩١ - ٥٩٩).

مزاحَم ولا مدافَع، مسلَّم له المحراب، والمنبر، والخطابة، والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وظهرت تصانيفه، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل، وتفقه به جماعة من الأئمة، وسمع الحديث من أبيه وغيره. قال السمعاني: قرأت بخط أبي جعفر الهمذاني: سمعت أبا المعالي يقول: قرأت خمسين ألفا في خمسين ألفا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهر، وركبت البحر الخضم العظيم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنها، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن رجعت من الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني يريد نفسه. وقال غانم الموشيلي: سمعت الإمام أبا المعالي الجويني يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام. وقال أبو المعالي الجويني في كتاب الرسالة النظامية: اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى[١]، والذي نرتضيه رأيا، وندين الله به عقدا

---

(١) السلف الصالح كانوا يفوضون كيفية الصفات لا معاني الصفات، فأبو المعالي الجويني رحمه الله رجع عن تأويل الصفات، ونسب إلى السلف القول بتفويض معانيها، فرجوعه كان إلى مذهب التفويض، =

اتباع سلف الأمة؛ فالأولى الاتباع، وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول ﷺ على ترك التعريض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، المستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محتوما لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب، فليجر آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ

= وليس إلى مذهب السلف الصالح الذين يؤمنون بمعاني الصفات على ظاهرها الذي يليق بجلال الله وعظمته، ويفوضون كيفية الصفات لا معانيها، مع اعتقاد أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فالاستواء مثلا عند السلف معلوم، وهو العلو والارتفاع كما يليق بعظمة الله، لكن الكيفية مجهولة، وقد اشتهر عند الأشاعرة المتأخرين أن في صفات الله سبحانه قولين مشهورين للأشاعرة، هما: التأويل، والتفويض، قال السبكي الأشعري في ترجمة أبي المعالي الجويني: (للأشاعرة قولان مشهوران في إثبات الصفات هل تمر على ظاهرها مع اعتقاد التنزيه أو تؤول؟ والقول بالإمرار مع اعتقاد التنزيه هو المعزو إلى السلف، وهو اختيار الإمام في الرسالة النظامية، وفي مواضع من كلامه، فرجوعه معناه الرجوع عن التأويل إلى التفويض، ولا إنكار في هذا، ولا في مقابله، فإنها مسألة اجتهادية أعني مسألة التأويل أو التفويض مع اعتقاد التنزيه) طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٩١، ١٩٢)، وراجع المبحث الثاني: نشأة المذهب الأشعري وأسباب انتشاره، ففيه بيان إبطال التفويض.

رَبِّكَ ﴾ [الرحمن:٢٧]، و﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا. وقال محمد بن طاهر الحافظ: سمعت أبا الحسن القيرواني الأديب بنيسابور، وكان يسمع معنا الحديث، وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي الجويني، يقرأ عليه الكلام يقول: سمعت الأستاذ أبا المعالي اليوم يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وحكى أبو عبد الله الحسن بن العباس الرستمي فقيه إصبهان قال: حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه قال: دخلت على أبي المعالي في مرضه، فقال: اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السلف، وأني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور. وذكر محمد بن طاهر أن المحدث أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس وعظ أبي المعالي، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه. فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها، ما قال عارف قط: يا الله؛ إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا نلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟! فقال: يا حبيبي، ما ثم إلا الحيرة، ولطم على رأسه ونزل، وبقي وقت عجيب، وقال فيما بعد: حيرني الهمذاني! ولأبي المعالي من التصانيف: كتاب (نهاية المطلب في المذهب)، وهو كتاب جليل في ثمانية مجلدات، وكتاب (الإرشاد في الأصول)، وكتاب (الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية)، وكتاب (الشامل في أصول الدين)، وكتاب (البرهان في أصول الفقه)، وكتاب (غياث الأمم في الإمامة). وكان إذا أخذ في علم الصوفية وشرح الأحوال أبكى الحاضرين. وقال

الباخرزي في ترجمة الإمام أبا المعالي: الفقه فقه الشافعي، والآداب أدب الأصمعي، وفي بصره بالوعظ الحسن البصري)[1].

وقال السبكي: (هو الإمام، شيخ الإسلام، البحر الحبر المدقق المحقق النظار، الأصولي المتكلم البليغ الفصيح الأديب، العلم الفرد، زينة المحققين، إمام الأئمة على الإطلاق عجما وعربا، وصاحب الشهرة التي سارت السراة والحداة بها شرقا وغربا، من ظن أن في المذاهب الأربعة من يداني فصاحته فليس على بصيرة من أمره، ومن حسب أن في المصنفين من يحاكي بلاغته فليس يدري ما يقول، جد واجتهد في المذهب والخلاف والأصولين وغيرها، وشاع اسمه واشتهر في صباه، وضربت باسمه الأمثال حتى صار إلى ما صار إليه، وأوقف علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه، وسلك طريق البحث والنظر والتحقيق بحيث أربى على كثير من المتقدمين، وأنسى تصرفات الأولين، وسعى في دين الله سعيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه، وأكثرهم تحقيقا، بل الكل من بحره يغترفون، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا، قال عبد الغافر الفارسي: اتصل به ما يليق بمنصبه من القبول عند السلطان والوزير والأركان، ووفور الحشمة عندهم بحيث لا يذكر غيره، فكان المخاطب والمشار إليه، والمقبول من قبله، والمهجور من هجره، والمصدَّر في المجالس من ينتمي إلى خدمته،

(١) تاريخ الإسلام (١٠/ ٤٢٤ - ٤٢٨) باختصار وتصرف.

والمنظور إليه من يغترف في الأصول والفروع من طريقته، واتفق منه تصانيف برسم الحضرة النظامية مثل النظامي والغياثي، وإنفاذها إلى الحضرة، ووقوعها موقع القبول، ومقابلتها بما يليق بها من الشكر والرضا، إلى أن قُلِّد زعامة الأصحاب، ورياسة الطائفة، وفُوِّض إليه أمور الأوقاف، وصارت حشمته وزر العلماء والأئمة والقضاة، وقوله في الفتوى مرجع العظماء والأكابر والولاة، وصار أكثر عنايته مصروفا إلى تصنيف المذهب الكبير المسمى بـ (نهاية المطلب في دراية المذهب)، حتى حرره وأملاه، وأتى فيه من البحث والتقرير والسبك والتنقير والتدقيق والتحقيق بما شفى الغليل، وأوضح السبيل، ونبه على قدره ومحله في علم الشريعة، ودرس ذلك للخواص من التلامذة، وفرغ منه ومن إتمامه، فما صُنِّف في الإسلام قبله مثله، ولا اتفق لأحد ما اتفق له، ومن قاس طريقته بطريقة المتقدمين في الأصول والفروع وأنصف أقر بعلو منصبه، ووفور تعبه ونصبه في الدين، وكثرة سهره في استنباط الغوامض، وتحقيق المسائل، وترتيب الدلائل،... قال أبو المعالي: أنا لا أنام ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلا كان أو نهارا، وآكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان، وكان لذته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم وطلب الفائدة من أي نوع كان)[(١)].

ومن أشهر تلاميذ الجويني: أبو حامد الغزالي، وأبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، وعلي بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، وغيرهم.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٦٥ - ١٧٩).

رحم الله الإمام أبا المعالي الجويني، ولعله بسبب إخلاصه وصدقه وفّقه الله للتوبة في آخر عمره من علم الكلام، فنسأل الله أن يكتب أجره مضاعفا على ما أصاب، وأن ينفعنا بعلومه التي أجاد فيها وأفاد، وأن يغفر له ما وقع فيه من زلل بسبب علم الكلام الذي ذمه علماء الإسلام.

أثر أبي المعالي الجويني في تطوير المذهب الأشعري:

يعتبر أبو المعالي الجويني من أعظم أعلام الأشاعرة الذين طوروا المذهب الأشعري، وقربوه إلى مذهب المعتزلة، ومما تميز به أبو المعالي الجويني فيما يتعلق بمذهب الأشاعرة ما يلي:

أ - تجديد الجويني للمذهب الأشعري، فالجويني وإن تبنى أقوال شيوخه السابقين ونقلها إلا أنه رد أو ناقش ما يرى أنه يستحق الرد والمناقشة، حتى لو كانت تلك الأقول لأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، وأبي إسحاق الإسفراييني، وابن فورك.

ب- تأويل الصفات الخبرية كالوجه والعين واليدين، مخالفا أئمة المذهب الأشعري الذين يثبتونها بلا تأويل كأبي الحسن الأشعري والباقلاني والبيهقي، ووافق الجويني المعتزلة في تأويل صفة الاستواء لله سبحانه بالاستيلاء، ولم يسبقه إلى هذا أحد من أئمة الأشاعرة الذين كانوا يردون على المعتزلة تأويلهم صفة الاستواء بالاستيلاء، بل إن الجويني ألزم الأشاعرة بتأويل صفة الوجه واليدين والعين كتأويل صفة النزول وغيرها.

ج - القرب من مذهب المعتزلة أكثر ممن سبقه من الأشاعرة، ومن الشواهد على ذلك أن الجويني لما شرح مذهب الأشاعرة في مسألة كلام الله، قرر أن المذهب الأشعري لا يعارض مذهب المعتزلة؛ لأنهما يتفقان على أن كلام الله بغير صوت ولا حرف، وإنما الخلاف مع المعتزلة في كونهم لا يثبتون الكلام النفسي الذي يثبته الأشاعرة(١).

د - صلته بالفلسفة: اطلع الجويني على كثير من كتب الفلاسفة، وتأثر بها في تأصيل المذهب الأشعري في بحوثه الكلامية.

هـ - إدخال علم المنطق وعلم الكلام في علم أصول الفقه، وقد تأثر بمنهجه هذا من جاء بعده من الأشاعرة وغيرهم كالغزالي، والرازي، والآمدي(٢).

قال ابن تيمية عن أبي المعالي الجويني: (غيَّر مذهب الأشعري في كثير من القواعد، ومال إلى قول المعتزلة؛ فإنه كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم بن

---

(١) قال الجويني ما نصه: (اعلموا بعدها أن الكلام مع المعتزلة وسائر المخالفين في هذه المسألة، يتعلق بالنفي والإثبات، فإن ما أثبتوه وقدروه كلاما، فهو في نفسه ثابت، وقولهم: إنه كلام الله تعالى، إذ رد إلى التحصيل آل الكلام إلى اللغات والتسميات؛ فإن معنى قولهم: هذه العبارات كلام الله، أنها خلقه، ونحن لا ننكر أنها خلق الله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلما به؛ فقد أطبقنا على المعنى، وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته، والكلام الذي يقضي أهل الحق بقدمه، هو الكلام القائم بالنفس، والمخالفون ينكرون أصله ولا يثبتونه، فتنازعوا بعد إثباته في حدثه أو قدمه) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص: ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٦٠٠ - ٦٢١).

الجبائي، وكان قليل المعرفة بمعاني الكتاب والسنة، وكلام السلف والأئمة، مع براعته وذكائه في فنه)[(١)].

وقال أيضًا: (عامة أصول أهل البدع والأهواء الخارجين عن الكتاب والسنة مبنية على نوع من القياس الذي وضعوه، يعارضون به ما جاءت به الرسل، ونوع من الإجماع الذي يدعونه، فيركبون من ذلك القياس العقلي، ومن هذا الإجماع السمعي الذي يزعمونه، أصل دينهم؛ ولهذا تجد أبا المعالي - وهو أحذق المتأخرين- إنما يعتمد فيما يدعيه من القواطع على نحو ذلك)[(٢)].

٧- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت ٥٠٥هـ)

قال الذهبي: (الشيخ، الإمام، البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط. تفقه ببلده أولا، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، حتى صار عين المناظرين، وأعاد للطلبة، وشرع في التصنيف، ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني، فأقبل عليه نظام

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/ ٥٠٧). ويُنظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٥٤٠).

(٢) التسعينية (٢/ ٦٣١) بتصرف. وينظر: المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ٣٧٤ - ٣٧٩).

الملك الوزير، وسر بوجوده، وناظر الكبار بحضرته، فانبهر له، وشاع أمره، فولاه النظام تدريس نظامية بغداد، فقدمها بعد الثمانين وأربع مائة، وسنه نحو الثلاثين، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام، ومزال الأقدام، ولله سر في خلقه، وعظم جاه الرجل، وازدادت حشمته، بحيث إنه في دست أمير، وفي رتبة رئيس كبير، فأداه نظره في العلوم، وممارسته لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة، والإنابة إلى دار الخلود، والتأله، والإخلاص، وإصلاح النفس، فحج من وقته، وزار بيت المقدس، وألف كتاب الإحياء، وراض نفسه وجاهدها، وطرد شيطان الرعونة، ولبس زي الأتقياء، ثم بعد سنوات سار إلى وطنه، لازما لسننه، حافظا لوقته، مكبا على العلم، قال عبد الغافر الفارسي: وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث، ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام. قال أبو بكر بن العربي: شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع. وقال القاضي عياض: الشيخ أبو حامد غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسره، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها، فامتثل ذلك. قلت: ما زال العلماء يختلفون، ويتكلم العالم في العالم باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع، فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور. قد ألف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب التهافت، وكشف عوارهم، ووافقهم في

مواضع ظنا منه أن ذلك حق، أو موافق للملة، ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، وحبب إليه إدمان النظر في كتاب (رسائل إخوان الصفا)، وهو داء عضال، وجرب مرد، وسم قتَّال، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء، وخيار المخلصين؛ لتلف، فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز، فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام، وأن يتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله الموفق، فبحسن قصد العالم يغفر له وينجو إن شاء الله. وقال أحمد بن صالح الجيلي في تاريخه: أبو حامد لقب بالغزالي، برع في الفقه، وكان له ذكاء وفطنة وتصرف، وقدرة على إنشاء الكلام، وتأليف المعاني، ودخل في علوم الأوائل، وغلب عليه استعمال عباراتهم في كتبه، قال ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه، برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم، وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني، قلت: أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء، ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علما نافعا، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول ﷺ قولا وفعلا، ولم يأت نهي عنه، قال عليه السلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»، فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله، وبإدمان النظر في الصحيحين وسنن النسائي، ورياض

النواوي وأذكاره، تفلح وتنجح، وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم. قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنف أبو حامد الإحياء، وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم على الكشف، وخرج عن قانون الفقه... ومن عقيدة أبي حامد ﵀ تعالى، أولها: الحمد لله الذي تعرف إلى عباده بكتابه المنزل على لسان نبيه المرسل، بأنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، لم يزل ولا يزال منعوتا بنعوت الجلال، ولا تحيط به الجهات، ولا تكنفه السماوات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، وهو فوق كل شيء إلى التخوم، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، لا يماثل قربه قرب الأجسام، كان قبل خلق المكان والزمان، وهو الآن على ما كان عليه، وأنه بائن بصفاته من خلقه، ما في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، مقدس عن التغير والانتقال، لا تحله الحوادث، وأنه مرئي الذات بالأبصار في دار القرار، إتماما للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم. إلى أن قال: ويدرك حركة الذر في الهواء، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر، وأن القرآن مقروء بالألسنة، محفوظ في القلوب، مكتوب في المصاحف، وأنه مع ذلك قائم بذات الله، لا يقبل الانفصال بالانتقال إلى القلوب والصحف، وأن موسى سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف... ثم قال الذهبي: هذا المعتقد غالبه صحيح، وفيه ما لم

أفهمه، وبعضه فيه نزاع بين أهل المذاهب، ويكفي المسلم في الإيمان أن يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والبعث بعد الموت، وأن الله ليس كمثله شيء أصلا، وأن ما ورد من صفاته المقدسة حق، يمر كما جاء، وأن القرآن كلام الله وتنزيله، وأنه غير مخلوق، إلى أمثال ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ولا عبرة بمن شذ منهم، فإن اختلفت الأمة في شيء من مشكل أصول دينهم، لزمنا فيه الصمت، وفوضناه إلى الله، وقلنا: الله ورسوله أعلم، ووسعنا فيه السكوت. فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول)[١].

وقال السبكي: (الإمام الجليل أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سره وجهره، قدم نيسابور، ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد على مبطليهم، وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من هذه العلوم كتبا أحسن تأليفها، وأجاد وضعها وترصيفها... قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: كان إماما في علم الفقه مذهبا

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢ - ٣٤٦) باختصار.

وخلافا، وفي أصول الديانات، وسمع صحيح البخاري من أبي سهل الحفصي)[(١)].

وقال ابن تيمية: (الغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في الشفا وغيره، ورسائل إخوان الصفا، وكلام أبي حيان التوحيدي، وأما المادة المعتزلية في كلامه فقليلة أو معدومة، وكلامه في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة)[(٢)].

وقال ابن تيمية: (كان أبو حامد ينقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله! ولم يكن ممن يتعمد الكذب؛ فإنه كان أجل قدرا من ذلك، وكان من أعظم الناس ذكاء، وطلبا للعلم، وبحثا عن الأمور، وكان من أعظم الناس قصدا للحق، وله من الكلام الحسن المقبول أشياء عظيمة بليغة، ومن حسن التقسيم والترتيب ما هو به من أحسن

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩١ - ٢١٤) باختصار، وقد طول السبكي رحمه الله ترجمة الغزالي، ودافع عنه بما يراه صوابا، وكتابه طبقات الشافعية يعتني فيه السبكي كثيرا بتراجم الأشاعرة، وقد ضمن ترجمة الغزالي فوائد نفيسة كعادته، وسرد في آخر الترجمة الأحاديث الموضوعة التي في كتاب (إحياء علوم الدين).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤، ٥٥) باختصار.

المصنفين، لكن لكونه لم يصل إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الطرق الصحيحة كان ينقل ذلك بحسب ما بلغه)[1].

أثر أبي حامد الغزالي في تطوير المذهب الأشعري[2]:

أولًا: يعتبر الغزالي من أشهر أعلام الأشاعرة الذين دافعوا عن المذهب الأشعري ضد مناوئيه من مختلف الطوائف، وقد سمى أحد كتبه الأشعرية بـ (الاقتصاد في الاعتقاد)، والغزالي لم يأتِ بجديد فيما يتعلق بمذهب الأشاعرة، بل جاءت كتبه واستدلالاته ملخصة كلام من سبقه من أعلام الأشاعرة مع صياغة جديدة، وأسلوب سهل، وهو مكثر من التأليف، وكتبه اشتهرت شرقا وغربا، وكان لها أعظم الأثر في نشر التصوف والعقيدة الأشعرية، والملاحظ في مذهب الغزالي تركيزه على:

١ـ القول بصحة إيمان المقلد خلافًا للمشهور من مذهب جمهور الأشاعرة.

٢ـ تأكيد إنكار السببية، وهي مسألة مشهورة في المذهب الأشعري، وكان لهذا تأثير كبير في الفكر الصوفي بعد الغزالي حين أصبحت الكرامات والخوارق المزعومة للأولياء مقبولة مهما كان فيها من مخالفة للشرع والعقل.

٣ـ القول بقانون التأويل الكلامي حين يتوهم التعارض بين العقل والنقل، وقد تأثر بهذا القانون جمهرة الأشاعرة بعد الغزالي، وصار هذا القانون أحد

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٦/ ١٢٦، ١٢٧) باختصار.

(٢) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٦٢٦ - ٦٤٤).

ركائز العقيدة الأشعرية وأخطرها وأعظمها أثرًا، وقد أفرده ابن تيمية بمؤلفه الكبير (درء تعارض العقل والنقل).

٤ـ رده على الفلاسفة مع تأثره بهم، فقد ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) بعد أن توسع في الفلسفة، وتقدم في ترجمة الغزالي قول تلميذه أبي بكر بن العربي: شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع!

ثانيًا: الشك عند الغزالي، منهج الشك عند الغزالي تمثل في أمرين:

أحدهما: عملي، وهو ما شرحه بوضوح في كتابه (المنقذ من الضلال)، وسماه داء ومرضا.

والثاني: شك منهجي، قال الغزالي: (اطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى تقلدا قائدا يرشدك إلى طريق وحواليك ألف مثل قائدك ينادون عليك، بأنه أهلكك وأظلك عن سواء السبيل، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال... ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث، لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعًا، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، نعوذ بالله من ذلك)[١].

---

(١) ميزان العمل (ص: ٤٠٩).

وهذا الشك هو الذي يُذكر في أول واجب على المكلف، هل هو النظر أو القصد إلى النظر أو الشك، وإذا كان الأول والثاني قد أخذ به بعض الأشاعرة فإن الثالث – وهو الشك– إنما يؤثر القول به عن أبي هاشم الجبائي المعتزلي.

ثالثًا: تصوف الغزالي وفلسفته.

بقدر اشتهار الغزالي بأشعريته اشتهر بتصوفه، فهو يمثل مرحلة خطيرة من مراحل امتزاج التصوف بالمذهب الأشعري حتى كاد أن يكون جزءا منه، قال الغزالي شارحا محنته ورحلته وعزلته: (لما شفاني الله من هذا المرض – يقصد الشك – بفضله وسعة جوده، أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر. الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، المخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم. الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان. الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة، فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع[1]... فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق. مبتدئا بعلم الكلام. ومثنيا بطريق الفلسفة، ومثلثا بتعلم الباطنية، ومربعا بطريق الصوفية... ودمت على ذلك – يريد العزلة وتزكية

(١) يُلاحظ أن الغزالي فاته أن يذكر مذهب أهل السنة والجماعة الذين هم أئمة السلف وأتباعهم، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، المعرضون عن أهل البدع والكلام.

النفس في الخلوات - مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: إني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطريق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلًا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به،... ومن أول الطريقة تبتدي المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه)[(١)].

والغزالي رحمه الله على توسعه في العلوم العقلية لم يكن متوسعا في السنة النبوية[(٢)]، وما أكثر الأحاديث الموضوعة والباطلة والضعيفة التي يذكرها في

(١) المنقذ من الضلال (ص: ١١٧، ١١٨، ١٧٧ - ١٧٩).

(٢) وقد صرح الغزالي بذلك في آخر كتابه (قانون التأويل) (ص: ٣٠) فقال: (بضاعتي في علم الحديث مزجاة).

كتبه، بل إنه في كتابه (المواعظ في الأحاديث القدسية) ذكر ٣٨ حديثا قدسيا لا يصح منها ولا حديث واحد[(١)]!

وأما الحكايات الباطلة التي ذكرها الغزالي في كتبه بلا إسناد فهي كثيرة جدا، وأكتفي بذكر هذا النقل العجيب الغريب من أشهر كتبه (إحياء علوم الدين)، فبالمثال يتضح المقال، قال الغزالي عفا الله عنا وعنه: (يُحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد البسطامي من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزًا على صدور قدميه، ضاربًا بذقنه على صدره، شاخصًا بعينيه لايطرف، ثم سجد عند السحر فأطاله، ثم قعد فقال: اللهم إن قومًا طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عد نيفًا وعشرين مقامًا من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى؟ قلت: نعم يا سيدي، فقال: منذ متى أنت ههنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدثني بشيء، فقال: أحدثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل، فدوَّرني

---

(١) الكتاب ضمن مجموعة (رسائل الإمام الغزالي) (ص: ٥٦٥ – ٥٧٩)، بدأه بقوله: (الموعظة الأولى: يقول الله تعالى: يا ابن آدم! عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ...)، وختمه بقوله: (الموعظة الثامنة والثلاثون: يقول الله عز وجل: يا ابن آدم! افعل الخير، فإنه مفتاح الجنة ويقود إليها، واجتنب الشر فإنه مفتاح النار ويقود إليها، يا ابن آدم! اعلم أن الذي تبنيه للخراب، وأن عمرك للخراب، وجسدك للتراب، ...) وذكر حديثا طويلا، ولم يذكر في أي حديث منها من رواه، وكلها أحاديث موضوعة، وقليل منها تجد فيه جملة من حديث صحيح أو ضعيف، ويكون باقي سياق الحديث موضوع، والله المستعان!

في الملكوت السفلى، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوَّف بي في السموات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، وحُكي أن أبا تراب التخشبي قال لبعض المريدين: لو رأيت أبا يزيد! فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد؟ قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد، قال أبو تراب: ويلك تغتر بالله ﷻ؟! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع، فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد، فنظر إليه الفتى فصعق فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله! قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقًا، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك! وقال سهل التستري: إن لله عبادًا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يُستطاع ذكرها حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها! وهذه أمور ممكنة في أنفسها، فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة واسعة، والفضل عميم، وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها، وفضله على عباده الذين

اصطفى لا غاية له، فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها)[١].

وإن المطلع على كتب الغزالي عفا الله عنا وعنه يجد فيها علما نافعا، وخيرا كثيرا، ونصائح ومواعظ طيبة، لكنها مخلوطة بعجائب من التصوف الفلسفي والبدع.

قال تلميذه أبو بكر بن العربي المالكي ﷺ: (كان أبو حامد تاجا في هامة الليالي، وعقدا في لبة المعالي، حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج على الحقيقة، وحاد في أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق، فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين، فإذا ذكروه جعلوه في حيز العدم، وقرعوا عليه السن من ندم، وقاموا في التأسف عليه على قدم، فإذا لقيته رأيت رجلا قد علا في نفسه، ابن وقته، لا يبالي بغده ولا أمسه، فواحسرتي عليه)[٢].

وقال أبو عمرو بن الصلاح الشافعي ﷺ في ترجمته للغزالي: (أتى بخلطه المنطق بأصول الفقه بدعة عظم شؤمها على المتفقهة، حتى كثر - بعد ذلك -

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧) باختصار، وإن القلب ليحزن حين يجد مثل هذه الحكايات الباطلة في كتاب إمام جليل من أئمة المسلمين، وقد استنكرت في صغري بفطرتي ما في هذا الكلام من أن لله عبادا لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها، وذلك حين قرأت كتاب إحياء علوم الدين كاملا وعمري نحو ١٤ عاما.

(٢) العواصم من القواصم تحقيق عمار طالبي (ص: ٧٨).

فيهم المتفلسفة، والله المستعان! ولأبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم الأصولي -وكان إماما محققا بارعا في مذهبي مالك والأشعري، وله تصانيف في فنون- رسالة يذكر فيها حال الغزالي وحال كتابه الإحياء، أصدرها في حياة الغزالي، فذكر فيها ما اختصاره: أن الغزالي كان قد خاض في علوم وصنف فيها، واشتهر بالإمامة في إقليمه، وبرع حتى تضاءل له المنازعون، استبحر في الفقه، وفي أصول الفقه، وهو بالفقه أعرف، وأما أصول الدين فليس بالمستبحر فيها، شغله عن ذلك قراءته علوم الفلسفة، وكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعاني، وتسهيلا للهجوم على الحقائق؛ لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها شرع يردعها، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها، فلذلك خامره ضرب من الإدلال على المعاني، فاسترسل فيها استرسال من لا يبالي بغيره! قال: وقد عرفني بعض أصحابه أنه كان له عكوف على قراءة رسائل إخوان الصفا، وهذه الرسائل إحدى وخمسون رسالة، كل رسالة مستقلة بنفسها، وقد ظن في مؤلفها ظنون، وفي الجملة هو رجل فيلسوف قد خاض في علوم الشرع، فمزج ما بين العلمين، وحسن الفلسفة في قلوب أهل الشرع بآيات وأحاديث يذكرها عندها، ثم إنه كان في هذا الزمان المتأخر فيلسوف يعرف بابن سينا، ملأ الدنيا تواليف في علوم الفلسفة، وكان ينتمي إلى الشرع، ويتحلى بحلية المسلمين، وأداه قوته في علم الفلسفة إلى أن تلطف جهده في رد أصول العقائد إلى علم الفلاسفة، وتم له من ذلك ما لم يتم لغيره من الفلاسفة، ووجدت هذا الغزالي يعول عليه في أكثر ما يشير إليه في علوم الفلسفة، حتى إنه في بعض الأحايين ينقل نص كلامه من غير

تغيير، وأحيانا يغيره بنقله إلى الشرعيات أكثر من نقل ابن سينا، لكونه أعلم بأسرار الشرع منه، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل إخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة)[١].

وقال ابن تيمية ﵀: (هؤلاء الذين لا يعرفون الأحاديث الصحيحة من الضعيفة، ولا يعرفون دلالة الألفاظ حتى يميزوا ما هو تأويل مخالف للظاهر وما ليس تأويلا مخالفا للظاهر، فلقلة معرفتهم بأعلام الهدى وهي ألفاظ الرسول ﷺ ووجه دلالتها يقعون في الحيرة والاضطراب، حتى لا يميزوا بين ما يقبل من كلام الفلاسفة والمتكلمين وما يرد، بل تارة يوافقونهم، وتارة يخالفونهم، وتارة يكفرونهم، فهم دائما متناقضون، في قول مختلف، يؤفك عنه من أفك، وأبو حامد من خيارهم وأعلمهم وأدينهم، وهو مع هذا يكفر الفلاسفة فضلا عن أن يضللهم تارة، وتارة يجعل ما كفرهم به من العلم المضنون به على غير أهله، ويضلل المتكلمين تارة، ويجعل طريقهم ليس فيها بيان للحق، وتارة يجعلها عمدته وأصله الذي يضلل من خالفه، وكذلك تارة يقول في الصوفية الأقوال المتناقضة، فتارة يجعلهم خاصة الأمة، ويفضلهم على الفقهاء، وتارة يمنع إعطاءهم الزكاة، ويوجب عليهم الاكتساب، مع إباحته إعطاء الزكاة للمتفقهة، وإن كان في آخر عمره مال إلى طريقة أهل الحديث، وكان كثير المطالعة لصحيح البخاري، وبذلك ختم عمله، وعليه مات، وهو

(١) طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٢٥٤ - ٢٥٧).

أفضل أحواله، والله تعالى يغفر لنا ولسائر إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا يجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، ومع هذا فأبو حامد لم يعرف في كلامه خروج إلى الشرك وعبادة الأوثان، بل غاية ما ينتهي إليه ضلال الصابئين من المتفلسفة ونحوهم)[١].

وقال الذهبي رحمه الله: (للغزالي غلط كثير، وتناقض في تواليفه العقلية، ودخول في الفلسفة، وشكوك، ومن تأمل كتبه العقلية رأى العجائب)[٢].

وهذه نماذج من أقوال الغزالي غفر الله لنا وله، لا نذكرها تتبعًا لأخطائه، وإنما بيانا لحاله، وإن كنا نحبه ونجله، ونرجو أن الله سبحانه أحسن خاتمته:

١) قال الغزالي عن علم المكاشفة: (هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها، فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك، حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية ظهور الملَك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض... وهذه هي العلوم التي لا تُسطَّر في الكتب، ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٦/ ١٣٢ - ١٣٤).

(٢) تاريخ الإسلام (١١/ ٧١).

بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه، على سبيل المذاكرة، وبطريق الإسرار، وهذا هو العلم الخفي!)[١].

٢) قال الغزالي في مقدمة كتابه (مشكاة الأنوار) الذي ألفه للخاصة: (أما بعد فقد سألتني أيها الأخ الكريم أن أثبت إليك أسرار الأنوار الإلهية، مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية،... ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعبًا تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين، وقرعت بابًا مغلقًا لا يُفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يُكشف ويُفشى، ولا كل حقيقة تُعرض وتُجلى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولقد قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر!)[٢].

٣) قال الغزالي: (الأولياء والأنبياء انكشفت لهم الأمور، وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها، لا بالتعلم، بل بالزهد في الدنيا، والإعراض والتبري عن علائقها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له، حتى أن في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذا الطريق، شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن، فمنعني وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية، بل تصير إلى حالة يستوي عندك

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٩، ٢٠).
(٢) مشكاة الأنوار (ص: ٣٩).

وجودها وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب مجموع الهم، مقبلا بذكرك على الله تعالى، وذلك في أول الأمر، بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى، فلا تزال تقول: الله الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان، لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، لكثرة اعتياده. ثم تصير مواظبا عليه إلى أن يمحى أثر اللسان، فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على هذا الذكر، من غير حركة اللسان. ثم تواظب إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ، وهيئات الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد حاضرا في قلبك على اللزوم والدوام. ولك اختيار إلى هذا الحد فقط، ولا اختيار بعده لك، إلا في استدامة لدفع الوساوس الصارفة. ثم ينقطع اختيارك، فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء، وهو بعض ما يظهر للأنبياء، قد يكون أمرا كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود، وقد يتأخر، فإن عاد فقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد لا يقتصر على فن واحد، ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى، لتفاوت خلقهم وأخلاقهم... فكل من رغب في السلوك، فقد كبر شأنه، فالأولى به أن يقتنع بطريق الصوفية، وهو المواظبة على العبادة، وقطع العلائق، فإن البحث عن العلوم الكسبية لتحصل ملكة كتابته في

النفس شديد، ولا يتيسر إلا في عنفوان العمر، والتعلم في الصغر كالنقش على الحجر، ومن العناء رياضة الهرم)[(١)].

٤) قال الغزالي ناصحا طالب العلم في بيان المذهب الحق: (يناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه، فإن وقع له مسترشد تركي أو هندي، أو رجل بليد جلف الطبع، وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته في مكان، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه، لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى، ويكذب به، فينبغي أن يقرر عنده أن الله تعالى على العرش، وأنه يرضيه عبادة خلقه، ويفرح بها فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضا وجزاء، وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يكشف له، فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف، ويكون مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه)[(٢)].

٥) قال الغزالي: (أنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله لا تستقصى إلا بعد شرح جميع العلوم الخفية، وذلك لا رخصة في ذكره، وقد يجوز إظهاره حتى لا يقع المغرور فيها)[(٣)]، والعجيب في هذا النقل إشارته لوجود علوم

---

(١) ميزان العمل (ص: ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧).

(٢) ميزان العمل (ص: ٤٠٧).

(٣) أصناف المغرورين (ص: ٧٥)، وهو كتاب صغير مفيد، مع وجود بعض الملاحظات عليه، لا سيما فيما يتعلق بالصوفية، فقد أشار الغزالي فيه إلى أن من أحوال الصادقين من الصوفية السماع والرقص! يُنظر: أصناف المغرورين (ص: ٦٧).

خفية في الشريعة الإسلامية، مع أنه معلوم أن الشريعة الإسلامية قد بينها الله سبحانه ورسوله ﷺ!

٦) قال الغزالي معددا آداب السماع: (أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأن التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط... نعم، لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة؛ لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به؛ لئلا يصغر في أعين الناس، فيُترك الاقتداء به)[١].

٧) قال الغزالي: (فإن قلت: فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع، فإنهم يمزقونها قطعا صغارا، ويفرقونها على القوم، ويسمونها الخرقة؟ فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات، فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص، ولا يكون ذلك تضييعا؛ لأنه تمزيق لغرض، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار، وذلك مقصود، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح)[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٤).

٨) قال الغزالي: (العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات، فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وأما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف وهذه الجهات هو الذي خلقها... قد ظهر استحالة كونه جوهرا أو عرضا فاستحال كونه مختصا بالجهة، وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا في الاسم مع المساعدة على المعنى، ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر أو أكبر، وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر، ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر، فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء)[(١)]. قلت: رد على أبي حامد الغزالي في كلامه هذا شيخ الشافعية في اليمن ابن أبي الخير العِمراني فقال: (قالت الأشعرية: لا يجوز وصفه بأنه على العرش ولا في السماء... وأما الأشعرية فقالوا: إذا قلتم: إنه على العرش أفضى إلى أنه يكون محدودا أو أنه يفتقر إلى مكان وجهة تحيط به، وتعالى الله عن ذلك، والجواب: أنا وإن قلنا إنه على العرش كما أخبر بكتابه وأخبر به نبيه ﷺ فلا نقول: إنه محدود، ولا إنه يفتقر إلى مكان، ولا تحيط به جهة ولا مكان، بل كان ولا مكان ولا زمان، ثم خلق المكان والزمان، واستوى على العرش بلا كيفية، ولم يخلق العرش لحاجة، بل كما حكي عن ذي النون المصري لما قيل له: ما أراد الله بخلق العرش؟ فقال: أراد الله أن لا تتيه قلوب

(١) قواعد العقائد (ص: ١٦٢).

العارفين، ولم يخلقه لحاجته إليه، فإذا قيل للعبد المؤمن: أين الله؟ قال: على العرش، وقد صرح القاضي أبو بكر الباقلاني الأشعري في التمهيد بالقول في هذه المسألة كما قال أصحاب الحديث. وأما الغزالي فخالفهم وقال: أما رفع الأيدي في الدعاء إلى السماء فلأنها قبلة الدعاء كما أن البيت قبلة الصلاة، وهذا تمويه منه ومعاندة لما ورد به القرآن والسنة، وما عليه العلماء من الصحابة والتابعين. وأما قوله: إن السماء قبلة الدعاء، فيقال له: لو كان هذا كما قلت لم يصح الدعاء إلا لمن توجه بيديه إلى السماء كما لا تصح الصلاة إلا لمن توجه إلى الكعبة!)[١].

٩) قال الغزالي: (أكثر الناس مُشبِّهة، ولكن التشبيه درجات، منهم من يشبه في الصورة، فيثبت اليد والعين والنزول والانتقال، ومنهم من يثبت السخط، والرضى، والغضب، والسرور، والله تعالى مقدس عن جميع ذلك، وإنما أطلقت هذه الألفاظ في الشرع على سبيل وبتأويل، يفهمها من يفهمها، وينكرها من ينكرها)[٢].

١٠) قال الغزالي: (الله سبحانه قادر عالم حي مريد سميع بصير متكلم، فهذه سبعة صفات،... لا نثبت في حق الله تعالى إلا كلام النفس... كلام الله

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٦٠٩، ٦٢٠ - ٦٢٣).

(٢) ميزان العمل (ص: ٤٠٥).

تعالى هو صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى ليس بحرف ولا صوت)[١].

١١) قال الغزالي: (الله تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب، بل إن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم، وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين، ولا يستحيل ذلك في نفسه، ولا يناقض صفة من صفات الإلهية)[٢]. قلت: سبحان الله! ما هذا التكلف؟! وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لو تفتح عمل الشيطان»[٣]، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، ويكفي المسلم أن يعلم أن الله فعال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير، وأنه ليس بظلام للعبيد.

١٢) قال الغزالي: (وقل عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهر قلبي من النفاق، وحصِّن فرجي من الفواحش... ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كي لا يصيبك الرشاش، وقل: بسم الله الرحمن الرحيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب بأن يحضرون، ثم اغسل يديك ثلاثا قبل أن تدخلهما الإناء، وقل: اللهم إني أسألك اليُمن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة...)[٤]. ثم ذكر الغزالي دعوات عند كل عضو من أعضاء الوضوء، وهي لا أصل لها من الشرع كما قال النووي

(١) الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ٥١، ٦٨، ٧١) بتصرف يسير.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ١٠٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) بداية الهداية (ص: ٣٠، ٣١).

وغيره[1].

١٣) قال الغزالي: (واقرأ قبل غروب الشمس أربع سور من القرآن هي: والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والمعوذتين،... ويستحب يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: سورة الانعام، والكهف، وطه، ويس، فإن لم تقدر فسورة يس والدخان، و(الم) السجدة، وسورة الملك)[2]. ومعلوم أن هذا التخصيص لا دليل عليه، والاستحباب تشريع، لا بد فيه من دليل من الشرع.

١٤) قال الغزالي: (وأما علم النجوم فمقصوده معرفة الأفلاك وحركاتها وكواكبها وسائر أحكامها، وفائدته معرفة الكائنات،... فيستعمل الإنسان منه مقدار حاجته إن احتاج إليه، وإلا فالاشتغال بما يفيد أحسن؛ إذ الإنسان ذو شغل كثير، وأما ما هو كالداء فهو يضر بالنسبة إلى حالات الأشخاص، وهو كل شيء متى أوصلناه إلى شخص وجدناه يضر به، فهو داء في حقه)[3].

(١) قال النووي بعد أن ذكر بعض أدعية غسل أعضاء الوضوء: (هذا الدعاء، لا أصل له، ولم يذكره الشافعي، والجمهور، والله أعلم) يُنظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١/ ٦٢).

(٢) بداية الهداية (ص: ٤٢، ٤٩).

(٣) مجموعة رسائل الإمام الغزالي (ص: ٨٨) باختصار وتصرف.

وقد أكثرنا من النقول عن الإمام الغزالي رحمه الله؛ لأنه أعظم منظِّري التصوف الفلسفي، وأثره كبير جدا في مزج التصوف بالمذهب الأشعري، ففُتِن بذلك كثير ممن جاء بعده، لا سيما وقد اشتهر أنه مجدد المائة الخامسة، وكان يُسمَّى حجة الإسلام، ولا يُنكر المنصف محاسنه وفضائله، ونحن نحبه ونجله، ولكن الحق أحق، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا نبينا محمدا ﷺ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولقد أحسن الإمام الغزالي رحمه الله في قوله: (أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة... وهو فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا... وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا شروط الأدلة ومناهجها... فرأوا الشبه دليلا... والدليل شبهة، وأما غرور الفرقة المحقة فمن حيث إنهم ظنوا بالجدال أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله تعالى... وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يتفحص ويبحث... وإن من صدق الله تعالى من غير بحث وتحرير دليل فليس ذلك بمؤمن، وليس بكامل ولا بمقرب عند الله، ولم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، ولم يطلب منهم الدليل)[1].

قال الذهبي رحمه الله: (غلاة المعتزلة، وغلاة الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعُبَّاد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم

(١) أصناف المغرورين (ص: ٤٣، ٤٤).

على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن)[(١)].

وما أحسن ما قاله المعلمي ﵀: (واعلم أن الله تعالى قد يوقع بعض المخلصين في شيء من الخطأ ابتلاء لغيره، أيتبعون الحق ويدعون قوله أم يغترون بفضله وجلالته؟! وهو معذور بل مأجور؛ لاجتهاده وقصده الخير وعدم تقصيره؛ ولكن من تبعه مغترا بعظمته بدون التفات إلى الحجج الحقيقية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يكون معذورا، بل هو على خطر عظيم. ولما ذهبت أم المؤمنين عائشة ﵂ إلى البصرة قبل وقعة الجمل، أتبعها أمير المؤمنين علي ﵇ ابنه الحسن وعمار بن ياسر ﵄ لينصحا الناس، فكان من كلام عمار لأهل البصرة أن قال: والله إنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ﵎ ابتلاكم بها ليعلم إياه تطيعون أم هي)[(٢)].

فرحم الله أبا حامد الغزالي، وغفر الله لنا وله إسرافنا في أمرنا، وجزاه الله عنا خيرا على علومه التي أصاب فيها، فهو من العلماء الأجلاء الذين أَثْروا العلم وأَثَّروا فيمن جاء بعدهم لا سيما في الفقه وأصول الفقه ودقائق الورع والزهد، فأين نحن من علمه وفضله؟ ونقول لمن يتَّبع الغزالي على ما ثبت أنه أخطأ فيه

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٢/ ٢٩٤).

من التصوف المخالف للهدي النبوي، والدعوة إلى المذهب الأشعري المخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان: إن الله ابتلاكم بالإمام الغزالي أتتبعون الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ أم تتبعون الغزالي رحمه الله؟!

٧- أبو الفتح الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨هـ)

قال الذهبي: (محمد بن عبد الكريم أبو الفتح الشهرستاني، المتكلم، ويلقب بالأفضل، كان إماما مبرزا في علم الكلام والنظر، تفقه على أحمد الخوافي، وبرع في الفقه، وقرأ الكلام والأصول على أبي نصر ابن القشيري، وأخذ عنه طريقة الأشعري، وقرأ الكلام أيضا على الأستاذ أبي القاسم الأنصاري، وصنف كتاب (الملل والنحل)، وكتاب (نهاية الإقدام)، وغير ذلك، وكان كثير المحفوظ، مليح الوعظ، دخل بغداد سنة عشر وخمسمائة، وأقام بها ثلاث سنين، ووعظ بها، وظهر له قبول عند العوام، وقد سمع بنيسابور من أبي الحسن علي بن أحمد المديني وغيره. قال ابن السمعاني: كتبت عنه بمرو، كان متهما بالميل إلى الإسماعيلية، والدعوة إليهم، والنصرة لطاماتهم. وقال في التحبير: هو من أهل شهرستانة، كان إماما أصوليا، عارفا بالأدب والعلوم المهجورة، وهو متهم بالإلحاد والميل إليهم، غال في التشيع)[١].

(١) تاريخ الإسلام (١١/ ٩٤١) باختصار وتصرف يسير.

وقد عدَّ السبكيُّ الشهرستانيَّ من أعيان الأشاعرة[1]، وترجم له في طبقات الشافعية ترجمة مختصرة فقال: (صاحب كتاب (الملل والنحل)، وهو عندي خير كتاب صنف في هذا الباب، وفي تاريخ شيخنا الذهبي أن ابن السمعاني ذكر أنه كان متهما بالميل إلى الإسماعيلية والدعوة إليهم والنصرة لطاماتهم، وأنه قال في التحبير: إنه متهم بالإلحاد والميل إليهم، غال في التشيع، وما أدري من أين ذلك لابن السمعاني! فإن تصانيف أبي الفتح دالة على خلاف ذلك، ويقع لي هذا دس على ابن السمعاني في كتابه (التحبير)، وإلا فلِمَ لم يذكره في الذيل؟! لكن قريب منه قول صاحب الكافي: لولا تخبطه في الاعتقاد، وميله إلى أهل الزيغ والإلحاد، لكان هو الإمام في الإسلام، وأطال في النيل منه، وقال: كانت بيننا محاورات ومفاوضات، فكان يبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم، هذا كلام الخوارزمي)[2].

والناظر في كتب الشهرستاني غفر الله لنا وله يجد أن معرفته بالديانات والملل والأهواء وأقوال الفلاسفة أكثر من معرفته بمذهب السلف الصالح وأئمة الحديث!

قال الشهرستاني في مقدمة كتابه (الملل والنحل): (وبعد: فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل، وأهل الأهواء

(١) يُنظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٣٧٢).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٢٨ - ١٣٠).

والنِّحَل، والوقوف على مصادرها ومواردها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون؛ عبرة لمن استبصر، واستبصارا لمن اعتبر)[١].

وقال الشهرستاني في مقدمة كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام): (أما بعد، فقد أشار إلي من إشارته غنم، وطاعته حتم، أن أجمع له مشكلات الأصول، وأحل له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول؛ لحسن ظنه بي أني وقفت على نهايات النظر، وفزت بغايات مطارح الفكر، ولعله استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم.

لعمري لقد طفت في تلك المعاهد وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

... فعليكم بدين العجائز فهو من أسنى الجوائز)[٢].

وقال ابن تيمية: (غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه، ونفس ما بعث الله به رسوله، وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل الذي حكوا فيه أقوال الناس لا ينقلونه، لا تعمدا منهم لتركه، بل لأنهم لم يعرفوه، بل ولا سمعوه؛ لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين... والشهرستاني قد نقل في

(١) الملل والنحل (١/ ٩).

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٧).

غير موضع أقوالا ضعيفة، يعرفها من يعرف مقالات الناس، مع أن كتابه أَجْمَعُ مِنْ أَكْثَرِ الكتب المصنفة في المقالات، وأجود نقلا، لكن هذا الباب وقع فيه ما وقع، ولهذا لما كان خبيرا بقول الأشعرية وقول ابن سينا ونحوه من الفلاسفة، كان أجود ما نقله قول هاتين الطائفتين، وأما الصحابة والتابعون وأئمة السنة والحديث، فلا هو ولا أمثاله يعرفون أقوالهم، بل ولا سمعوها على وجهها بنقل أهل العلم لها بالأسانيد المعروفة، وإنما سمعوا جملا تشتمل على حق وباطل... وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة، إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن كتاب (الملل والنحل) صنفه لرئيس من رؤسائهم، وكانت له ولاية ديوانية)[(١)].

وقال عبد الرحمن المحمود: (الشهرستاني اشتهر بكتابيه (الملل والنحل) و(نهاية الإقدام)، كما كانت له ردود على الفلاسفة في كتابه (مصارعة الفلاسفة)، وأكثر ما يميز مذهبه ومنهجه:

١- العناية بنقل أقوال أصحاب المذاهب المختلفة، ويعرض المذهب الأشعري بأقوال أئمته.

٢- الانتصار للأشاعرة، والرد على مخالفيهم، والترجيح أحيانا بين المذاهب المختلفة.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٠٣ - ٣٠٦).

٣ـ مع ردوده على الفلاسفة إلا أنه تأثر ببعض أقوالهم، كقوله بجواز وجود الجواهر العقلية، والنفوس الفلكية المجردة)[(١)].

٨- أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي، (ت ٥٧١هـ)

قال الذهبي: (علي بن الحسن بن هبة الله، الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي، الشافعي، صاحب (تاريخ دمشق)، أحد أعلام الحديث، سمع بدمشق، ورحل إلى بغداد لسماع الحديث فأقام بها خمس سنين، وحج وسمع بمكة، وسمع بالكوفة، ولازم الدرس والتفقه بالمدرسة النظامية، ورحل إلى أذربيجان وخراسان وإصبهان، ورجع إلى دمشق بعلم جم، وسماعات كثيرة، وعدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ، وثمانون امرأة ونيف، وحدث بخراسان، وإصبهان، وبغداد، وصنف التصانيف المفيدة، ولم يكن في زمانه أحفظ ولا أعرف بالرجال منه، ومن تصفح تاريخه علم قدر الرجل، ذكره ابن السمعاني في تاريخه فقال: كثير العلم، غزير الفضل، حافظ، ثقة، متقن، دين، خير حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت، محتاط، رحل وتعب، وبالغ في الطلب إلى أن جمع ما لم يجمع غيره، وأربى على أقرانه. وقال ابنه القاسم: كان أبي رحمه الله مواظبا على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم في كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار، وكان يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة.

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٤٨ - ٦٥٠) باختصار وتصرف كثير.

قلت: أنا جازم أنه ما رأى مثل نفسه، هو أحفظ من جميع الحفاظ الذين رآهم من شيوخه وأقرانه. وذكره ابن النجار في تاريخه فقال: إمام المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرياسة في الحفظ الإتقان والمعرفة التامة والثقة، وبه ختم هذا الشأن. قلت: وهو مع جلالته وحفظه يروي الأحاديث الواهية والموضوعة ولا يبينها، وكذا كان عامة الحفاظ الذين بعد القرون الثلاثة، إلا من شاء ربك فليسألنهم الله تعالى عن ذلك. وأي فائدة بمعرفة الرجال ومصنفات التاريخ والجرح والتعديل إلا كشف الحديث المكذوب وهتكه؟ قال ابنه أبو محمد: توفي أبي في حادي عشر رجب، وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين، وصليت عليه في الجامع، والشيخ قطب الدين في الميدان الذي يقابل المصلى، ورأى له جماعة من الصالحين منامات حسنة، ورثي بقصائد، ودفن بمقبرة باب الصغير)[1].

وقال السبكي: (الإمام الجليل، حافظ الأمة، أبو القاسم بن عساكر، ناصر السنة وخادمها، وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذه الحفاظ، ولا ينكر أحد منهم مكانه، محط رحال الطالبين، وموئل ذوي الهمم من الراغبين، الواحد الذي أجمعت الأمة عليه، والواصل إلى مالم تطمح الآمال إليه، والبحر الذي لا ساحل له، والحبر الذي حمل أعباء السنة كاهله، قطع الليل والنهار دائبين في دأبه، وجمع نفسه

(١) تاريخ الإسلام (١٢/ ٤٩٣ - ٥٠٠).

على أشتات العلوم لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبين وهما منتهى أربه، حفظ لا تغيب عنه شاردة، وضبط استوت لديه الطريفة والتالدة، وإتقان ساوى به من سبقه إن لم يكن فاقه، وسعة علم أثرى بها وترك الناس كلهم بين يديه ذوي فاقة، له تاريخ الشام في ثمانين مجلدة وأكثر أبان فيه عما لم يكتمه غيره وإنما عجز عنه، ومن طالع هذا الكتاب عرف إلى أي مرتبة وصل هذا الإمام، واستقل الثريا وما رضي بدر التمام، وله (الأطراف)، و(تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)، وعدة تصانيف وتخاريج وفوائد ما الحفاظ إليها إلا محاويج... عدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة، وارتحل إلى العراق ومكة والمدينة، وارتحل إلى بلاد العجم، فسمع بأصبهان ونيسابور ومرو وتبريز وميهنة وبيهق وخسروجرد وبسطام ودامغان والري وزنجان وهمذان وأسداباذ وجي وهراة وبون وبغ وبوشنج وسرخس ونوقان وسمنان وأبهر ومرند وخوى وجرباذقان ومشكان وروذراور وحلوان وأرجيش، وسمع بالأنبار والرافقة والرحبة وماردين وماكسين وغيرها من البلاد الكثيرة... وكان قد تفقه في حداثته بدمشق على الفقيه أبي الحسن السلمي، ولما دخل بغداد لزم بها التفقه وسماع الدروس بالمدرسة النظامية، وقرأ الخلاف والنحو، ولم يزل طول عمره مواظبا على صلاة الجماعة، ملازما لقراءة القرآن، مكثرا من النوافل والأذكار والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار... وكان يسمى ببغداد شعلة نار من توقده وذكائه وحسن إدراكه، لم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة منذ أربعين سنة، يلازم الجماعة في الصف المقدم إلا

من عذر ومانع، والاعتكاف والمواظبة عليه في الجامع، وإخراج حق الله وعدم التطلع إلى أسباب الدنيا، وإعراضه عن المناصب الدينية كالإمامة والخطابة بعد أن عرضتا عليه... وقال فيه الشيخ محي الدين النووي: هو حافظ الشام، بل هو حافظ الدنيا، الإمام مطلقا، الثقة الثبت،... وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له دار الحديث النورية، فدرَّس بها إلى حين وفاته، غير ملتفت إلى غيرها، ولا متطلع إلى زخرف الدنيا، ولا ناظر إلى محاسن دمشق ونزهها، بل لم يزل مواظبا على خدمة السنة والتعبد باختلاف أنواعه صلاة وصياما واعتكافا وصدقة ونشر علم وتشييع جنائز وصلات رحم إلى حين قُبِض رحمه الله تعالى ورضي عنه)[(١)].

وقال السبكي: (كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعري) الذي صنفه الحافظ ابن عساكر هو من أجل الكتب وأعظمها فائدة وأحسنها، فيقال: كل سني لا يكون عنده كتاب التبيين لابن عساكر فليس من أمر نفسه على بصيرة، ويقال: لا يكون الفقيه شافعيا على الحقيقة حتى يحصل كتاب التبيين لابن عساكر، وكان مشيختنا يأمرون الطلبة بالنظر فيه)[(٢)].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٧/ ٢١٥ - ٢٢٣).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٣٥١، ٣٥٢). ولابن المبرد الصالحي الحنبلي رحمه الله (ت ٩٠٩ هـ) كتاب: (جمع الجيوش والدساكر على ابن عساكر)، رد فيه على ما أورده ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري، وفيه فوائد حسنة، لكنه خشَّن فيه العبارة، وأغلظ في الرد على ابن عساكر، وسرد في آخره العلماء المجانبين لعقيدة الأشعري، وذكر منهم بعض من عدهم ابن عساكر من الأشاعرة، والله أعلم =

وقال عبد الرحمن المحمود: (ابن عساكر اشتهر كمدافع عن المذهب الأشعري في كتابه المشهور شهرة واسعة: (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري)، وقد كان لخلفيته الحديثية والتاريخية أثر في منهج الكتاب، وقدرته على الدفاع عن أبي الحسن الأشعري، كما أن هذا الكتاب يصح أن يسمى طبقات الأشاعرة؛ لأنه ترجم لأعلامهم منذ الأشعري وإلى عصره)[(١)].

رحم الله الحافظ ابن عساكر، فلو لم يؤلف إلا كتابه الكبير (تاريخ دمشق) المطبوع في ٧٤ مجلدا لكان حقا علينا أن نستغفر له ونترحم عليه، فكم حفظ لنا في كتابه هذا من روايات وأسانيد! وكم تضمن كتابه من درر نفيسة في تراجم العلماء الذين بلغ عددهم في تاريخه أكثر من عشرة آلاف! فنسأل الله أن يغفر له ما أخطأ فيه من الدعوة إلى المذهب الأشعري، وغالب الظن أنه لم يتبين له ما وقع في المذهب الأشعري من تطور وتأثر بعلم الكلام والفلسفة والتصوف المذموم، فإنه من كبار المحدثين المعرضين عن علم الكلام والفلسفة وخرافات المتصوفة، والعالم من عُدَّت هفواته، وأُحصِيت سقطاته، وكفى المرء نُبلا أن تُعد معايبه.

= بعباده، ونسأل الله أن يغفر لنا جميعا بفضله.

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٥٠) باختصار.

٩- فخر الدين الرازي محمد بن عمر، (ت ٦٠٦هـ)

قال الذهبي: (العلامة فخر الدين أبو عبد الله القرشي البكري التيمي، الطبرستاني الأصل، الرازي، ابن خطيب الري، الشافعي المفسر المتكلم، صاحب التصانيف، قال ابن أبي أصيبعة: انتشرت في الآفاق مصنفات فخر الدين وتلامذته، وكان إذا ركب مشى حوله نحو ثلاث مائة تلميذ فقهاء، وغيرهم، وكان خوارزم شاه يأتي إليه، وكان شديد الحرص جدا في العلوم الشرعية والحكمية، حاد الذهن، كثير البراعة، قوي النظر في صناعة الطب، عارفا بالأدب، له شعر بالفارسي والعربي، كانوا يقصدونه من البلاد على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفننهم، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه منه، قرأ الفلسفة على المجد الجيلي، وكان المجد من كبار الفضلاء وله تصانيف، وقال القاضي شمس الدين ابن خلكان فيه: فريد عصره، ونسيج وحده، وشهرته تغني عن استقصاء فضائله، وتصانيفه في علم الكلام والمعقولات سائرة في الآفاق، وكل تصانيفه ممتعة، ورُزِق فيها سعادة عظيمة، وانتشرت في الآفاق، وأقبل الناس على الاشتغال فيها، ورفضوا كتب المتقدمين، وكان يحضر مجلسه أرباب المقالات والمذاهب ويسألونه، ورجع بسببه خلق كثير من الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة، وكان يلقب بهراة شيخ الإسلام. ويقال: إنه كان يحفظ كتاب (الشامل) في علم الكلام لإمام الحرمين، ولما وصل إلى السلطان شهاب الدين الغوري، بالغ في إكرامه والإنعام عليه، وحصلت له منه أموال عظيمة، واتصل بالسلطان خوارزم شاه

محمد بن تكش، وحظي عنده، ونال أسمى المراتب. وكان يكثر البكاء حال الوعظ، وكان لما أثرى لازم الأسفار والتجارة، وعامل شهاب الدين الغوري في جملة من المال، ومضى إليه لاستيفاء حقه، فبالغ في إكرامه، ونال منه مالا طائلا، ومناقبه أكثر من أن تعد، وفضائله لا تحصى ولا تحد. وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي وأبو شامة: اعتنى الفخر الرازي بكتب ابن سيناء وشرحها، وكان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سبا وتكفيرا، وقيل: إنهم وضعوا عليه من سقاه السم فمات، وكانوا يرمونه بالكبائر، ولا كلام في فضله، وإنما الشناعات قائمة عليه بأشياء؛ منها أنه كان يقرر مسائل الخصوم وشبههم بأتم عبارة، فإذا جاء بالأجوبة، قنع بالإشارة، ولعله قصد الإيجاز، قال أبو شامة: وقد رأيت جماعة من أصحابه قدموا علينا دمشق، وكلهم كان يعظمه تعظيما كبيرا، ولا ينبغي أن يسمع فيمن ثبتت فضيلته كلام يستبشع، لعله من صاحب غرض من حسد، أو مخالفة في مذهب أو عقيدة. قلت: وتفسيره الكبير في اثنتي عشرة مجلدة كبار سماه (مفاتيح الغيب)، وله كتاب (عيون الحكمة) فلسفة، وكتاب في الرمل، وكتاب في الهندسة، وكتاب (الاختبارات العلائية) فيه تنجيم، وكتاب (الاختبارات السماوية) تنجيم، وكتاب (الملل والنحل)، وكتاب (الطب الكبير)، ومصنفات كثيرة ذكرها الموفق ابن أبي أصيبعة، وقال: كان خطيب الري، وكان أكثر مقامه بها، وتوجه إلى خوارزم ومرض بها، وامتد مرضه أشهرا، ومات بهراة بدار السلطنة، وكان علاء الملك وزير خوارزم شاه قد تزوج بابنته،

وكان لفخر الدين أموال عظيمة، ومماليك ترك وحشم وتجمل زائد، وعلى مجلسه هيبة شديدة. ومن شعره:

نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلام فخر الدين قال: رأيت الأصلح والأصوب طريقة القرآن، وهو ترك التعمق والاستدلالات بأقسام أجسام السماوات والأرضين على وجود الرب ثم ترك التعمق، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل، فأقرأ في التنزيه قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، وأقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وعلى هذا القانون فقس، وأقول من صميم القلب من داخل الروح: إني مقر بأن كل ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل، فهو لك، وكل ما فيه عيب ونقص، فأنت منزه عنه. وأقول: إن عقلي وفهمي قاصر عن الوصول إلى كنه صفة ذرة من مخلوقاتك. قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح: حدثني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع الفخر الرازي يقول: ليتني لم أشتغل بالكلام، وبكى. وقال في وصيته لما احتضر لتلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني: لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية؛ فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلالة لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية،

وكل ما ورد في القرآن والصحاح، المتعين للمعنى الواحد، فهو كما هو، وأقول: ديني متابعة الرسول محمد ﷺ، وكتابي القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما، وأما الكتب التي صنفتها، واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه، على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيئ؛ فإني ما أردت إلا تكثير البحث، وشحذ الخاطر، والاعتماد في الكل على الله)(١).

وقال القفطي، وهو معاصر له: (كان في زمننا الأقرب، قرأ علوم الأوائل وأجادها، وحقق علم الأصول، ودخل خراسان، ووقف على تصانيف أبي علي بن سينا والفارابي، وعلم من ذلك علما كثيرا،... واستوطن مدينة هراة، وتملك بها ملكا، وأولد أولادا، وأقام بها حتى مات، ودفن بظاهر هراة عند جبل قريب منها، وأُظهِر ذلك، والحقيقة أنه دُفِن في داره، وكان يُخشى أن العوام يمثِّلون بجثته؛ لما كان يظن به من الانحلال)(٢).

وقال الحافظ ابن حجر عن الفخر الرازي: (كان في أول أمره فقيرا، ثم اتفق أنه صاهر تاجرا متمولا له ولدان فزوجهما ابنتيه، ومات التاجر فتقلب الفخر في ذلك المال، وصار من رؤساء ذلك الزمان، يقوم على رأسه خمسون مملوكا بمناطق الذهب وحلل الوشي، وكان قال للسلطان يوما: نحن في ظل سيفك،

---

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ١٣٧ - ١٤٤) باختصار وتصرف كثير.

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص: ٢٢٠).

فقال له السلطان: ونحن في شمس علمك! وكانت له أوراد من صلاة وصيام لا يخل بها، وكان مع تبحره في الأصول يقول: من التزم دين العجائز فهو الفائز. وكان يعاب بإيراد الشُّبَه الشديدة ويقصّر في حلها، ورأيت في (الإكسير في علم التفسير) للنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي ومن تفسير الإمام فخر الدين إلا أنه كثير العيوب، فحدثني شرف الدين النصيبي عن شيخه سراج الدين الشرمساحي المغربي أنه صنف كتاب المآخذ في مجلدين بيَّن فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيرا ويقول: يورد شُبه المخالفين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء! قال الطوفي: ولعمري إن هذا دأبه في كُتبه الكلامية والحكمية حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله؛ لأنه لو كان اختار قولا أو مذهبا ما كان عنده من يخاف منه حتى يتستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ قواه في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية، وقد صرح في مقدمة (نهاية العقول) أنه يقرر مذهب خصمه تقريرا لو أراد خصمه أن يقرره لم يقدر على الزيادة على ذلك! وذكر السكوني أن الرازي قال في كتبه في الأصول: إن مذهب الجبر هو المذهب

الصحيح، وقال بنفي صفات الله، وزعم أنها مجرد نسب وإضافات كقول الفلاسفة!)[١].

وأكثر من رد على أخطاء الفخر الرازي العقدية ابن تيمية، وهو من أعرف الناس بأقواله، قال ابن تيمية عن الرازي: (هو كثير التناقض، يقول القول ثم يرجع عنه، ويقول في الآخر ما يناقضه، كما يوجد هذا في عامة كتبه، تغمده الله برحمته، وعفا عنه وسائر المؤمنين، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، وتوبته معروفة مشهورة)[٢].

وقال عبد الرحمن المحمود: (**حياة الرازي برز فيها جانبان:**

الأول: رحلاته المتكررة، إلى كل من خوارزم، وطوس، وبلاد ما وراء النهر، وهراة التي استقر ومات بها، وقد جرت له في رحلاته مناظرات عديدة مع المعتزلة والكرامية وغيرهم، وكثيرًا ما تشتد الخصومة بينه وبين معارضيه فيضطر إلى مغادرة المكان الذي هو فيه.

---

(١) لسان الميزان (٦/ ٣١٩، ٣٢٠) باختصار وتصرف يسير. ويُنظر: الإكسير في علم التفسير للطوفي (ص: ٥٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٥٢٩، ٥٣٠).

الثاني: اتصاله بالملوك والسلاطين، وتأليفه أغلب كتبه لهم، وقد استفاد من صلته بهم - خاصة خوارزم شاه وولده محمدًا - مالًا وجاهًا عريضًا)[1].

منهج الرازي وأثره في تطور المذهب الأشعري[2].

أولًا: يمثل الرازي مرحلة خطيرة في مسيرة المذهب الأشعري، فقد ترك مؤلفات عديدة دافع فيها عن المذهب الأشعري بكل ما يملكه من حجج عقلية، كما أنه أفاض في بعضها في دراسة الفلسفة، فوافق أصحابها حينًا وخالفهم حينًا آخر، بل وصل الأمر به إلى أن يؤلف في السحر والشرك ومخاطبة النجوم! وقد اختلفت آراء الناس فيه بين مادح وقادح، ومدافع عنه منافح، وناقد له جارح، وقد انتهى في آخر عمره إلى أن الحق في الرجوع إلى مذهب أهل الحديث، وهو الاستدلال بالكتاب والسنة، ولكن بقيت المشكلة في مؤلفاته الكلامية والفلسفية التي انتشرت؛ لذلك اختلفت أقوال الناس فيه وفي مؤلفاته:

فتاج الدين السبكي - على عادته في ترجمة الأشاعرة - كال له المدح كيلًا بلا حساب[3]، وقال في كتابه (معيد النعم) بعد أن بين ضرر الفلسفة وأعلامها

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٥١، ٦٥٢).

(٢) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٦٥٤ - ٦٧٥).

(٣) ترجمه السبكي في طبقات الشافعية (٨/ ٨١، ٨٢) ترجمة مختصرة قال فيها: (إمام المتكلمين، ذو الباع الواسع في تعليق العلوم، والاجتماع بالشاسع من حقائق المنطوق والمفهوم، ... خاض من العلوم في بحار عميقة، وراض النفس في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة، أما الكلام فكل ساكت خلفه، وكيف =

كابن سينا: (فلقد حصل ضرر عظيم على المسلمين بمزج كلام الحكماء بكلام المتكلمين،... فإن قلت: فقد خاض حجة الإسلام الغزالي والإمام فخر الدين الرازي في علوم الفلسفة ودونوها، وخلطوها بكلام المتكلمين فهلا تنكر عليهما! قلت: إن هذين إمامان جليلان، ولم يخض واحد منهما في هذه العلوم حتى صار قدوة في الدين، وضربت الأمثال باسمهما في معرفة علم الكلام على طريقة أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، فإياك أن تسمع شيئا غير ذلك فتضل ضلالا مبينا، فهذان إمامان عظيمان، وكان حقا عليهما نصر المؤمنين، وإعزاز هذا الدين بدفع ترهات أولئك المبطلين، فمن وصل إلى مقامهما لا ملام عليه بالنظر في الكتب الفلسفية، بل هو مثاب مأجور)[(١)].

ومن الذين دافعوا عن الرازي ابن خلكان فقد قال عن الرازي ومؤلفاته: (له التصانيف المفيدة في فنون عديدة، منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله،... وفي أصول الفقه (المحصول) و(المعالم)، وفي الحكمة (الملخص) و(شرح الإشارات لابن سينا) و(شرح عيون الحكمة) وغير ذلك، وفي الطلسمات (السر المكتوم)... وله في الطب (شرح الكليات للقانون)، وصنف في علم الفراسة، وله مصنف في (مناقب

= لا وهو الإمام؟! رد على طوائف المبتدعة وهد قواعدهم).

(١) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٦٥).

الشافعي)، وكل كتبه ممتعة، وانتشرت تصانيفه في البلاد، ورزق فيها سعادة عظيمة؛ فإن الناس اشتغلوا بها، ورفضوا كتب المتقدمين)[(١)].

أما الذين انتقدوا الرازي فكثيرون، منهم الذهبي قال عنه: (صاحب التصانيف، رأس في الذكاء والعقليات، لكنه عري من الآثار، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث حيرة، نسأل الله أن يثبت الايمان في قلوبنا، وله كتاب (السر المكتوم في مخاطبة النجوم)، سحر صريح، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى)[(٢)].

وقال عنه الشهرزوري: (أورد على الحكماء شكوكًا وشبهًا كثيرة، وما قدر أن يتخلص منها، وأكثر من جاء بعده ضل بسببها... متحير في مذاهبه التي يخبط فيها خبط عشواء)[(٣)].

وقال ابن تيمية: (أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، الجهمي الجبري، قد يخرج إلى حقيقة الشرك وعبادة الكواكب والأوثان في بعض الأوقات، وصنف في ذلك كتابه المعروف في السحر وعبادة الكواكب والأوثان، مع أنه كثيرا ما يُحرِّم ذلك، وينهى عنه متبعا للمسلمين وأهل الكتب والرسالة، وينصر الإسلام وأهله في مواضع كثيرة، كما يشكك أهله ويشكك غير أهله في أكثر المواضع،

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٩).

(٢) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٤٠).

(٣) نزهة الأرواح (٢/١٤٤، ١٤٦).

وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع، فإن الغالب عليه التشكيك والحيرة أكثر من الجزم والبيان)[(١)].

وقال ابن تيمية أيضا عن الرازي: (هذا الرجل كثير السفسطة والتشكيك، فهو من أعظم المتكلمين سفسطة وتشكيكا، لا يُعرف من جنس المتكلمين من هو أعظم تقريرا للشكوك والشبهات الباطلة وأضعف جوابا عنها منه)[(٢)].

ومن ذلك كلام الرازي المتهافت في مسألة حدوث العالم، والتي لا يشك أي مسلم ولو كان عاميا في حدوث العالَم من العدم، وكم في القرآن من أدلة على أن الله خلق كل شيء، وأن الله هو الأول، ومع هذا جعل الرازي الكلام في هذه المسألة قد بلغ في العسر والصعوبة إلى حيث تضمحل أكثر العقول فيه![(٣)].

ومما قال الرازي في هذه المسألة: (العالَم إما أن يكون محدثا بمادته وصورته، وإما أن يكون قديما بمادته وصورته، وإما أن يكون قديما بمادته ومحدثا بصورته، وإما أن يكون محدثا بمادته وقديما بصورته، وإما أن يتوقف في هذه الأقسام. فهذه هي الأقسام الممكنة في هذا الباب. أما القسم الأول وهو أن يقال: العالم محدث بمادته وصورته. فهذا قول أكثر أرباب الملل والنحل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. وأما القسم الثاني: وهو أن يقال:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢١٣، ٢١٤) بتصرف يسير.

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٤٦٥).

(٣) المطالب العالية من العلم الإلهي (٤/ ٢٧).

العالَم قديم بمادته وصورته، فهذا هو قول أرسطاطاليس وأتباعه من المتقدمين والمتأخرين، ومنهم أبو نصر الفارابي، وأبو علي بن سينا... إن الكتب الإلهية ليس فيها تصريح بإثبات أن العالم محدث بمادته وصورته معا... ليس في القرآن ما يدل على حدوث الذوات... أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم سكتوا عن الخوض في هذه المسألة، وذلك يدل على أنها بلغت في الصعوبة إلى حيث تعجز العقول البشرية عن الوصول إليها، والله أعلم)[(١)].

قال ابن تيمية: (الرازي وأمثاله يدَّعون أنه ليس في السمع ما يصرح بأن الله كان وحده، ثم ابتدأ إحداث الأشياء من العدم، بل يقولون بما هو أبلغ من ذلك، كما يذكر مثل ذلك في كتاب (المطالب العالية) وغير ذلك من كتبه)[(٢)].

ثانيًا: مسألة تحتاج إلى بيان، هل كان الرازي فيلسوفًا مثل ابن سينا والفارابي وغيرهما؟ أم كان متكلمًا مناهضًا للفلسفة؟ أم أنه متكلم متفلسف يؤيد الفلاسفة حينًا ويؤيد المتكلمين حينًا آخر؟ أم أنه مر بمراحل في حياته، يميل إلى الفلسفة في مرحلة ثم يتخلى عنها إلى علم الكلام في مرحلة لاحقة؟ الأقوال الثلاثة الأولى منها لا تعارض بينها؛ لأن من وصفه بأنه فيلسوف فقد بنى قوله على كتبه الفلسفية الواضحة، ومن قال: إنه متكلم أشعري فقد بنى ذلك على

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي (٤/ ١٩، ٢٩، ٣٢، ٣٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣٢٥).

كتب الرازي التي تبنى فيها بقوة مذهب الأشاعرة، ومن قال: إنه متكلم متفلسف فقد عبر فعلًا عن ما تحويه كتبه من موافقة لأهل الفلسفة وأهل الكلام.

وقد صرح الرازي أنه قضى شطرا كبيرا من حياته في قراءة كتب الفلسفة ليرد على أهلها، ولا شك أن اطلاعه عليها أثر أثرا سيئا في فكره واعتقاده، قال الرازي: (كان أعظم الفلاسفة قدرا ارسطاليس، وله كتب كثيرة، ولم ينقل تلك الكتب أحد أحسن مما نقله الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا، الذي كان في زمن محمود بن سبكتكين، وجميع الفلاسفة يعتقدون في تلك الكتب اعتقادات عظيمة، وكنا نحن في ابتداء اشتغالنا بتحصيل علم الكلام تشوقنا إلى معرفة كتبهم لنرد عليهم، فصرفنا شطرا صالحا من العمر في ذلك، حتى وفقنا الله تعالى في تصنيف كتب تتضمن الرد عليهم)[(١)].

ثالثًا: يعتبر الرازي من الذين خلطوا الكلام بالفلسفة، وقد انتقده في ذلك بعض متأخري الأشعرية، وهو وإن خالف الفلاسفة أحيانًا، أو ردّ على بعض أعلام الأشاعرة إلا أنه وضع بعض التآليف التي أصبحت فيما بعد عمدة يعتمد عليها الأشاعرة، لا سيما كتابه (أساس التقديس) الذي يعتبر من أهم كتبه الأشعرية، وأكثرها شبهة، كتبه الرازي وأهداه للملك العادل محمد بن أيوب من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، وهو أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي[(٢)]، وقد

---

(١) يُنظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص: ٩١).

(٢) قال الفخر الرازي في مقدمة كتابه: (أما بعد، فإني وإن كنت ساكنا في أقاصي بلاد المشرق إلا أني =

رد على هذا الكتاب ابن تيمية في كتابه الكبير (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) المطبوع في ٨ مجلدات، حيث تتبع فيه أقوال الرازي، ونقضها، وبين ما فيها من أخطاء وتلبيسات ومخالفة لمذهب السلف، قال ابن تيمية في مقدمة كتابه (بيان تلبيس الجهمية): (إنما يعتمدون على ما يجدونه في كتب المتجهمة المتكلمين، وأجلُّ من يعتمدون كلامه هو أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي إمام هؤلاء المتأخرين،... فلهذا ذكرت ما ذكره أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي المعروف بابن خطيب الري، الإمام المطلق في اصطلاح المقتدين به من أهل الفلسفة والكلام، المقدم عندهم على من تقدمه من صنفه في الأنام، القائم عندهم بتجديد الإسلام، حتى قد يجعلونه في زمنه ثاني الصديق في هذا المقام، لما رده في ظنهم من أقاويل الفلاسفة والمعتزلة ونحوهم بالحجج العظام، ويقولون: إن أبا حامد ونحوه لم يصلوا إلى تحقيق ما بلغه هذا الإمام، فضلا عن أبي المعالي ونحوه ممن عندهم فيما يعظمونه من العلم

= سمعت أهل المشرق والمغرب مطبقين متفقين على أن السلطان المعظم العالم العادل المجاهد سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أفضل سلاطين الحق واليقين، أبا بكر بن أيوب لا زالت راياته في تقوية الحق والمذهب الصدق متصاعدة إلى عنان السماء، وآثار أنوار قدرته ومكنته باقية بحسب تعاقب الصباح والمساء؛ أفضل الملوك وأكمل السلاطين في آيات الفضل، وبينات الصدق، وتقوية الدين القويم، ونصرة الصراط المستقيم، فأردت أن أتحفه بتحفة سنية، وهدية مرضية، فأتحفته بهذا الكتاب الذي سميته بـ (أساس التقديس) على بعد الدار، وتباين الأقطار، وسألت الله الكريم أن ينفعه به في الدارين، بفضله وكرمه) أساس التقديس في علم الكلام (ص: ١٣، ١٤).

والجدل بالوقوف على نهاية الإقدام، وإن الرازي أتى في ذلك من نهاية العقول والمطالب العالية بما يعجز عنه غيره من ذوي الإقدام، حتى كان فهم ما يقوله عندهم هو غاية المرام، وإن كان فضلاؤهم مع ذلك معترفين بما في كلامه من كثرة التشكيك في الحقائق، وكثرة التناقض في الآراء والطرائق، وأنه موقع لأصحابه في الحيرة والاضطراب، غير موصل إلى تحقيق الحق الذي تسكن إليه النفوس وتطمئن إليه الألباب، لكنهم لم يروا أكمل منه في هذا الباب،... فإنه استقصى في هذا الباب الحجج التي للجهمية من السمعيات والعقليات، وبالغ فيها بأعظم المبالغات،... وتأول فيه الآيات والأحاديث الواردة في ذلك بما ذكره من أباطيل التأويلات، وذكر فيه ما ذكره من حجج مخالفيه، وأجاب عنها بما أمكنه من الجوابات، فكان عمدتهم في هذا الباب)[(١)].

ومما يدل على دخول الرازي في الفلسفة:

أ - اهتمامه بكتب ابن سينا وغيره، ففي (المباحث المشرقية) اعتمد كثيرًا على أقوال ابن سينا ونقلها، كما أنه شرح (الإشارات)، واختصرها، وشرح (عيون الحكمة)، وكلها لابن سينا.

ب - موافقته لأقوال الفلاسفة، وهو وإن رجع عن بعضها إلا أن أقواله وترجيحاته بقيت مدونة في كتبه، كقوله بالتنجيم، وأن للكواكب أرواحًا تؤثر في الحوادث الأرضية، وكذلك قوله في السحر، وتأليفه في ذلك كتابًا

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٨ - ١٢).

مستقلًا سماه (السر المكتوم في مخاطبة النجوم)، وقد أشار إليه الرازي وأحال عليه في بعض كتبه[1].

وقد ذهب الرازي مذهب الفلاسفة في القول بأن الكواكب أحياء ناطقة، وذهب إلى أن لها أثرا في تدبير العالم، ومما قال في ذلك: (كلام الشيخ الرئيس ابن سينا في أكثر كتبه يدل على أن النفس الفلكية المباشرة لتحريك جسم السماء: قوة جسمانية سارية في ذلك الجسم... والمختار عندي: أن النفس الفلكية جوهر مجرد عن الجسمية وعلائقها، ومع هذا فإنها موصوفة بالإدراكات الجزئية، والإرادات الجزئية، وكذلك أيضا موصوفة بالإدراكات الكلية، والإرادات الكلية، فهي عارفة بربها، وقاصدة بهذه الحركات: عبادة ربها وخالقها ومدبرها،... وسائر الأفلاك موجودة في باطن الفلك الأعظم، فهي كالأجزاء من الفلك الأعظم، ونفوسها كالقوى المتشعبة من نفس الفلك الأعظم،... فثبت بما ذكرنا: أن تدبير الحق سبحانه لعالم الأجسام إنما ابتدأ من الفلك الأعظم، الذي هو العرش، وذلك الابتداء إنما حصل بواسطة النفس الفلكية، وأما سائر النفوس الفلكية والعنصرية، فهي نتائجها وشعبها وأولادها)[2].

---

(١) يُنظر تفصيل ذلك في كتاب: فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية لمحمد صالح الزركان، ويُنظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) المطالب العالية من العلم الإلهي (٧/ ٣٤٩، ٣٥٥) باختصار وتصرف يسير.

والناظر في كتاب الرازي (المطالب العالية من العلم الإلهي)[(١)] يجد عجائب من علم السحر والتنجيم والطلاسم والشركيات، ومن أقواله في هذا الكتاب الذي حقه الإحراق، ونحزن أشد الحزن أن يكون من تأليف هذا الإمام:

١) قال الرازي: (الفصل الثامن عشر في بيان كيفية الانتفاع بزيارة الموتى والقبور، سألني بعض أكابر الملوك عن هذه المسألة، وهو الملك محمد بن سام بن الحسين الغوري، وكان رجلا حسن السيرة، مرضي الطريقة، شديد الميل إلى العلماء، قوي الرغبة في مجالسة أهل الدين والعقل،

(١) قال ابن تيمية: (المطالب العالية هي آخر ما صنفه، وجمع فيها غاية علومه) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٣)، وقال ابن تيمية أيضا: (وهو من أكبر كتبه الكلامية) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢١)، ونسب الكتاب إليه غير واحد من العلماء، منهم ابن خلكان وتاج الدين السبكي وابن حجر العسقلاني. يُنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٢٤٩)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٨٧)، لسان الميزان لابن حجر (٦/ ٣١٩)، وقال ابن كثير: (جالت أقلام فخر الدين رحمه الله في فنون كثيرة من العلوم، واتسعت دائرته، وتسلطن في فن الكلام خاصة، حتى قيل: إنه كان يحفظ (الشامل) لإمام الحرمين في ذلك، وله اختيارات كثيرة في كتب متعددة يرد بعضها بعضا، ولكن الذي صنفه على طريقة أهل الكلام (نهاية العقول)، وهو من أجود كتبه، وكذا كتاب (الأربعين)، وأما (المباحث الشرقية) فأكثرها على طريق الحكمة، ومذهب الفلاسفة، وكتابه (المطالب العالية) أجمع في ذلك كله، وهي آخر ما صنف في ذلك، ولهذا لم يتمها، وبقي عليه منها بقية، ثم قيل: إنه ندم على دخوله في هذا الفن كما قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله: أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع الفخر الرازي يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى) طبقات الشافعيين (ص: ٧٨٠)، فالندم توبة، ونسأل الله لنا وله المغفرة، ونسأل الله لنا حسن الخاتمة.

فكتبت له فيه رسالة، وأنا أذكر هاهنا ملخص ذلك الكلام،... إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان، قوي النفس، كامل الجوهر شديد التأثير، ووقف هناك ساعة، وتأثرت نفسه من تلك التربة؛ حصل لنفس هذا الزائر تعلق بتلك التربة، وقد عرفت أن لنفس ذلك الميت، تعلق بتلك التربة أيضا، فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحي، ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة، بسبب اجتماعهما على تلك التربة...)[١]. الخ ما ذكره الرازي مما فيه تبرير للتوسل بالموتى، والاستغاثة بهم، والله المستعان!

٢) قال الرازي ونعوذ بالله من هذا الكلام: (لا يمكن القطع بأن خالق المعجزات هو الله تعالى، بل لا يمتنع أن يكون فاعلها هو هذه الكواكب، ومن نظر في كتب السحر والطلسمات رأى حكايات عجيبة في هذا الباب!)[٢].

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي (٧/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) المطالب العالية من العلم الإلهي (٨/ ٥٢). وفي تفسير الرازي أثبت أن خالق المعجزات هو الله سبحانه، وهذا هو الظن بالرازي وبكل مسلم أن يعتقده. يُنظر: تفسير الرازي (٣/ ٦٢٥)، ونحن نفرح للعالم إذا أصاب الحق، ونحزن له إذا قال الباطل، ونستغفر له ولجميع المسلمين، وليت كتاب (المطالب العالية من العلم الإلهي) لا يثبت عن الرازي، وكم كنا سنفرح لو كان لغيره، ولكنه ثابت عنه بلا شك، ويثبته عنه الأشاعرة وغيرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يُنظر: شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني (٢/ ٣٥، ٤٠، ٧٣)، لسان الميزان لابن حجر (٦/ ٣١٩)، إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد للسنباوي (ص: ٨٩)، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث =

٣) قال الرازي: (مقدمة في بيان أنواع السحر، النوع الأول: وهو أعظمها قوة، وأشدها تأثيرا على ما يقال: السحر المبني على مقتضيات أحكام النجوم... فإذا طلب من الكوكب حالة مخصوصة، مناسبة لعمل مخصوص ثم جمع بين الأشياء الفعلية المناسبة لذلك الكوكب، ولذلك الأثر، فحينئذ قد حصل الفاعل القوي على ذلك الفعل، وحصلت المواد القابلة لذلك الأثر، المناسبة له، وعند الجمع بين الفاعل وبين القابل، لا بد وأن يظهر الأثر)[(١)].

٤) قال الرازي: (الطلسم عبارة عن تمزيج الأسباب السماوية الفعالة، بالأسباب المنفعلة الأرضية، لإحداث أمر مخالف للعادة، أو لمنع حدوث أمر يوافق العادة. وإذا كان كذلك، فهذا العلم إنما يتم بمعرفة الأسباب الفعالة السماوية، ومعرفة الأسباب القابلة الأرضية، فمن عرف هذين النوعين، وقدر على الجمع بينهما: وصل إلى غرضه)[(٢)].

٥) قال الرازي ونحزن أشد الحزن على ما قاله من هذا الضلال المبين: (إن أصحاب الأحكام أثبتوا لكل كوكب معنى من الطعوم والروائح، والأزمنة

= لخالد علال (ص: ١٧٠)، وانظر كلام هاني حامز الأشعري محقق كتاب الإشارة في علم الكلام للرازي (ص: ٢٨، ٢٩).

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي (٨/ ١٤٣).

(٢) المطالب العالية من العلم الإلهي (٨/ ١٦٧).

والأمكنة، والأشكال والصور، فإذا أراد الإنسان تحصيل أمر من الأمور، علم أن ذلك العمل لا يصدر إلا من الكوكب الفلاني، فحينئذ يسعى في تقوية ذلك الكوكب من جميع الوجوه التي قد بيناها، ثم يجمع بين جميع الأمور المناسبة لذلك الكوكب من القوابل السفلية، فإذا اجتمعت هذه القوابل حال كون ذلك الكوكب قوي الحال، ظهر التأثير لا محالة... وإن أردت عمل طلسم لإيقاع بلاء بإنسان وتمريضه، فاطلب حلول زحل في الدرجات المناسبة لهذا العمل، واتخذ تمثالا على هيئة ذلك الإنسان، واعتمد في ذلك الوقت أن تفسد عضوا من أعضائه، وموضعا من جسده فإنك إذا فعلت ذلك، فسد ذلك العضو من ذلك الإنسان)[(١)].

٦) قال الرازي: (إن المنجمين ينسبون كل بلدة إلى برج معين، وإلى كوكب معين: ولا بد في الأعمال السحرية من رعاية تلك الأحوال، فهذه أمور يجب على من يتولى هذه الصناعة أن لا يكون غافلا عنها، حتى تكون أعماله أقرب إلى الصواب، وأبعد عن الزلل، والله الموفق)[(٢)]، هكذا ختم عبارته، ونقول: لم يوفق الله الرازي في هذا الكتاب، والله المستعان، قال الله سبحانه عن السحرة: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ

---

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي (٨/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) المطالب العالية من العلم الإلهي (٨/ ١٨٥).

كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢،١٠٣]، اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ونرجو أن يكون الرازي قد تاب من هذه الأقوال الشنيعة التي لا تليق بعلمه وفضله، والله يغفر لنا وله ولجميع المسلمين[(١)].

وقد رجعت إلى تفسير الرازي لأنظر قوله في تفسير هذه الآية، فوجدت له كلاما نافعا كثيرا، مخلوطا بكلام قليل غير سديد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

قال الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: (العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور، اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف، وأيضا لعموم قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، ولأن السحر لو لم يكن يُعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز، والعلم بكون المعجز معجزا واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا، وما يكون واجبا كيف يكون حراما وقبيحا؟!)[(٢)].

وقال الرازي: (واعلم أنه لا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور، فإنه يكون كافرا على الإطلاق) ثم ذكر أن أنواع السحر الأخرى ليست كفرا، ثم

---

(١) قال ابن كثير: (قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله: أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع الفخر الرازي يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى) طبقات الشافعيين (ص: ٧٨٠).

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٦٢٦).

قال: (هل يجب قتلهم أم لا؟ أما النوع الأول: وهو أن يعتقد في الكواكب كونها آلهة مدبرة، والنوع الثاني: وهو أن يعتقد أن الساحر قد يصير موصوفا بالقدرة على خلق الأجسام وخلق الحياة والقدرة والعقل وتركيب الأشكال، فلا شك في كفرهما، فالمسلم إذا أتى بهذا الاعتقاد كان كالمرتد يستتاب فإن أصر قتل)، ثم ذكر الرازي أن السحر الذي يكون بقراءة بعض الرقى وتدخين بعض الأدوية لا يكفر صاحبه[(١)].

رابعًا: تصوف الرازي.

تصوف الرازي تصوف فلسفي قريب من تصوف أبي حامد الغزالي، يقوم على أن التجرد بالرياضة مع العلم والفلسفة يقودان إلى الكشوفات المباشرة، قال الرازي: (عند الرياضات الشديدة يحصل للنفس كمالات عظيمة، وتلوح لها الأنوار، وتتكشف لها المغيبات)[(٢)].

خامسًا: تقريره أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن، ولا يجوز التمسك بها في العقيدة حتى ولو كانت في صحيحي الإمامين البخاري ومسلم القشيري رحمهما الله!

قال الرازي: (أخبار الآحاد مظنونة فلم يجز التمسك بها في معرفة الله تعالى وصفاته... أما البخاري والقشيري فهما ما كانا عالمين بالغيوب، بل اجتهدا واحتاطا بمقدار طاقتهما، فأما اعتقاد أنهما علما جميع الأحوال الواقعة في زمان

(١) تفسير الرازي (٣/ ٦٢٦، ٦٢٧).

(٢) معالم أصول الدين (ص: ١٢٠، ١٢١).

الرسول ﷺ إلى زماننا فذلك لا يقوله عاقل، غاية ما في الباب أنا نحسن الظن بهما، وبالذين رويا عنهم، إلا أنا إذا شاهدنا خبرا مشتملا على منكر لا يمكن إسناده إلى الرسول ﷺ قطعنا بأنه من أوضاع الملاحدة ومن ترويجاتهم على أولئك المحدثين... واعلم أن هذا الباب كثير الكلام، وأن القدر الذي أوردناه كاف في بيان أنه لا يجوز التمسك في أصل الدين بأخبار الآحاد، والله أعلم)[(١)].

وقد تعجب ابن تيمية من كلام الرازي في رد أحاديث الآحاد الصحيحة فقال: (من العجب العجيب أن هذا الرجل المحاد لله ولرسوله عمد إلى الأخبار المستفيضة عن رسول الله ﷺ التي توارثها عن أئمة الدين، وورثة الأنبياء والمرسلين، واتفق على صحتها جميع العارفين؛ فقدح فيها قدحا يشبه قدح الزنادقة المنافقين!)[(٢)].

وأعجب من هذا وأشنع وأقبح أن الرازي قرر أن الأدلة النقلية وإن كانت من القرآن الكريم لا تفيد اليقين، وإنما تفيد الظن، فإذا حصل تعارض بينها وبين العقل فيجب عنده تقديم العقل؛ لأن الأدلة العقلية قطعية، وأما أدلة القرآن وكذلك أدلة السنة النبوية سواء المتواترة أو الآحاد فهي ظنية الدلالة!

---

(١) أساس التقديس في علم الكلام (ص: ١٢٧ - ١٢٩)، وهو كلام طويل فيه أخطاء ومغالطات كثيرة. ويُنظر في الرد على كلام الرازي: منهج الأشاعرة في العقيدة - الكبير لسفر الحوالي (ص: ١١١ - ١١٣).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٨٣).

قال الرازي: (الدلائل النقلية لا تفيد اليقين؛ لأنها مبنية على نقل اللغات، ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإضمار، وعدم النقل، وعدم التقديم والتأخير، وعدم التخصيص، وعدم النسخ، وعدم المعارض العقلي، وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم، والموقوف على المظنون مظنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية، وأن العقلية قطعية، والظن لا يعارض القطع)[1].

وهذا كلام خطير جدا، فيه تعطيل للإسلام كما قال ابن الصلاح، حيث جعل الرازي دلالات القرآن والسنة لا تفيد اليقين، قال ابن تيمية: (كان الثقة يحدث عن الشيخ أبي عمرو ابن الصلاح أنه لما رأى قول الرازي: إن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين لعنه على ذلك، وقال: هذا تعطيل الإسلام! والمقصود هنا أن يتبين أن دعواه أن كل دليل سمعي موقوف على مقدمات ظنية دعوى باطلة، معلوم فسادها بالاضطرار، ولو صح هذا لكان لا يجزم أحد بمراد أحد، ولكان العلم بمراد كل متكلم لا يكون إلا ظنا، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار، وإذا كان آحاد العامة قد بين مراده بكلامه حتى يقطع بمراده فالعلماء أولى بذلك، وإذا كان العلماء المصنفون في العلوم يقطع بمرادهم في أكثر ما يقولونه كما يقطع بمراد الفقهاء والأطباء والحُسَّاب وغيرهم؛ فالرسول الذي هو أكمل الخلق

(١) معالم أصول الدين (ص: ٢٥). ويُنظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (٢/ ٢٥١ - ٢٥٤)، المطالب العالية من العلم الإلهي للرازي (٩/ ١١٣ - ١١٧).

علما وبيانا ونصحا أولى أن يبين مراده ويقطع به، وكلام الله تعالى أكمل من كلام الرسول ﷺ، وأكمل بيانا، فهو أولى بالقطع بمراد الرب فيه من كلام كل أحد)[1].

وقد قرر الرازي أنه يجب تقديم العقل على الكتاب والسنة، وشرط لجواز الاستدلال بالدليل النقلي سواء كان من القرآن والسنة أن لا يعارض العقل.

قال الرازي: (شرط التمسك بالدلائل النقلية عدم المعارض العقلي القاطع؛ لأن بتقدير وجوده يجب صرف الظاهر السمعي إلى التأويل)[2].

قال ابن تيمية ردا على دعوى تعارض العقل والنقل: (كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيرا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول)[3].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٤٨٧ - ٤٨٩).

(٢) الأربعين في أصول الدين للرازي (٢/ ٢٥٣) بتصرف. قال ابن تيمية: (من قال: إن الدليل السمعي لا يعلم به مراد المتكلم، كما يقول الرازي ومتبعوه الذين يزعمون أن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم، فهؤلاء ليس عندهم دليل شرعي يفيد العلم بما أخبر به الرسول، فكيف يعارضون ذلك المعقول؟!) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٤٢).

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٣/ ٦٤)، وقد ألف ابن تيمية كتابا كبيرا بعنوان: درء تعارض العقل والنقل، مطبوع في عشرة مجلدات، رد فيه على الذين يدَّعون تعارض العقل الصريح مع النقل =

وقرر الرازي أن الأصل في الاستدلال أن يكون بالأدلة العقلية، أما الأدلة النقلية من القرآن والسنة فهي لزيادة اليقين، وليست أصلا في الاستدلال، وإنما الاعتماد على العقول، قال الرازي: (الدلائل العقلية إذا دلت على صحة قولنا، ثم رأينا أن ظواهر القرآن والأخبار تؤكد تلك العقليات، قوي اليقين وزالت الشبهات)[(١)].

قال ابن تيمية: (لم يكن الأشعري وأئمة أصحابه على هذا، بل كانوا موافقين لسائر أهل السنة في وجوب تصديق ما جاء به الشرع مطلقا، والقدح فيما يعارضه، ولم يكونوا يقولون: الأدلة السمعية لا تفيد اليقين، بل كل هذا مما أحدثه المتأخرون الذين مالوا إلى الاعتزال والفلسفة من أتباعهم)[(٢)].

وكان الواجب على الأشاعرة المتأخرين أن يتبرأوا مما قاله الرازي مما خالف الكتاب والسنة، وخالف فيه أئمة الأشاعرة القدامى كأبي الحسن الأشعري والباقلاني وغيرهما، ولكن الأشاعرة المتأخرين جعلوا الرازي إماما لهم، وفُتِنوا بقوله، والتزموا ما قرره لهم، فتجدهم في كتب العقيدة يكثرون من الاستدلال بالأدلة العقلية، ولا يستدلون بأدلة القرآن والسنة إلا قليلا، فهم يقدمون العقل على النقل حتى ولو كان النقل من القرآن الكريم!

= الصحيح كالرازي.

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي (٩/ ٢١٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٣).

بل قال السنوسي عفا الله عنا وعنه، وهو من الأشاعرة المتأخرين المقلدين للرازي: (من أصول الكفر التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية، للجهل بأدلة العقول، وعدم الارتباط بأساليب العرب)[(١)]، فنسأل الله الاستقامة على دينه، والتمسك بالقرآن والسنة بلا إفراط ولا تفريط، ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

سادسًا: حيرته، وتناقضه، ورجوعه.

الرازي عبرة للمعتبرين، فإنه بسبب إعراضه عن الاستدلال بالقرآن والسنة وقع في حيرة عظيمة، وتناقض كثير، فهو أكثر الأشاعرة اضطرابا في أقواله، وهذا بالنظر إلى مجمل أقواله في جميع كتبه، كما أنه في بعض المسائل أعلن حيرته أو شكه، وتقدم أنه في آخر أمره رجع إلى طريقة القرآن الكريم وفضلها على غيرها، ومن أسباب هذه الأمور اعتقاده أن دلالات القرآن والسنة لا تفيد إلا الظن، وأنها لا تفيد اليقين، وإنما المعول عنده العقل، ولا يخفى أن العقول مختلفة متباينة، وما ينفيه بعقله يثبته غيره بالعقل، فمثلا ينفي الأشاعرة أن الله عال على خلقه، وأنه مستو على عرشه استواء يليق بعظمته، بدعوى أن العقل يعارض ذلك، مع أن أهل السنة يقررون علو الله على خلقه بالنقل أولا ثم بالعقل والفطرة، وقرروا أن العقل لا يخالف ذلك كما يدعي الأشاعرة!

---

(١) حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص: ٢١٧) بتصرف يسير.

ومن أسباب حيرة الرازي أيضا: خوضه في المسائل الفلسفية والكلامية، وتقريره لكل مسألة بالأدلة التي أوردها أصحابها، وزيادته على ذلك بأدلة من عنده يرى أنها تصلح أن تكون دليلا لهم.

ومن الملاحظات في منهج الرازي وأثره على من بعده[1].

أ ـ كل من جاء بعد الرازي من الأشاعرة اعتمد في تقرير أصول المذهب الأشعري على ما كتبه الرازي؛ لأنه استقصى ما قاله المتقدمون من الأشاعرة وزاد على ذلك، ومن ثم أصبحت كتبه مصادر ميسرة ومستوعبة لأدلة الأشاعرة في تقرير مذهبهم، والرد على خصومهم، وإذا أطلقوا الإمام فهم يريدون الرازي.

ب ـ ضعَّف الرازي بعض أدلة الأشاعرة، ونقد بعض أعلام الأشاعرة في مناسبات مختلفة، فقد نقد البغدادي والغزالي والشهرستاني في بعض المسائل.

ج ـ كانت للرازي اجتهادات في المذهب الأشعري، وصلت إلى حد القرب من المعتزلة أحيانًا، ففي صفة الكلام ضعف الرازي أدلة الأشاعرة العقلية لإثبات هذه الصفة، بل بين أن منازعة الأشاعرة للمعتزلة في هذه المسألة ضعيفة، وصرح بأن الحروف والأصوات محدثة.

---

(١) يُنظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٦٧٥ - ٦٧٨).

د ـ صرح الرازي بالجبر في مسألة القدر خلافًا لأئمة الأشاعرة الذين ينكرون أن يكون قولهم بالكسب يؤدي إلى الجبر.

هـ ـ تأثر الأشاعرة المتأخرون بمنهج الرازي في خلط علوم الفلسفة بعلم الكلام، قال ابن خلدون: (لما وضع المتأخرون في علوم الفلسفة ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث، وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها، فصارت كأنها فن واحد، ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوهما فنا واحدا؛ قدموا الكلام في الأمور العامة ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب الرازي في (المباحث المشرقية) وجميع من بعده من علماء الكلام، وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها... فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين؛ فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف، والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل، وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل، وليس كذلك، بل إنما هو رد على الملحدين، والمطلوب مفروض الصدق معلومه)[1].

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٦٥٣، ٦٥٤) باختصار وتصرف يسير.

والمتتبع لكتب البيضاوي والتفتازاني والإيجي وغيرهم يلاحظ هذا المنهج واضحًا، حتى إن مباحث الإلهيات - وهي المقصودة - لا تأخذ من الكتاب الواحد منها إلا جزءًا صغيرًا في آخر الكتاب، والباقي كله مقدمات منطقية وطبيعية وفلسفية.

قال الأستاذ الدكتور حسين آتاي عميد كلية الإلهيات بجامعة أنقره: (من خلال اطلاعنا على ما كُتِب عن هذا العالم الكبير فخر الدين الرازي وعلى ضوء ما توصلنا إليه من نتائج نستطيع أن نقول: إن الرازي قد لعب دورا كبيرا في علم الكلام، والفلسفة الإسلامية، ويمكن إيجاز ذلك في نقطتين:

الأولى: إنه استوعب فلسفة أرسطو التقليدية، ثم كان أول من أدخل هذه الفلسفة في علم الكلام، ونتيجة لما قام به الرازي أصبح علم الكلام فلسفة، ويمكن أن نقول بعبارة أخرى: إنه جعل تلك الفلسفة كلاما، وهكذا امتزج علم الكلام بالفلسفة.

والثانية: وإذا كان الرازي قد أدخل الفلسفة في علم الكلام فإنه على ضوء فلسفة أرسطو التقليدية قد أعطى اتجاها جديدا لعلم الكلام، فأثر بذلك على الفكر الإسلامي، وقد ظهر تأثير الرازي جليا في غيره من خلال بقاء العديد من العلماء والمفكرين أسرى اتجاهه ومنهجه بعد ذلك)[١].

---

(١) يُنظر: تقديم الدكتور حسين آتاي لكتاب محصل أفكار المتقدمين للرازي، بواسطة مقدمة كتاب المطالب العالية من العلم الإلهي للرازي بتحقيق الدكتور أحمد حجازي (١/ ٨).

هذا، وأُذكِّر القارئ الكريم بما تقدم أن الفخر الرازي في آخر حياته صرح بترجيحه مذهب السلف، وندم على دخوله في علم الكلام والفلسفة، فنسأل الله له المغفرة، وأن يجزيه خيرا على ما أصاب، وأن ينفع المسلمين بما كتبه من العلوم النافعة، وأن يكفيهم شر ما كتبه من العقائد الباطلة، والأقوال الرديئة، ومن يريد أن يعرف فضل الفخر الرازي فليتصفح تفسيره الكبير، وليس الأمر كما قال بعضهم: إن تفسير الرازي حوى كل شيء إلا التفسير! بل في تفسير الرازي مما يتعلق بالتفسير فوائد ولطائف ودرر كثيرة لا تكاد تراها في غير تفسيره، وقد تقدم في ترجمته مدح الطوفي لتفسير الرازي بأنه من أوسع كتب التفسير فائدة، مع كثرة عيوبه، ومن قارن كتب التفسير يجد أشهر المفسرين الذي جاءوا بعد الرازي ينقلون من تفسير الرازي كثيرا من الفوائد واللطائف في تفاسيرهم كالبيضاوي وابن جزي وأبي حيان وابن عادل الحنبلي والشوكاني والألوسي والقاسمي ومحمد رشيد رضا وابن عاشور والشنقيطي وغيرهم، مع مناقشتهم له في بعض آرائه، وقد قام بعض الباحثين المعاصرين بتهذيب تفسير الفخر الرازي بأخذ ما صفى منه وترك ما كدر.

وإنَّ [فَخْـرًا] لتأتم الهداة به ... كأنه علَمٌ في رأسه نار

فنسأل الله أن يغفر له بما أحسن في تفسير كتابه، وبما اجتهد في نصرة دينه بما كان عنده من علوم نافعة، وأن يعفو عنه ما تعلمه من علوم فاسدة، ونرجو أن يكون الله قد أحسن خاتمته بالتوبة مما وقع فيه من مصائب علم الكلام والفلسفة، والله أعلم بعباده.

١٠- أبو الحسن الآمدي، (ت ٦٣١هـ)

قال الذهبي: (ولد بعد الخمسين وخمسمائة بيسير بآمد، وقرأ بها القراءات، وحفظ الهداية في مذهب أحمد، وقرأ القراءات أيضا ببغداد، وتفقه ببغداد على أبي الفتح ابن المني الحنبلي، ثم انتقل شافعيا، وصحب أبا القاسم بن فضلان، واشتغل عليه في الخلاف، وبرع فيه، وتفنن في علم النظر، والفلسفة، وأكثر من ذلك. وكان من أذكياء العالم، ثم دخل الديار المصرية، وتصدر بها لإقراء العقليات بالجامع الظافري، وأعاد بمدرسة الشافعي، وتخرج به جماعة، وصنف تصانيف عديدة، ثم قاموا عليه، ونسبوه إلى فساد العقيدة والانحلال والتعطيل والفلسفة، وكتبوا محضرا بذلك، قال القاضي ابن خلكان: وضعوا خطوطهم بما يستباح به الدم، فخرج مستخفيا إلى الشام فاستوطن حماة، وصنف في الأصلين والمنطق والحكمة والخلاف، وله نحو من عشرين تصنيفا، ثم تحول إلى دمشق، ودرس بالعزيزية مدة، ثم عزل عنها لسبب اتُّهم فيه، وأقام بطَّالا في بيته، ومات وله ثمانون سنة. قلت: كان شيخنا القاضي تقي الدين سليمان يحكي عن الشيخ شمس الدين ابن أبي عمر رحمه الله قال: كنا نتردد إلى السيف الآمدي، فشككنا فيه هل يصلي؟! فتركناه وقد نام، فعلَّمنا على رجله بالحبر، فبقيت العلامة نحو يومين مكانها! فعرفنا أنه ما كان يتوضأ، نسأل الله السلامة)[١].

(١) تاريخ الإسلام (١٤/ ٥٠، ٥١) باختصار وتصرف يسير.

وقال السبكي: (الإمام أبو الحسن سيف الدين الآمدي، الأصولي المتكلم، أحد أذكياء العالم،... وتفنن في علم النظر، وأحكم الأصلين والفلسفة وسائر العقليات، وأكثر من ذلك،... وحمل عنه الأذكياء العلم أصولا وكلاما وخلافا، وصنف كتاب (الأبكار في أصول الدين)، و(الإحكام في أصول الفقه)، وتصانيفه فوق العشرين تصنيفا، كلها منقحة حسنة، ويُحكى أن شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام قال: ما سمعت أحدا يلقي الدرس أحسن منه، وأنه قال: ما علمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الآمدي، وأنه قال: لو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الآمدي؛ لاجتماع أهلية ذلك فيه)[١].

وقال سبط ابن الجوزي: (لم يكن في زمانه من يجاريه في علم الكلام والأصلين، وكان يُنبز بأشياء ظاهر حاله أنه كان بريئا منها؛ لأنه سريع الدمعة، رقيق القلب، سليم الصدر، وكان مقيما بحماة، ثم سكن دمشق، وكان بنو العادل: المعظم والأشرف والكامل يكرهونه لما اشتُهِر عنه من الاشتغال بالمنطق وعلوم الأوائل، ومع كراهية المعظم له فإنه فوض إليه أمر المدرسة العزيزية،... وأقام مدرسا بالعزيزية إلى أن توفي المعظم، وملك الأشرف، فأخرجه منها، ونادى في المدارس: من ذكر غير التفسير والفقه، أو تعرض لكلام

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٣٠٦، ٣٠٧) باختصار.

الفلاسفة نفيته، وأقام السيف الآمدي خاملا في بيته، قد طُفِئ نور سعادته إلى أن توفي)[1].

وقال عبد الرحمن المحمود: (منهج الآمدي يقرب من منهج الرازي في بعض الأمور، منها:

١- خلطه علم الكلام بالفلسفة.

٢- نقده لأدلة الأشاعرة في المسائل المختلفة وتضعيفها.

٣- ميله إلى التصوف الفلسفي.

٤- الحيرة وإيراد الإشكالات.

وقد خالف الآمدي الرازي في أمور منها:

١- الآمدي مع غلبة الحيرة عليه حتى في الأصول الكبار إلا أن تناقضه أقل من تناقض الرازي.

٢- الآمدي كثيرًا ما يرد على الرازي)[2].

١١- القاضي ناصر الدين البيضاوي، (ت ٦٨٥هـ)

قال تاج الدين السبكي: (عبد الله بن عمر، القاضي ناصر الدين البيضاوي، صاحب (الطوالع)، و(المصباح في أصول الدين)، و(الغاية القصوى) في الفقه،

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٢/ ٣٣٢) باختصار.

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٧٨ - ٦٨٠) باختصار.

و(المنهاج في أصول الفقه)، و(مختصر الكشاف) في التفسير، و(شرح المصابيح) في الحديث، كان إماما مبرزا نظارا صالحا متعبدا زاهدا، ولي قضاء القضاة بشيراز، ودخل تبريز وناظر بها)(١).

وقال عباس سليمان في مقدمة تحقيقه لكتاب (الطوالع): (الطوالع أنفس ما كتبه البيضاوي على الإطلاق، نظرا للدور الذي لعبه هذا الكتاب في تأسيس الفلسفة الكلامية أو علم الكلام الفلسفي، والطوالع نموذج جيد للمؤلفات الكلامية في عصر البيضاوي، وضع فيه مؤلفه تفصيلا لمشكلات علم الكلام والفلسفة، وناقش هذه المشكلات مناقشة وافية من وجهة نظره كأحد أقطاب الأشاعرة، حيث لا يخفى على المطالع ذلك المنهج الأشعري الذي اتبعه البيضاوي جملة وتفصيلا، وقد ظهرت الروح الأشعرية واضحة في الطوالع وضوحا ملموسا نظرا لمتابعة البيضاوي فيه لواحد من أقطاب الأشاعرة السابقين عليه، هو فخر الدين الرازي الذي تقيد البيضاوي بخطاه خاصة في كتابه المباحث المشرقية)(٢).

وقال عبد الرحمن المحمود: (اشتهرت مؤلفات البيضاوي خاصة تفسيره المسمى (أنوار التنزيل)، وكتابه (طوالع الأنوار) في علم الكلام، وعني بهما العلماء فشرحوهما، ووضعوا عليهما حواشي عديدة، قال السبكي: أما الطوالع

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: مقدمة كتاب طوالع الأنوار من مطالع الأنظار (ص: ١٥).

فهو عندي أجل مختصر أُلِّف في علم الكلام، وأبرز من شرَحَه أبو الثناء محمود الأصبهاني المتوفى سنة ٧٤٩هـ، والطوالع يُعتبر من كتب الأشاعرة التي نهجها متأخرو الأشعرية في الاعتماد على المقدمات الطويلة ثم ذكر ما يتعلق بالإلهيات، وقد استغرقت الإلهيات عند البيضاوي ما يقارب ثلث الكتاب فقط، وباقيه في المقدمات العقلية والطبيعية وما شابهها، وليس هناك جديد فيما عرضه في مسائل الإلهيات، سوى أنه قال في مسألة كلام الله: والإطناب في ذلك قليل الجدوى، ولما عرض لصفات الاستواء واليدين والوجه والعين، ذكر خلاف الأشاعرة فيها ثم قال: والأولى اتباع السلف في الإيمان بها، والرد إلى الله تعالى، وفي مسألة القدر والكسب عند الأشاعرة قال: وهو مشكل، ولصعوبة هذا المقام أنكر السلف على المناظرين فيه، وقد تابعه الأصفهاني في شرحه)[(١)].

فيُلاحظ أن البيضاوي ﵀ أقل خوضا في التأويل من الرازي وأمثاله، وأنه ليس من غلاة الأشاعرة، وإن كان من أعلامهم الذين هذبوا المذهب الأشعري وقربوه ونصروه.

١٢- القاضي عضد الدين الإيجي، (ت ٧٥٦هـ)

قال السبكي: (كان إماما في المعقولات، عارفا بالأصلين والمعاني والبيان والنحو، مشاركا في الفقه، له في علم الكلام كتاب (المواقف) وغيرها، وفي أصول الفقه (شرح مختصر ابن الحاجب)، وفي المعاني والبيان (القواعد

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٨٧، ٦٨٨) باختصار وتصرف.

الغياثية)، وكانت له سعادة مفرطة، ومال جزيل، وإنعام على طلبة العلم، وكلمة نافذة، اشتغل على الشيخ زين الدين الهنكي تلميذ القاضي ناصر الدين البيضاوي وغيره، وكان أكثر إقامته أولا بمدينة سلطانية، وولي في أيام أبي سعيد قضاء الممالك، ثم غضب عليه صاحب كرمان فحبسه إلى أن مات ﵀)[١].

وقال ابن قاضي شهبة: (عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، قاضي قضاة الشرق، وشيخ العلماء بتلك البلاد، العلامة عضد الدين الإيجي الشيرازي، شارح مختصر ابن الحاجب الشرح المشهور، وغير ذلك من المؤلفات المشهورة في العلوم الكلامية والعقلية، ذكره الإسنوي في طبقاته وقال: كان إماما في علوم متعددة، محققا مدققا، ذا تصانيف مشهورة، منها (شرح المختصر لابن الحاجب) و(المواقف) و(الجواهر) وغيرها في علم الكلام، و(الفوائد الغياثية) في المعاني والبيان، وكان صاحب ثروة، وجود وإكرام للوافدين عليه، تولى قضاء القضاة بمملكة أبي سعيد، فحمدت سيرته... وأنجب تلاميذ اشتهروا في الآفاق مثل شمس الدين الكرماني وضياء الدين العفيفي وغيرهم، قلت: والشيخ سعد الدين التفتازاني في (حاشية العضد) كثير الثناء عليه، ويصفه بالمحقق، قال في بعض المواضع: وبالجملة لما كان الناظر في الشروح لا يحصل في المقام على طائل حاول الشارح المحقق شكر الله سعيه على ما هو دأبه في تحقيق المقام وتفسير الكلام على وجه ليس للناظر فيه سوى أن يستفيد، وحاشاه أن

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١٠/ ٤٦، ٤٧).

ينقص أو يزيد، وقال: واعلم أن الشارح المحقق قد بلغ في تحقيق مباحث القياس سيما الاعتراضات كل مبلغ، نسخا منه شريعة الشارحين في تطويل الواضحات، والإغضاء عن المعضلات، والاقتصار على إعادة المتن حيث لا سبيل إلى نقل ما في المطولات، فلم يبق لنا سوى اقتفاء آثاره، والكشف عن خبيئات أسراره، بل الاجتناء من بحار ثماره، والاستضاءة بأنواره)[(١)].

وقال عبد الرحمن المحمود: (من كتبه: (العقائد العضدية)، متن مختصر وضعت عليه شروح وحواش عديدة، وكتاب (المواقف في علم الكلام) وهو كتاب متوسط قسمه إلى ستة مواقف، الأربعة الأولى منها في المقدمات المنطقية، والمباحث الفلسفية، والموقف الخامس والسادس في الإلهيات، والكتاب له شروح، وعليها حواشٍ بلغت في طبعته الثانية ثمانية مجلدات كبار، وقد جاءت الإلهيات في الجزء الثامن فقط، وأكبر ما يميز كتاب (المواقف) التقسيم الجيد للمسائل، كما أن أسلوبه وعبارته قوية سلسة، مع البعد عن التطويل في المناقشات، كما أنه اعتمد على أقوال كبار رجال الأشاعرة والترجيح بينها إن كان بينهم خلاف، وهو كثيرًا ما يورد أقوال المعتزلة أو الفلاسفة، ويناقشها، ومنزلة هذا الكتاب عند الأشاعرة ممن جاء بعده كبيرة، فهو يمثل الصياغة النهائية لمذهبهم، وهو أيضا يضارع ما بلغه (المغني) للقاضي عبد الجبار بالنسبة للمعتزلة، وما بلغه كتاب (الشفاء) لابن سينا بالنسبة

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/ ٢٧ - ٢٩).

للفلاسفة، وذلك أنه بشرح الجرجاني يعد حصيلة تراث الأشاعرة، كما يعد (المغني) حصيلة تراث المعتزلة، على أن النسق الذي اتبعه الإيجي في كتابه لم يجعل الكتاب مقصورا في موضوعاته على علم الكلام، إذ اختلطت هذه الموضوعات بالفلسفة والمنطق حتى أصبحت هذه سمة علم الكلام لدى متأخري الأشاعرة، وإذا كانت هذه السمة معروفة لدى الرازي قبله فالواقع أن الإيجي كان تابعا له في نسقه الكلامي، وإن كان قد تخلص من كثرة التفريعات المعروفة عن الرازي، هذا ولقد كان الإيجي أكثر اتساقا من الرازي في موقفه الأشعري، فلم يُغلِّب الفلسفة على علم الكلام تغليب الرازي، ولم يتناقض في آرائه بين مؤلفاته، مما جعله أكثر تمثيلا لعلم الكلام الأشعري من الرازي، وكتاب المواقف للإيجي أصبح مقررا دراسيا في العصور المتأخرة لدى كثير من المعاهد والجامعات في بعض أنحاء العالم الإسلامي)[١].

وقال سفر الحوالي مبينا اعتماد الأشاعرة بعد الإيجي على كتابه المواقف: (هو تقنين وتنظيم لفكر الرازي ومدرسته، وهذا الكتاب هو عمدة المذهب قديما وحديثا)[٢].

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٨٩، ٦٩٠) بتصرف يسير.

(٢) تعقيب على مقالات الصابوني (ص: ٢٥).

المبحث الخامس:

سبب تأويل أو تفويض علماء الأشاعرة لنصوص الصفات

إن منشأ فتنة الأشاعرة في باب الأسماء والصفات ظنهم أن جميع آيات وأحاديث الصفات من المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويلها، وأنه لا يُفهم معناها، مع أنه لا يُعلم أن السلف الصالح جعلوا أسماء الله وصفاته من المتشابه، ولا نعلم أحدا من العلماء المتقدمين جعل آيات وأحاديث الصفات كالكلام الأعجمي، وكالحروف المقطعة في أوائل السور، بل نصوصهم صريحة في أنهم يمرون آيات وأحاديث الصفات على ما دلت عليه بظاهرها اللائق بعظمة الله سبحانه، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وكانوا ينكرون تأويلات الجهمية والمعطلة الذين لا يثبتون لله سبحانه صفات الكمال التي أثبتها الله لنفسه في كتابه أو أثبتها له رسوله ﷺ(١).

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١٦٠ - ٢٧٧)، الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية (ص: ٢٦٥ - ٥٥٦)، الأشاعرة في ميزان أهل السنة للجاسم (ص: ٢٥٤).

وقد ذكر شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسير الآيات المتشابهات خمسة أقوال للسلف، ليس منها قول بأنها آيات الصفات، قال ﵀: (وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] وما المحكم من آي الكتاب؟ وما المتشابه منه؟ فقال بعضهم: المحكمات من آي القرآن: المعمول بهن، وهن الناسخات، أو المثبتات الأحكام؛ والمتشابهات من آيه المتروك العمل بهن، المنسوخات... وقال آخرون: المحكمات من آي الكتاب: ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه؛ والمتشابه منها: ما أشبه بعضه بعضا في المعاني وإن اختلفت ألفاظه... وقال آخرون: المحكمات من آي الكتاب: ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد؛ والمتشابه منه: ما احتمل من التأويل أوجها... وقال آخرون: معنى المحكم: ما أحكم الله فيه من آي القرآن وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته، والمتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني... وقال آخرون: بل المحكم من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره؛ والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحد، وقالوا: إنما سمى الله من آي الكتاب المتشابه الحروف المقطعة التي في أوائل بعض سور القرآن

من نحو ﴿الم﴾، و﴿المص﴾، و﴿المر﴾، و﴿الر﴾، وما أشبه ذلك...)، ثم رجح ابن جرير هذا القول الأخير وقال: (جميع ما أنزل الله ﷻ من آي القرآن على رسول الله ﷺ، فإنما أنزله عليه بيانا له ولأمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل، فإذا كان ذلك كذلك، فكل ما فيه لخلقه إليه الحاجة وإن كان في بعضه ما بهم عن بعض معانيه الغنى، وإن اضطرته الحاجة إليه في معان كثيرة، وذلك كقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] فأعلم النبي ﷺ أمته أن تلك الآية التي أخبر الله جل ثناؤه عباده أنها إذا جاءت لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ذلك، هي طلوع الشمس من مغربها، فالذي كانت بالعباد إليه الحاجة من علم ذلك هو العلم منهم بوقت نفع التوبة بصفته بغير تحديده بعد بالسنين والشهور والأيام، فقد بين الله ذلك لهم بدلالة الكتاب، وأوضحه لهم على لسان رسول ﷺ مفسرا، والذي لا حاجة لهم إلى علمه منه هو العلم بمقدار المدة التي بين وقت نزول هذه الآية ووقت حدوث تلك الآية، فإن ذلك مما لا حاجة بهم إلى علمه في دين ولا دنيا، وذلك هو العلم الذي استأثر الله جل ثناؤه به دون خلقه، فحجبه عنهم، وذلك وما أشبهه هو المعنى الذي طلبت اليهود معرفته في مدة محمد ﷺ وأمته من قبل قوله: ﴿الم﴾، و﴿المص﴾، و﴿الر﴾، و﴿المر﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة المتشابهات التي أخبر الله جل ثناؤه أنهم لا يدركون تأويل ذلك من قبله، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله. فإذا

كان المتشابه هو ما وصفنا، فكل ما عداه فمحكم؛ لأنه لن يخلو من أن يكون محكما بأنه بمعنى واحد لا تأويل له غير تأويل واحد، وقد استغنى بسماعه عن بيان يبينه، أو يكون محكما، وإن كان ذا وجوه وتأويلات وتصرف في معان كثيرة، فالدلالة على المعنى المراد منه إما من بيان الله تعالى ذكره عنه أو بيان رسوله ﷺ لأمته، ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة لما قد بينا)[(١)].

وقد عقد الحارث المحاسبي رحمه الله في كتابه (فهم القرآن) قسما في المحكم والمتشابه، وذكر أقوال الناس في المحكم والمتشابه، ولم يذكر أن منها آيات الصفات[(٢)].

وعقد أبو الحسن الأشعري رحمه الله فصلا في كتابه (مقالات الإسلاميين) في حكاية أقاويل الناس في المحكم والمتشابه، ولم ينقل عن أحد أنه عدَّ من المتشابه آيات الصفات[(٣)].

وجميع كتب السُّنَّة التي نقلت آثار السلف في العقيدة ككتاب (الرد على الجهمية) للإمام أحمد بن حنبل، والدارمي، وابن منده، وكتاب (السنة) للمزني وابن أبي عاصم والخلال والبربهاري، وكتاب (صريح السنة) لابن جرير الطبري، وكتاب (أصول السنة) لابن أبي زمنين، وكتاب (شرح أصول اعتقاد

(١) تفسير ابن جرير (٥/ ١٩٢، ١٩٦ – ٢٠١).

(٢) يُنظر: فهم القرآن (ص: ٣٢٥ – ٣٣١).

(٣) يُنظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٧٧، ١٧٨).

أهل السنة والجماعة) للالكائي، وغيرها كثير، لم يُنقل في أي منها عن أحد من السلف الصالح أنه جعل آيات الصفات من المتشابه.

ولابن قتيبة كلام نفيس يتعلق بآيات الصفات يحسن الاطلاع عليه، ومما قال فيه: (لسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل به على معنى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، وتعلق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟! وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران:٧] جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، فقد دعا لابن عباس فقال: «**اللهم علِّمه التأويل، وفقهه في الدين**»... عن ابن عباس أنه قال: (كل القرآن أعلم إلا أربعا: غسلين، وحنانا، والأواه، والرقيم)، وكان هذا من قول ابن عباس في وقت، ثم علم ذلك بعد... ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا: ﴿**ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران:٧] لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين، بل على جهلة المسلمين؛ لأنهم جميعا يقولون: آمنا به كل من عند ربنا. وبعد: فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه كله على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور، مثل: الر، وحم، وطه، وأشباه ذلك. باب القول في المجاز، وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل، وتشعبت بهم الطرق... وذهب قوم في قول الله وكلامه: إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على

الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعاني، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز... قالوا: ونحو هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، وليس يومئذ قول منه لجهنم، ولا قول من جهنم، وإنما هي عبارة عن سعتها... وقد تبين لمن قد عرف اللغة أن القول يقع فيه المجاز)[(١)]، إلى آخر كلامه النافع، ويُستفاد من بقية كلام ابن قتيبة أنه يُعلم المراد من الآيات من السياق، ويُعلم إرادة الحقيقة أو المجاز بالقرائن، وإن خالف بعض العلماء في وقوع المجاز في القرآن، وجعله من الأساليب العربية المعروفة، ولا مشاحاة في الاصطلاح.

وما ذكره ابن قتيبة رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] هو أحد القولين في معنى الآية، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] اختلف القراء في الوقف هاهنا، فقيل: على الجلالة، كما قال ابن عباس: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل. ويروى هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم... وروى ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. واختار ابن جرير هذا القول. ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] وتبعهم كثير

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ٦٦ - ٦٩، ٧١ - ٧٣).

من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. ومن العلماء من فصل في هذا المقام فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ، ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧] خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ [يوسف:٣٦] أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ حالا منهم، وقوله إخبارا عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي: بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد؛ لقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ

ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:٨٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة، والفهوم المستقيمة)[١].

وقد تواترت أقوال السلف الصالح بإمرارهم آيات وأحاديث الصفات على ظاهرها اللائق بالله سبحانه، ومنعهم من تأويل معانيها، وإنكارهم على الذين يصرفونها بالتأويل إلى المجاز بلا دليل، وقد صنف أهل العلم كتبا كثيرة في إبطال تأويل الصفات، والرد على الجهمية وغيرهم من المتكلمين الذين يتجرؤون على آيات وأحاديث الصفات بالتأويل.

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني ﵀ صاحب أبي حنيفة: (اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ، من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه قد وصفه بصفة لا شيء!)[٢].

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٠ – ١٢) باختصار.

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٤٠).

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ﷀ: (فإن قال لنا قائل: فما الصواب من القول في معاني هذه الصفات التي ذكرت، وجاء ببعضها كتاب الله ﷻ ووحيه، وجاء ببعضها رسول الله ﷺ؟ قيل: الصواب من هذا القول عندنا أن نثبت حقائقها على ما نعرف من جهة الإثبات ونفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه جل ثناؤه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فيقال: الله سميع بصير، له سمع وبصر؛ إذ لا يعقل مسمى سميعا بصيرا في لغة ولا عقل في النشوء والعادة والمتعارف إلا من له سمع وبصر... فنثبت كل هذه المعاني التي ذكرنا أنها جاءت بها الأخبار والكتاب والتنزيل على ما يعقل من حقيقة الإثبات، وننفي عنه التشبيه؛ فنقول: يسمع جل ثناؤه الأصوات، لا بخرق في أذن، ولا جارحة كجوارح بني آدم. وكذلك يبصر الأشخاص ببصر لا يشبه أبصار بني آدم التي هي جوارح لهم. وله يدان ويمين وأصابع، وليست جارحة، ولكن يدان مبسوطتان بالنعم على الخلق، لا مقبوضتان عن الخير. ووجه لا كجوارح الخلق التي من لحم ودم. ونقول: يضحك إلى من شاء من خلقه. ولا نقول: إن ذلك كشر عن أسنان)(١).

وقال الإمام ابن عبد البر المالكي ﷀ: (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة،

(١) التبصير في معالم الدين (ص: ١٤٠، ١٤٢).

وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة)[(١)].

وقال الإمام البغوي الشافعي رحمه الله في آخر كتابه (شرح السنة): (كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة كاليد والإصبع والعين والمجيء والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكِر معطِّل، والمكيِّف مُشبِّه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا)[(٢)].

والاتفاق الذي نقله محمد بن الحسن الشيباني وابن عبد البر في إمرار نصوص الصفات كما جاءت على الوجه الذي يليق بعظمة الله سبحانه من غير تأويل لها هو منهج أئمة السلف وأتباعهم، وهذا هو الأصل في نصوص الصفات، وإن كان قد يرد التأويل عن بعض العلماء في بعض النصوص، وقد يكون ذلك التأويل صحيحا لدليل صحيح يدل عليه، وقد يتنازع العلماء في

(١) التمهيد (٧/ ١٤٥). ويُنظر: سنن الترمذي (٣/ ٤١)، التبصير في معالم الدين للطبري (ص: ١٣٢ - ١٤٧)، التوحيد لابن خزيمة (١/ ١١٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٤٥٧)، الهداية لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٣٧٨)، ذم التأويل للمقدسي (ص: ١١، ٣٩، ٤٠)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٢٩٤، ٢٩٥)، الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢١٢ - ٢١٤)، تفسير ابن كثير (٧/ ١١٣)، قطف الثمر للقنوجي (ص: ٥٩)، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي (ص: ٣٨)، القواعد المثلى لابن عثيمين (ص: ٣٤).

(٢) شرح السنة (١٥/ ٢٥٧).

صحته، وإن ثبت التأويل فهو في الحقيقة تفسير وبيان، وليس صرفا للفظ عن ظاهره، فإنه لا يمكن أن يكون ظاهر القرآن والحديث باطلا وضلالا.

قال ابن تيمية: (إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد أو ظاهرها ليس بمراد فإنه يقال: لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب أن هذا غير مراد؛ ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا، والله ﷻ أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال، والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين: تارة يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى يجعلوه محتاجا إلى تأويل يخالف الظاهر، ولا يكون كذلك، وتارة يردون المعنى الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل)[1].

فمن التأويل الصحيح الذي لا شك في صحته: قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فقد فسرها العلماء بالعلم، ويدل على ذلك سياق الآية كاملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٣).

ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧]، فقد بُدِئت الآية بالعلم، وخُتِمت بالعلم، فدل على أن المعنى أن الله سبحانه مع عباده بعلمه، فهذا التأويل صحيح لا نزاع فيه، وهو في الحقيقة تفسير وبيان، وليس صرفا للكلام عن ظاهره بالتأويل، ولا مشاحاة في الاصطلاح، وقد قال بعض العلماء: (تأويل السلف إن صدر من الصحابة فهو مقبول؛ لأنهم سمعوه من الرسول، وإن صدر من غيرهم وتابعهم عليه الأئمة قبلناه، وإن تفرد نبذناه وأعرضنا عنه إعراضنا عن تأويل الخلف)(١).

ومن التأويل الذي وقع فيه نزاع بين العلماء: صفة النزول، قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في بيان خلاف أهل الحديث في إثبات صفة النزول: (الفرقة الثانية: تقول: إن النزول إنما هو نزول الرحمة، ومنهم من يقول: هو إقبال الله على عباده، وإفاضة الرحمة والإحسان عليهم، ولكن يرد ذلك تخصيصه بالسماء الدنيا، وهذا نوع من التأويل لأحاديث الصفات، وقد مال إليه في حديث النزول خاصة طائفة من أهل الحديث، منهم: ابن قتيبة والخطابي وابن عبد البر، وقد تقدم عن مالك، وفي صحته عنه نظر، وقد ذهب إليه طائفة ممن يميل إلى الكلام من أصحابنا)(٢).

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٦/ ٤٠٩).

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٣٤). ويُنظر: الرسالة الوافية لأبي عمرو الداني (ص: ١٣٥)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر (٧/ ١٤٣، ١٤٤)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٤٠٤ - ٤٠٦)، الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح =

فالأصل في نصوص الصفات أجراؤها على ظاهرها اللائق بعظمة الله سبحانه، وعدم تأويلها، وقد يقع نزاع بين العلماء في بعضها، قال ابن تيمية: (الصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بإجرائها على ظاهرها اللائق بجلال الله كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه، وتُعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، دلالة لا تحتمل النقيض، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)[١].

ويُفهم من كلام ابن تيمية السابق أن بعض نصوص الصفات يسوغ الخلاف فيها لعدم القطع فيها بأنها من نصوص الصفات.

ومن الخلاف السائغ بين العلماء في مسألة الصفات: قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]، فأكثر السلف من الصحابة والتابعين على أن هذه الآية ليست من نصوص الصفات، وأن المعنى: يكشف الله يوم القيامة عن شدة وأهوال[٢].

= مسلم من التأويل في الصفات لمشهور حسن (ص: ٩٣ - ٩٧).

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص: ٥٥١) بتصرف يسير.

(٢) يُنظر: تفسير ابن جرير (٢٣/ ١٨٦)، تفسير السمعاني (٦/ ٢٨)، تفسير ابن كثير (٨/ ١٩٨، ١٩٩)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٧/ ١٣٤)، روح المعاني للألوسي (١٥/ ٣٩).

قال ابن قتيبة ﵀، وهو من أهل السنة المثبتين للصفات: (من الاستعارة في كتاب الله قوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ أي: عن شدة من الأمر.. وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه - شمَّر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة)(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنها من آيات الصفات، ورجحه ابن تيمية وابن القيم(٢).

وقال ابن عثيمين: (يحتمل أن يُراد بذلك ساق الله، ويحتمل أن يُراد بالساق الشدة، وقد قال السلف بهذين القولين)(٣).

وقد بين هذا ابن عثيمين بيانا شافيا فقال ﵀: (مسائل العقيدة ليست كلها مما لا بد فيه من اليقين؛ لأن اليقين أو الظن حسب تجاذب الأدلة، وتجاذب الأدلة حسب فهم الإنسان وعلمه، فقد يكون الدليلان متجاذبين عند شخص، ولكن عند شخص آخر ليس بينهما تجاذب إطلاقا؛ لأنه قد اتضح عنده أن هذا له وجه، وهذا له وجه، فمثل هذا الأخير ليس عنده إشكال في المسألة، بل عنده يقين، وأما الأول فيكون عنده إشكال، وإذا رجح أحد الطرفين فإنما يرجحه

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ٨٩). ويُنظر: معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) شرح العقيدة السفارينية (١/ ٢٦٢).

بغلبة الظن؛ ولهذا لا يمكن أن نقول: إن جميع مسائل العقيدة مما يتعين فيه الجزم، ومما لا خلاف فيه؛ لأن الواقع خلاف ذلك، ففي مسائل العقيدة ما فيه خلاف، وفي مسائل العقيدة ما لا يستطيع الإنسان أن يجزم به، لكن يترجح عنده. إذًا هذه الكلمة التي نسمعها بأن مسائل العقيدة لا خلاف فيها، ليس على إطلاقها؛ لأن الواقع يخالف ذلك. كذلك مسألة العقيدة بحسب اعتقاد الإنسان، فليس كل مسائل العقيدة مما يجزم فيه الإنسان جزما لا احتمال فيه، فهناك بعض المسائل - أحاديث أو آيات - قد يشك الإنسان فيها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]، هذه من مسائل العقيدة، وقد اختلف فيها السلف؛ هل المراد ساقه ﷻ أو المراد الشدة؟)[(١)].

ومن النصوص التي لا حرج في تأويلها: حديث إضافة المشي والهرولة لله سبحانه، قال الترمذي في سننه: (يُروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: «**من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا**»[(٢)] يعني: بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث، قالوا: إنما معناه يقول: إذا تقرب إليَّ العبد بطاعتي، وبما أمرت، تسارع إليه مغفرتي ورحمتي)[(٣)].

---

(١) شرح العقيدة السفارينية (١/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سنن الترمذي (٥/ ٥٨١).

وهذا هو القول المشهور عند العلماء المتقدمين في شرح الحديث، فقد نقله الترمذي مقرا له عن الأعمش ﵀ وهو من التابعين، وعن بعض أهل العلم غير الأعمش، ولم يذكر الترمذي قولا غيره، ونقله ابن بطال القرطبي عن محمد بن جرير الطبري[(١)].

قال الطوفي الحنبلي ﵀ عن هذا الحديث: (الحديث مؤول عندنا على التقرب بالرحمة واللطف والإكرام، كما يقال: فلان قريب من السلطان، والأمير قريب من فلان، يعني: تقارب القلوب والمنزلة، وأنا وإن كنت أثريا في آيات الصفات وأخبارها، إلا أن المجاز عندي في هذا الحديث ظاهر غالب، فلا يتوقف في تأويله إلا جامد. وتحقيق الكلام في هذا المقام: أن النصوص في الصفات من حيث السند على ثلاث طبقات: صحيح مجمع على صحته بين أهل النقل، وضعيف متفق على ضعفه، ومختلف في صحته، فالأول مما تُثبت به الصفات، والآخرين لا يعول عليهما في ذلك، في وقت من الأوقات. ثم الحديث المجمع على صحته من حيث دلالة المتن على ثلاث طبقات: ما ترجح فيه إرادة الحقيقة، وما ترجح فيه إرادة المجاز، وما استوى فيه الأمران)[(٢)].

وقال المباركفوري ﵀ في شرح هذا الحديث: (قال النووي: هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره، ومعناه: من تقرَّب إليَّ بطاعتي

(١) يُنظر: شرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٢٩، ٤٣٠).

(٢) يُنظر: الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية (٢/ ٧٠١ - ٧٠٥).

تقرَّبت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة أو إن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة أي: صببت عليه الرحمة، وسبقته بها، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه انتهى. وكذا قال الطيبي والحافظ والعيني وابن بطال وابن التين وصاحب المشارق والراغب وغيرهم من العلماء)[(١)] انتهى كلام المباركفوري، وهو من العلماء المثبتين للصفات على منهج السلف الصالح، لكنه لم يثبت هذه الصفة من هذا الحديث الصحيح لعدم وضوح دلالته على الصفة.

وقد أثبت بعض أهل العلم رحمهم الله صفة المشي والهرولة لورود ذلك في هذا الحديث، إثباتا يليق بجلال الله سبحانه من غير تمثيل ولا تشبيه[(٢)].

ولا شك أن الأصل هو الاحتياط العظيم في إثبات صفات الله رب العالمين أو نفيها، خوفا من أن نقول على الله ما لا نعلم، فلا ننفي صفات الله العُليا، الثابتة بالنصوص الصحيحة الصريحة، الواضحة الدلالة، والمشهورة عند العلماء، ولا نعد من صفات الله سبحانه ما كان في ثبوت دليله نظر أو في دلالته احتمال معتبر،

---

(١) يُنظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٤٧).

(٢) ممن أثبت صفة المشي والهرولة لورودها في الحديث: عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه نقض الدارمي على المريسي (١/٥٦١)، والهروي في الأربعون في دلائل التوحيد (ص: ٧٩)، وابن القيم في الصواعق المرسلة (٣/٩١٥)، وعلماء اللجنة الدائمة كما في فتاوى اللجنة الدائمة (٣/١٤٢)، وابن باز كما في مجموع فتاوى ابن باز (٤/ ١٣٣)، وأكثر العلماء على عدم إثبات صفة المشي والهرولة لله سبحانه، وأن الحديث المذكور ليس من نصوص الصفات أصلا، وهو الصواب، والله أعلم.

لا سيما إذا كان لا يُعرف إثباتها عن السلف الصالح رحمهم الله، الذين هم أعلم منا وأتقى.

المبحث السادس:

حكم الأشاعرة

بعض طلاب العلم يظن أن الأشاعرة إنما يخالفون السلف الصالح في مسألة تأويل الصفات فقط، وليس الأمر كذلك، ولو كان خلافهم مع أهل السنة في هذه المسألة فقط لكان الأمر أهون، فإن من علماء أهل السنة من قد يرى تأويل بعض النصوص التي ليست دلالتها واضحة على إثبات الصفة كما تقدم، وإنما شنَّع العلماء على الأشاعرة بسبب دخولهم في علم الكلام، وتأثرهم بالفلاسفة، وتوسعهم في تأويل الصفات مثل تأويلات المعتزلة والجهمية، حتى أنكر متأخروا الأشاعرة صفة العلو لله سبحانه التي أجمع عليها أهل الإسلام ما عدا المتكلمين والمتأثرين بهم، ولم يثبت الأشاعرة إلا سبع صفات لله سبحانه لدلالة العقل عليها، وهي الحياة والإرادة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام، ثم قالوا في كلام الله أنه كلام نفسي لا يُسمع، وذكر بعضهم كالرازي أن رؤية الله تكون بالانكشاف في القلب، فقاربوا المعتزلة في إنكار الرؤية بالعين، وقالوا بأن أخبار الآحاد وإن كانت صحيحة لا يُعتمد عليها في إثبات مسائل العقيدة، وتابعوا المرجئة في القول بأن الإيمان مجرد التصديق، وأن الأعمال ليست من الإيمان، ووافقوا الجبرية في نفي قدرة العبد، ولم يُفرِّقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، ولا يثبتون لأفعال الله سبحانه حكمة، ثم صار

المذهب الأشعري عند المتأخرين ممتزجا بالتصوف، فتوسعوا جدا في إثبات كرامات الأولياء ولو بالحكايات عن المجهولين، وتهاونوا كثيرا في توحيد الألوهية، حتى وقع بعضهم في تسويغ الاستغاثة بغير الله سبحانه، وتبرير وسائل الشرك كالتوسل بأصحاب القبور!

قال ابن تيمية: (الأشعرية الأغلب عليهم أنهم مرجئة في باب الأسماء والأحكام، جبرية في باب القدر، وأما في الصفات فليسوا جهمية محضة، بل فيهم نوع من التجهم، وهم في الجملة أقرب المتكلمين إلى مذهب أهل السنة والحديث)[1].

وقال ابن تيمية: (أئمتهم من أبعد الناس عن الاستدلال بالكتاب والسنة، وإنما عمدتهم في الشرعيات على ما يظنونه إجماعا، مع كثرة خطئهم فيما يظنونه إجماعا، وليس بإجماع، وعمدتهم في أصول الدين على ما يظنونه عقليات، وهي جهليات، لا سيما مثل الرازي وأمثاله، الذين يمنعون أن يستدل في هذه المسائل بالكتاب والسنة!)[2].

ويجب التفريق عند الحكم على الأشاعرة بين متكلمي الأشاعرة كعبد القاهر البغدادي وأبي المعالي الجويني وأبي حامد الغزالي والشهرستاني والفخر الرازي والآمدي والإيجي ونحوهم عفا الله عنا وعنهم، وبين من تأثر بمذهب

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥) باختصار.

(٢) يُنظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٢٩).

الأشاعرة من كبار علماء الأمة الأعلام كالنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهما عن حسن نية واجتهاد أو متابعة خاطئة أو جهل بعلم الكلام أو ظنا أن مذهب السلف هو تفويض المعنى، وأن مذهب الخلف هو التأويل، وأن الأمر واسع لمن اختار أحد الطريقتين، وفاتهم معرفة أن منهج السلف الصالح في الصفات هو تفويض الكيف لا المعنى[(١)]، ولا شك أنهم في تأويلهم لبعض نصوص الصفات لا يقصدون إلا تنزيه الله سبحانه؛ لظنهم أن ظاهرها يحتاج إلى تأويل[(٢)].

ويجب التفريق أيضا عند الحكم على الأشاعرة بين متقدميهم ومتأخريهم، وبين من هو أقرب إلى أهل السنة كأبي الحسن الأشعري والباقلاني والبيهقي وأبي القاسم ابن عساكر وأمثالهم من المتقدمين، ومن اقترب من المعتزلة كعبد القاهر البغدادي وأبي المعالي الجويني، ومن اقترب من الفلاسفة كأبي حامد

---

(١) تقدم في المبحث الثاني: أن من أسباب انتساب كثير من العلماء إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله ظنهم أن مذهب السلف هو التفويض، وأن مذهب الخلف هو التأويل، وأن كلا المذهبين سائغ، وقد بينا بحمد الله بطلان مذهب التفويض بالحجج الواضحة، والأمثلة الصريحة، فراجعه لأهميته.

(٢) يُنظر: جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات للنووي (ص: ١٥ - ٦٩)، تعقيب على مقالات الصابوني للحوالي (ص: ٢٥)، الأشاعرة في ميزان أهل السنة للجاسم (ص: ٥٩٧ - ٦٤٠)، المقدمات الأساسية في علوم القرآن للجديع (ص: ٣٦٧)، البدور السافرة في نفي انتساب ابن حجر إلى الأشاعرة لأبي أسامة الأثري (ص: ٥٧ - ١٤٨)، الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات لمشهور حسن (ص: ١٨ - ٢٩).

الغزالي والفخر الرازي والإيجي ونحوهم من المتأخرين، فليس الأشاعرة كلهم في طبقة واحدة.

ويجب التفريق أيضا عند الحكم على الأشاعرة بين غلاة الأشاعرة وغيرهم، فكثير من العلماء الفضلاء المنتسبين إلى المذهب الأشعري ليسوا غلاة، فمثلا العز بن عبد السلام مع نصرته لمذهب الأشعري ودعوته إليه صراحة إلا أنه لم يكن من غلاة الأشاعرة الذين يُكفِّرون أو يضللون مخالفيهم المثبتين للصفات(١).

قال عبد الرحمن المحمود: (العز بن عبد السلام الإمام العَلَم المشهور، أحد تلامذة الآمدي، تميز بكونه من أعلام العلماء العاملين المجاهدين، الذين يقتدي بهم فئات عظيمة من الناس من العلماء وغيرهم؛ ولذلك فدفاعه عن مذهب الأشاعرة وتقريره له في كتبه له أثره في الناس، ألَّف (الملحة في اعتقاد أهل الحق) قرر فيها مذهب الأشاعرة في كلام الله، وإنكار الحرف والصوت، وشنع على مخالفيه من الحنابلة، ووصفهم بالحشو، وأغلظ عليهم، وفي كتابه (الإشارة) أوَّل صفات المجيء، والقبضة، واليدين، والنزول، والضحك، والفرح، والعجب، والاستواء، والمحبة، والغضب، والسخط وغيرها، كما أن الشيخ له ميل إلى التصوف، فقد ذكر في كتابه (القواعد) أنواع العلوم التي يُمنحها الأنبياء والأولياء، فذكر منها: علوم إلهامية، يُكشف بها عما في القلوب،

(١) يُنظر: تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجوري (ص: ١٦٥).

فيرى أحدهم من الغائبات ما لم تجر العادة بسماع مثله، ومنهم من يرى الملائكة، والشياطين، والبلاد النائية، بل ينظر إلى ما تحت الثرى، ومنهم من يرى السماوات، وأفلاكها، وكواكبها، وشمسها، وقمرها على ما هي عليه، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ويقرأ ما فيه، وكذلك يسمع أحدهم صرير الأقلام، وأصوات الملائكة والجان، ويفهم أحدهم منطق الطير! والملاحظ في منهج العز رحمه الله أنه مع قسوته على مخالفيه في مسألة كلام الله إلا أنه ذكر في بعض كتبه وفتاويه وجوها من الأعذار لهم، فمثلا ذكر في (الفتاوى) أن معتقد الجهة لا يكفر، وكذلك من يثبت الحرف والصوت في كلام الله، وذكر في (القواعد) أن مسائل قدم كلام الله، والصفات الخبرية كالوجه واليدين، والجهة، وغيرها لا يمكن تصويب المجتهدين فيها، بل الحق مع واحد منهم، والباقون مخطئون خطأ معفوًا عنه، لمشقة الخروج منه، والانفكاك عنه)[1].

وقد أثَّر العز ابن عبد السلام رحمه الله في بعض تلاميذه ومن جاء بعده، فهذا تلميذه ابن دقيق العيد رحمه الله لم يتوسع في تأويل الصفات كما توسع متأخرو الأشاعرة، قال السيوطي رحمه الله: (توسط ابن دقيق العيد فقال: إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم يُنكَر أو بعيدا توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه، وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب قلنا به

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٨١ - ٦٨٣) بتصرف.

من غير توقيف، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] فنحمله على حق الله وما يجب له)[(١)].

هذا ولا شك أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل عالم يُؤخذ من قوله ويرد، فلا أحد من علماء المسلمين معصوم من البدعة والخطأ.

قال ابن تيمية: (لا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقول، ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول ﷺ في كل ما يوجبه ويخبر به، بل كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، واتِّباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له، ليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق، بل كل أحد عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله، فيفعل المأمور ويترك المحظور)[(٢)].

وقد نقل ابن القيم الإجماع على عدم جواز التعصب لعالم بعينه، واتخاذ أقواله بمنزلة نصوص الشارع لا يلتفت إلى قول من سواه، بل ولا يلتفت إلى

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٣٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٨).

نصوص الشارع إلا إذا وافقت نصوص قوله، وذكر أن هذا التعصب لم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة[١].

قال ابن تيمية: (من أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك، ولا يستحب له ذلك، بل يكره له، وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان، والذين يعلمونه ويؤدبونه لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه فإنه يفعل الأصلح لدينه، وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده، فأما الانتساب الذي يُفرِّق بين المسلمين، وفيه خروج عن الجماعة والائتلاف إلى الفرقة وسلوك طريق الابتداع ومفارقة السنة والاتباع، فهذا مما يُنهى عنه، ويأثم فاعله، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ)[٢].

ومسألة تأويل الصفات أو تفويضها أخطأ فيها كثير من علماء الأشاعرة تأثرا بعلماء الكلام، قال محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: (غلط في هذا خلق لا يحصى كثرة من المتأخرين، فزعموا أن الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من معنى الاستواء واليد مثلا في الآيات القرآنية هو مشابهة صفات الحوادث، وقالوا: يجب علينا أن نصرفه عن ظاهره إجماعا؛ لأن اعتقاد ظاهره كفر؛ لأن من شبه

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٥٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٤).

الخالق بالمخلوق فهو كافر، ولا يخفى على أدنى عاقل أن حقيقة معنى هذا القول: أن الله وصف نفسه في كتابه بما ظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم الكفر بالله، والقول فيه بما لا يليق به ﷻ! والنبي ﷺ الذي قيل له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] لم يبين حرفا واحدا من ذلك! مع إجماع من يعتد به من العلماء على أنه ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وأحرى في العقائد، ولا سيما ما ظاهره المتبادر منه الكفر والضلال المبين، حتى جاء هؤلاء فزعموا أن الله أطلق على نفسه الوصف بما ظاهره المتبادر منه لا يليق، والنبي ﷺ كتم أن ذلك الظاهر المتبادر كفر وضلال يجب صرف اللفظ عنه! وكل هذا من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة، سبحانك هذا بهتان عظيم! ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال، ومن أعظم الافتراء على الله ﷻ ورسوله ﷺ، والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصف وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان، هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث، فبمجرد إضافة الصفة إليه ﷻ يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق، وبين شيء من صفات المخلوقين، وهل ينكر عاقل أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل: هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته وجميع صفاته؟! ومن يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله لأنه كفر وتشبيه إنما جر إليه ذلك ما في قلبه من التشبيه بين الخالق والمخلوق، فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله ﷻ، وعدم الإيمان

بها، مع أنه ﷻ هو الذي وصف بها نفسه، فكان مشبها أولا، ومعطلا ثانيا، فارتكب ما لا يليق بالله ابتداء وانتهاء، ولو كان قلبه عارفا بالله كما ينبغي، معظما لله كما ينبغي؛ لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه أن وصف الله ﷻ بالغ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون قلبه مستعدا للإيمان بصفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فلو قال متنطع: بينوا لنا كيفية الاتصاف بصفة الاستواء واليد، ونحو ذلك لنعقلها، قلنا: أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا، فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بالصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات، فسبحان من لا يستطيع غيره أن يحصي الثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل:٧٤]. فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد، وأن الحق فيها متركب من أمرين:

الأول: تنزيه الله ﷻ عن مشابهة الخلق.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ إثباتا أو نفيا، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

[الشورى:١١]، والسلف الصالح ﭫ ما كانوا يشكون في شيء من ذلك، ولا كان يشكل عليهم،... وهذا الذي ذكرنا من تنزيه الله ﻷ عما لا يليق به، والإيمان بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، هو معنى قول الإمام مالك ؒ: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة)[(١)].

ونحن نعذر العلماء المعروفين بتعظيم الشريعة، والتمسك بالكتاب والسنة، وإن وقع منهم تأويل لبعض نصوص الصفات، فهم لم يقصدوا بتأويلها إلا تنزيه الله سبحانه؛ لظنهم أن ظاهرها يحتاج إلى تأويل، قال ابن تيمية: (المتأول الذي قصده متابعة الرسول لا يكفر، بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفر المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة، كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم... وإذا لم يكونوا في نفس الأمر كفارا لم يكونوا منافقين، فيكونون من المؤمنين، فيستغفر لهم ويترحم عليهم. وإذا قال المؤمن: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠] يقصد كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٣٠ - ٣٢) باختصار وتصرف.

أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة، أو أذنب ذنبا، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا، بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد، كما يستحقه عصاة المؤمنين. والنبي ﷺ لم يخرجهم من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار، فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته؛ فإن كثيرا من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة)[١].

وقال ابن عثيمين: (أما موقفنا من العلماء المؤولين فنقول: من عرف منهم بحسن النية، وكان لهم قدم صدق في الدين، واتباع السنة؛ فهو معذور بتأويله السائغ، ولكن عذره في ذلك لا يمنع من تخطئة طريقته المخالفة لما كان عليه السلف الصالح من إجراء النصوص على ظاهرها، واعتقاد ما دل عليه ذلك الظاهر من غير تكييف، ولا تمثيل، فإنه يجب التفريق بين حكم القول وقائله، والفعل وفاعله، فالقول الخطأ إذا كان صادرا عن اجتهاد وحسن قصد لا يذم عليه قائله، بل يكون له أجر على اجتهاده، لقول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» متفق عليه، وأما وصفه بالضلال فإن أريد بالضلال الضلال المطلق الذي يُذم به الموصوف، ويُمقت عليه، فهذا لا يتوجه في مثل هذا المجتهد الذي عُلِم منه حسن النية، وكان له قدم صدق في الدين واتباع السنة، وإن أُرِيد بالضلال

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٣٩ - ٢٤١).

مخالفة قوله للصواب من غير إشعار بذم القائل فلا بأس بذلك؛ لأن مثل هذا ليس ضلالا مطلقا؛ لأنه من حيث الوسيلة صواب، حيث بذل جهده في الوصول إلى الحق، لكنه باعتبار النتيجة ضلال حيث كان خلاف الحق، وبهذا التفصيل يزول الإشكال والتهويل، والله المستعان)[١].

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١/ ١٢٠، ١٢١).

المبحث السابع:

واقع الأشاعرة في العصر الحاضر

اتجه الأشاعرة المتأخرون في القرن الثامن وما بعده إلى تقرير المذهب الأشعري بالمتون والشروح والحواشي، واكتفى المؤلفون منهم بذكر تعدد أقوال العالم الواحد من أعلام الأشاعرة، وذكر الخلافات الأشعرية بين المتقدمين والمتأخرين منهم[(١)].

واستمر تدريس المذهب الأشعري منذ قرون وإلى يومنا هذا في الجامع الأزهر وجامعة القرويين وجامع الزيتونة، وخرج من هذه المراكز العلمية المشهورة علماء كثير متضلعون بالمذهب الأشعري.

وفي القرن الهجري الماضي ظهر في تركيا عالمان مشهوران من علماء الحنفية الماتريدية، وخرجا من تركيا بعد سقوط الخلافة العثمانية، واستقرا في مصر، وكان لهما نشاط كبير في الدعوة إلى تأويل الصفات على منهج الأشاعرة والماتريدية، وهما:

(١) يُنظر: المدارس الأشعرية دراسة مقارنة للشهري (ص: ٧١١).

- الشيخ المحدث محمد زاهد الكوثري المتوفى سنة ١٣٧١ هـ، وهو كثير الردود على أهل السنة والجماعة، ويلمزهم بالألقاب الشنيعة، لا سيما ابن تيمية وابن القيم، وقد جمع أحمد خيري مقالاته في كتاب: مقالات الكوثري، وقد تأثر بالكوثري كثير من تلاميذه من أهل مصر والشام، وساروا على نهجه في نشر مذهب أهل الكلام.

- وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري المتوفى سنة ١٣٧٣ هجرية، وله كثير من المؤلفات والمقالات، وقد تأثر به كثير من تلاميذه، وساروا على نهجه.

ثم ظهر في الشام الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي صاحب المؤلفات الكثيرة، وقد كانت له علاقة كبيرة مع حافظ الأسد رئيس سوريا، مما أتاح له الظهور في فضائية التلفزيون السوري في التسعينات، وكانت له دروس في الجامع الأموي بدمشق، ولما توفي حافظ الأسد سنة ٢٠٠٠ م كان البوطي إمام الصلاة عليه، ثم استمر في تقديم ولائه لابنه بشار بن حافظ الأسد الذي خلف أباه في الحكم، وبعد اندلاع الثورة السورية ضد بشار الأسد ونظامه النصيري استمر البوطي في ولائه للنظام النصيري حتى قُتِل غفر الله لنا وله أثناء إلقائه درسا في بعض مساجد دمشق في ظروف غامضة سنة ٢٠١٣ م[١].

---

(١) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٢٠ - ٢٢).

وفي العصر الحاضر ينشط أتباع المذهب الأشعري نشاطا كبيرا في نصرة المذهب الأشعري، والدعوة إليه، والرد على يرد عليهم، وقد عقدوا مؤتمر الإمام أبي الحسن الأشعري في القاهرة سنة ٢٠١٠ م، وصدرت أعمال المؤتمر في أربعة مجلدات كبيرة مطبوعة عن مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر.

وأُقيم مؤتمر الشيشان المسمى مؤتمر أهل السنة والجماعة في جروزني عاصمة الشيشان يوم ٢٥ أغسطس ٢٠١٦ م برعاية رئيس الشيشان المعين من قبل روسيا رمضان قاديروف لدعم النشاط الأشعري المعاصر، وقد حضره كثير من علماء الأشاعرة وأعلامهم المعاصرين، ولهم كلمات في الثناء على المؤتمر وعلى رئيس الشيشان الذي عُقِد برعايته، وكانت أبرز نتائج المؤتمر: بيان أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية، ومنهم أهل الحديث المفوضة في الاعتقاد، وأهل المذاهب الأربعة في الفقة، وأهل التصوف[(١)].

ومن أبرز أعلام الأشاعرة المعاصرين الذين لهم نشاط كبير في الدعوة إلى المذهب الأشعري:

في مصر: شيخ الأزهر أحمد الطيب، ومفتي مصر السابق علي جمعة، وأسامة الأزهري.

في الأردن: سعيد فودة وطلابه.

---

(١) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٢٣ - ٢٦).

في اليمن: عمر بن حفيظ وعلي الجفري وعبد الفتاح قديش اليافعي وسيف بن علي العصري المقيم في الشيشان.

في تونس: نزار حمادي.

في ليبيا: جلال الجهاني المقيم في هولندا.

في الكويت: مبارك خالد المبارك[(١)].

والأشاعرة المعاصرون يحرصون في كتبهم ودروسهم ومقالاتهم على تقرير المذهب الأشعري وتصحيحه، ومهاجمة العقيدة السلفية، والطعن في علماء أهل السنة خاصة ابن تيمية الذين يصفونه بالتجسيم، ويحذرون الناس من كتبه[(٢)].

المؤسسات والمراكز العلمية والدعوية الأشعرية:

للأشاعرة المعاصرين مؤسسات ومراكز تهتم بتقرير المذهب الأشعري، ونشر تراث الأشاعرة، ومنها:

---

(١) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٣٧، ٣٨). وقد كان لحسن السقاف نشاط كبير في الدعوة إلى المذهب الأشعري في الأردن، وله طلاب ومؤلفات، ثم إن حسن السقاف صدر له كلام في ذم بعض أئمة الأشاعرة، وخالف بعض عقائد الأشاعرة مثل الرؤية متابعة منه للمعتزلة، فجرى بينه وبين الأشاعرة نقاشات حادة، مما أضعف صلته بالنشاط الأشعري المعاصر.

(٢) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٦٠ – ٨٢، ١٣١ – ١٥٣).

- دار المصطفى التي أسسها الشيخ عمر بن حفيظ عام ١٩٩٧ م في حضرموت، وتتبع الطريقة العلوية الصوفية، ولهذه الطريقة نشاط كبير في اليمن وأندونيسيا.
- مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات العقدية في المغرب.
- مؤسسة طابة في أبو ظبي.
- جامعة الإمام أبي الحسن الأشعري في داغستان.
- مركز تبصير العلمي في الشيشان.
- معهد المعارج في الأردن.
- معهد مدارك في الأردن.
- مؤسسة أنظار التعليمية في الأردن.
- مركز ابن عرفة للتكوين المستمر في العلوم الإنسانية، أسسه الشيخ نزار حمادي في تونس.

النشاط الأشعري في الفضائيات والإنترنت:

لكثير من أعلام الأشاعرة المشهورين مواقع في الإنترنت وقنوات في اليوتيوب وصفحات في الفيس بوك، ومن ذلك:

- موقع الشيخ علي الجفري، وله نشاط كبير جدا، ومحاضرات وحلقات وبرامج متعددة.

- موقع عقيدتي بإشراف الشيخ عبد القادر بطار في المغرب.
- قناة الشيخ سعيد فودة في اليوتيوب، وفيها دروس مرئية له، منها شرح تأسيس التقديس للفخر الرازي، وشرح نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني، وشرح العقائد النسفية.
- منتدى الأصلين أسسه الشيخ جلال الجهاني سنة ٢٠٠٣م.
- منتدى روض الرياحين، وهو ذو طابع صوفي.
- منتدى الأزهريين.
- قناة الإرث النبوي، أسست في الأردن سنة ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٣م لخدمة النشاط الأشعري المعاصر، ومدير القناة محمد السقاف، ويتكون مجلسها الاستشاري من الشيخ عبد الله بن بيه، والدكتور علي جمعة، والشيخ عمر بن حفيظ، والشيخ أبي بكر المشهور.

وتوجد للأشاعرة المعاصرين صفحات شخصية كثيرة في الفيس بوك وغيره من وسائل التواصل الاجتماعي، مثل صفحة الشيخ عبد الناصر حدارة اللبناني، ويتابع صفحته في الفيس بوك حاليا أكثر من عشرين ألف متابع، وفي صفحته مقالات كثيرة في الدعوة إلى المذهب الأشعري وتصحيحه، والرد على من يطعن فيه، ومهاجمة أهل السنة الذي ينبزهم بالألقاب الشنيعة.

دور النشر المهتمة بطباعة الكتب الأشعرية:

توجد للأشاعرة دور نشر خاصة تعتني بنشر كتب الأشاعرة وتحقيقها، وطباعة الكتب الأشعرية القديمة والمعاصرة، ومن تلك الدور:

- دار الرازي في الأردن.
- دار الفتح في الأردن.
- دار الذخائر في الأردن.
- دار النور المبين في الأردن.
- دار الأصلين للدراسات والنشر في الأردن.
- دار الضياء في الكويت.
- دار المنهاج بجدة، وهي دار مشهورة باهتمامها بنشر كتب المذهب الشافعي إلا أنها نشرت أربعة كتب عقائدية أشعرية لأبي حامد الغزالي.

وقد تم في هذه الدور الأشعرية وغيرها طباعة ونشر أكثر من مائة كتاب أشعري للمتقدمين والمعاصرين من الأشاعرة، ومنها كتب أشعرية قديمة نشرت لأول مرة بتحقيق بعض الأشاعرة المعاصرين[(١)].

أبرز مكونات الخطاب الأشعري المعاصر ثلاثة:

- الدعوة إلى اتباع المذهب الأشعري أو الماتريدي في الاعتقاد.

(١) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٦٠ – ٨٢، ١٣١ – ١٥٣).

- الدعوة إلى تقليد المذاهب الأربعة في الفقه.
- الدعوة إلى الطرق الصوفية في السلوك كالطريقة الشاذلية والرفاعية والعلوية(١).

ولو أن إخواننا الأشاعرة المعاصرين اقتصروا على تعلم العلم النافع وتعليمه، والدعوة إلى الله سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتركوا الدعوة إلى المذهب الأشعري لا سيما الذي استقر عليه متأخرو الأشاعرة بعد الرازي، واهتموا بتحقيق توحيد الله سبحانه، والتحذير من الشرك؛ لكان خيرا لهم.

هذا، وللأشاعرة المعاصرين جهود دعوية وعلمية عظيمة لا تُنكَر، ومن ذلك اهتمامهم بالدعوة إلى الأخلاق الإسلامية، واهتمامهم بالفقه المذهبي الشافعي أو المالكي تعلما وتعليما، واهتمامهم بأصول الفقه والقواعد الفقهية ومقاصد الشريعة.

وتوجد لبعض الأشاعرة المتأخرين والمعاصرين ردود طيبة على بعض المخالفين للإسلام والسنة، كالذين ينكِرون بعض الأحكام القطعية كحد الردة أو حد رجم الزاني المحصن أو يُنكِرون بعض العقائد الصحيحة كنزول عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان، أو يجوزون الحكم بغير ما أنزل الله(٢).

(١) يُنظر تفصيل ذلك في كتاب: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ٨٣ - ١٢٠).

(٢) يُنظر: النشاط الأشعري المعاصر لمحمد ياسين (ص: ١٢٣ - ١٣٠).

وكذلك لبعض فضلاء الأشاعرة المتأخرين والمعاصرين ردود موفقة على الملاحدة والمرتدين والعلمانيين وعلى مُنكِري السنة النبوية وعلى الغلاة الذين يُكفِّرون المسلمين.

المبحث الثامن:

الحث على الاعتصام بالكتاب والسنة، وترك البدع

أمر الله المسلمين بالاعتصام بكتاب الله، واتباع رسوله ﷺ، وذم التفرق والاختلاف، ونهى عن جميع الطرق والأسباب المؤدية إليه.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٥-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفِيتم)(٢).

وعن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس رضي الله عنهما فقلت: أوصني، فقال: (عليك بتقوى الله، والاستقامة، اتبع ولا تبتدع)(٣).

وقال التابعي الجليل أبو العالية رحمه الله: (تعلموا الإسلام، فإذا علمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم الإسلام، ولا تحرفوه يمينا وشمالا، وعليكم بسنة نبيكم ﷺ وأصحابه، وإياكم وهذه الأمور التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء)(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وصححه.

(٢) رواه الدارمي (٢١١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٨٦): رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه الدارمي (١٤١).

(٤) رواه معمر بن راشد كما في آخر مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٢٠٧٥٨) بإسناد حسن.

وقال الزهري رحمه الله: (كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة)(١).

وعن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: (مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة)(٢).

وقال الأوزاعي رحمه الله: (عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول)(٣).

وعن أشهب بن عبد العزيز قال: سمعت مالك بن أنس يقول: (إياكم والبدع) فقيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: (أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان)(٤).

---

(١) رواه الدارمي (٩٧).

(٢) رواه أبو الفضل الرازي في كتاب أحاديث في ذم الكلام وأهله (ص: ٨٦)، ورواه أيضا إسماعيل الهروي في كتابه ذم الكلام وأهله رقم (١٠٠٦)، ونوح الجامع هو نوح ابن أبي مريم، من أصحاب أبي حنيفة، وكان واسع العلم، لكنه متروك في الحديث، وهذا الأثر حكاية منه عن شيخه أبي حنيفة رحمهما الله، وليس حديثا مسندا، فيُحتمل قبول مثل هذه الحكاية عنه، والله أعلم.

(٣) رواه الآجري في الشريعة (١٢٧).

(٤) رواه أبو الفضل الرازي في كتاب أحاديث في ذم الكلام وأهله (ص: ٨٢)، ورواه أيضا إسماعيل الهروي في كتابه ذم الكلام وأهله رقم (٨٥٨).

وقال محمد بن إدريس الشافعي ﷺ: (حكمي في أصحاب الكلام أن يُضرَبوا بالجريد، ويُحمَلوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، فيُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام)[(١)].

وقال أحمد بن حنبل ﷺ: (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة)[(٢)].

وأختم هذه النصيحة بما ختم به الذهبي ﷺ كتابه القيم (العلو للعلي الغفار): (قال القرطبي: الأكثر من المتقدمين والمتأخرين من المتكلمين يقولون: إذا وجب تنزيه الباري ﷻ عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك تنزيه الباري عن الجهة، هذا قول المتكلمين، قلت: نعم، هذا ما اعتمده نفاة علو الرب ﷻ، وأعرضوا عن مقتضى الكتاب، والسنة، وأقوال السلف، وفِطَر الخلائق، ويلزم ما ذكروه في حق الأجسام، والله تعالى لا مثل له، ولا نُسلِّم أن كون الباري على عرشه فوق السموات يلزم منه أنه في جهة؛ إذ ما دون العرش يقال فيه: حيز وجهات، وما فوقه فليس هو كذلك، والله فوق عرشه كما أجمع عليه الصدر الأول، ونقله عنهم الأئمة، وقالوا ذلك رادين على الجهمية القائلين بأنه في كل مكان، فهذان القولان هما اللذان كانا في زمن التابعين وتابعيهم، وهما قولان

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص: ٧٨).

(٢) أصول السنة لأحمد بن حنبل (ص: ١٤، ١٥).

معقولان في الجملة، فأما القول الثالث المتولد أخيرا من أنه تعالى ليس في الأمكنة، ولا خارجا عنها، ولا فوق عرشه، ولا هو متصل بالخلق، ولا بمنفصل عنهم، ولا ذاته المقدسة متحيزة، ولا بائنة عن مخلوقاته، ولا في الجهات، ولا خارجا عن الجهات، فهذا شيء لا يُعقل ولا يُفهم، مع ما فيه من مخالفة الآيات والأخبار، ففر بدينك، وإياك وآراء المتكلمين، وآمن بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وفوض أمرك إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله)(١).

إِذَا اتَّضَحَ الصَّوَابَ فَلَا تَدَعْهُ ... فَإِنَّكَ كُلَّمَا ذُقْتَ الصَّوَابَا
وَجَدَّتَ لَهُ عَلَى اللَّهَوَاتِ بَرْدًا ... كَبَرْدِ الْمَاءِ حِينَ صَفَا وَطَابَا
وَلَيْسَ بِحَاكِمٍ مَنْ لَا يُبَالِي ... أَأَخْطَأَ فِي الْحُكُومَةِ أَمْ أَصَابَا

(١) يُنظر: العلو للعلي الغفار (ص: ٥٩٦، ٥٩٧) باختصار وتصرف يسير.

الخاتمة

تبين في هذا البحث المختصر الذي جعلته نصيحة صادقة لإخواننا الأشاعرة أنه بسبب علم الكلام المحدَث الذي نهى عنه كبار علماء الإسلام؛ أخطأ الأشاعرة فيما تابعوا فيه الجهمية والفلاسفة والمعتزلة مما يخالف القرآن الكريم والسنة النبوية، وما عليه سلف الأمة، حتى فيما يتعلق بتوحيد الله سبحانه، ومن **أهم نتائج البحث:**

١) خوض الأشاعرة في علم الكلام الذي ذمه السلف الصالح، وتأثر مذهبهم بمذاهب المعتزلة والجهمية والفلاسفة، واختلاط مذهبهم بالتصوف المتضمن للبدع والمخالفات الشرعية.

٢) اختلاف مناهج الأشاعرة، فمن الأشاعرة من هو أقرب إلى أهل السنة كأبي الحسن الأشعري والباقلاني والبيهقي وأبي القاسم ابن عساكر، ومنهم من اقترب من المعتزلة كعبد القاهر البغدادي وأبي المعالي الجويني، ومنهم من اقترب من الفلاسفة كأبي حامد الغزالي والفخر الرازي.

٣) إدخال أبي القاسم القشيري التصوف في المذهب الأشعري، وجعله لهما مذهبا واحدا، ومتابعة أبي حامد الغزالي لهذا الاتجاه، حتى امتزج التصوف بالمذهب الأشعري.

٤) مخالفة متأخري الأشاعرة لمتقدميهم في كثير من المسائل، وتفاوت الأشاعرة في الخوض في التأويل أو القول بالتفويض، وفي التعامل مع المخالفين لهم، فمنهم الغلاة، ومنهم المقتصدون.

٥) الأثر السيء لعلم الكلام والفلسفة على من يخوض فيهما ولو كان من كبار علماء الأمة.

٦) الهدى في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واتباع الصحابة الذين أثنى الله على من اتبعهم بإحسان بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، والذين أمرنا الله بالإيمان كإيمانهم فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧].

٧) فضل علم السلف على علم الخلف، فالسلف الصالح أوسع علما، وأقل تكلفا، وأكثر خشية، وأبعد من البدع والغلو والتنطع.

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

اللهم برحمتك وفضلك اهدنا الصراط المستقيم، واهدنا لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

المحتويات